انعكاسات الحنين وشجى الاغتراب في شعر محمود سامي البارودي ولويس دي كاموئينش:دراسة مقارنة

رسالة لنيل شهادة الدكتوراه

تقديم

أيـــاز أحمـــد

تحت إشراف

البروفيسورفيضان الله الفاروقي

و

الدكتور سوون سانيال

مركز الدراسات العربية و الإفريقية
كلية دراسات اللغة و الأدب والثقافة
جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي- 110067

2016

مركز الدراسات العربية والإفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi - 110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067
Gram: JAYENU Tel : 26704253 Fax : 91-11-2671 7525

Dated: 21 -07-2016

Declaration

I declare that the material in this thesis entitled " *"Inekasat al-haneen wa shaja al-ighterab fi sher-i Mahmoud Sami al-Baroudi wa luis de Camoens: dirasah muqaranah(Reflection of Nostalgia and Pangs of Exile in the poetry of Mahmoud Sami al-Baroudi and Luis de Camoens: A Comparative study)*" submitted by me, is an original research work and has not been previously submitted for any other degree of this or any other university / institution.

Ayaz Ahmad

Name of Scholar

Prof. Faizanullah Farooqi
CAAS/SLL&CS/JNU

Centre of Arabic & African Studies
SLL & CS
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

And

Dr. Sovan Sanyal
CSPILAS/SLL&CS/JNU

Centre of Spanish, Portuguese
Italian & Latin American Studies
School of Language Literature & Culture Studies
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

Supervisors

Prof. Rizwanur Rahman
Chairperson
CAAS/SLL&CS/JNU

Chairperson
Centre of Arabic and African Studies
SLL&CS, Annexe Building
Jawaharlal Nehru University
New Delhi -110067

المقدمة

الحمد لله وبه نستعين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد فيعرف كل من له أدنى إلمام بالشعر العربي الحديث أن محمود سامي البارودي، الذي طلع على أفق الشعر العربي طلوع الفجر الصادق، قد أحدث فيه تجديدا عظيما جداً بعد أن نهل من مناهل العلم والثقافة واغترف من بحر الشعراء العرب القدماء، بحيث ذكت قريحته الفطرية للشعر، فعكف على قرض الشعر بالغبارة الجياشة، ونطق بلسان حال نفسه في قريضه الذي صنع، وجدّد روح بلاغة اللغة بلا ريب في شعره الذي يتميّز بعناصر الفخر والوجد والحنين إلى الوطن والشوق لرؤية الأهل والدار. كما أن لويس دي كامؤئنس شاعر وطني مغترب من البرتغال، يرجع نسبه إلى أسرة عريقة إسبانية قصدت إلى "كادمن" وأقامت بقصر من قصور "غاليسيا" Galicia. واشتغل أحد أجداده فارساً في جيش الملك بيدرو القاسي Pedro the Cruel، ولكنه قصد إلى البرتغال بعد هزيمة بيدرو وموته في حرب بمونتيل Montiel عام 1369م، حيث ولد كاموئنس عام 1524م، فنشأ نشأة حسنة، وانهل من مناهل التعليم بعمق، إنه كان على معرفة

جمة بالتاريخ، والآداب الكلاسيكية التي تظهر ملامحها بواسطة أعماله، وقد يبدو جلياً لمتصفحي أشعاره أنه شاعر طموح وفي نفس الوقت إنه شاعر حزن وشجن وهو يتأسف على مضي أيام الطرب والفترة الذهبية من حياته، وينغمس في ذكرى تلك الأيام السعيدة، ويحلق شوقه في خيال الماضي، وعنده حنين إلى الوطن وإلى مراتع الصبا.

هذا ويظهر عما ذكرنا أن محمود سامي البارودي ولوئس دي كاموئنس شاعران وطنيان مغتربان، ورغم أنهما من أرضين وثقافتين مختلفتين، هذا عربي من مصر وذلك أوروبي من البرتغال، هذا مسلم وذلك مسيحي، إلا أن ثمة جانب مشترك يربطهما، وهذا الجانب يتمثل في الأغراض الشعرية لكليهما إذ الحنين إلى الوطن يشكل عنصرا مهما لشاعرية هذين الشاعرين اللذين عاشا في المنفي والاغتراب بعيدين عن الوطن والأهل والديار.

واشتهر الشاعران بأعمالهما الرائعة فقد خلف البارودي أثرا له وذكرى هو " ديوان شعره" فقد نسى الناس البارودي كقائد وزعيم سياسي ورئيس للوزراء، ولكنهم ذكروه كشاعر، وخلده ديوانه في ضمير الزمن. وكان البارودي يسجّل ما يحتف به منذ أيامه الدراسية في المدرسة الحربية. وعاد البارودي من منفاه بأكثر ديوانه مخطوطة بيده، ولم يزد عليه بعد النفى في الأعوام التي قضاها بمصر سنة 1900- 1904 من شعره إلا قليل، وبعد أن استقر البارودي في مصر عقب عودته من المنفى أخذ في المعاودة والتنقيح لديوانه، ثم أملاه على كاتبه ياقوت المرسي مرتباً حسب القوافي، جامعاً في كل قافية ما أمكن من الأعراض والمناسبات المتشابهة فكتبه في صورته النهائية. وترك البارودي كتاباً

آخر بعنوان مختارات البارودي، قد ألّف هذه المجموعة من شعر فحول الشعراء المولدين، لتكون عونا للناشئين على طبع ملكة البلاغة والتكوين الفني للشعراء وتغذية الموهبة والخيال، واختار البارودي ثلاثين من الشعراء العباسيين يبدأ برائد الشعر العباسي بشار بن برد، و يتنهى بشرف الدين أبي العباس ابن عنين، وانتخب من هذه الدواوين ما رق لفظه، و دق معناه، وخلا من الحشو والتعقيد، ورتبه في مختاراته على حسب أزمنة الشعراء لا على مكانتهم، ووضع تعليقا لهذه المجموعة يفسر به الألفاظ الغريبة والمعاني المغلقة. أما كاموئنس فهو من أولئك الشعراء المعدودين في العالم كله الذين أثروا عصورهم وبيئاتهم بشعرهم وأعمالهم، هو من أبرز شعراء البرتغال وأعظمها عبر العصور، ويحتل مكانا مرموقا في الآداب البرتغالية حتى فوض إليه لقب O Grande "الأعظم". فإنه ترك على الأدب البرتغالي وشعره أثرا واضحا جليا، وقرض أرفع القصائد الملحمية في تاريخ الشعر البرتغالي والتي اكتسبت مكانة الملحمة الوطنية في البرتغال. كان كاموئنس أول متجدد برتغالي أكمل قصيدة بطلية جدية بنجاح. مع كل المساعي لنموذج الكمال الكلاسيكي إنه كان برتغاليا يمتلك الحيوية والحماسة الوطنية، إن كتاب "لوسيادا" يعد من أجمل الأعمال الشعرية على الرغم من الانحراف عن القواعد والأساليب الكلاسيكية. وذاع صيت هذه الملحمة من مشارق الأرض ومغاربها في وقت قصير، وله مجموعة لقصائده الغنائية نشرت بعد وفاته، يتسم شعره بالحيوية والرفعة والتفاخر والرقة.

وحيث أن الشاعرين تركا ورائهما أعمال شعرية رائعة اتّسمت بالطموح والافتخار والحنين والاغتراب، أراد الباحث بصفته ميّالاً إلى الشعر، القيام بمقارنة بين ما تعكسه أشعارهما من الحنين وشجى الاغتراب، لذا ركّز في اختيار موضوع بحث في دراسة وتحليل أعمالهما مع تناول الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية للمجتمع الذي عاشا فيه وواجها الأزمات والابتلاءات الكثيرة في السجن والنفي والاغتراب، إلى جانب مناقشة المضامين الشعرية وأساليبها عند الشاعرين بعنوان "انعكاسات الحنين و شجى الاغتراب في شعر محمود سامي البارودي ولويس دي كاموئينش: دراسة مقارنة". ومما دفعني إلى اختيار هما لموضوع البحث هو كثرة الحنين والاشتياق في شعرهما، لما صادفتني قراءة شعرهما بدا لي بأنهما على صفحة واحدة في التعبير عن مصائب الدهر وآلام الاغتراب فوجدت في نفسي ميلا إلى دراسة مقارنة بين شعرهما بالتركيز الخاص على الحنين و شجون الاغتراب فيه، وكذلك لا توجد هناك أية دراسة مقارنة تعالج هذا الجانب من شعرهما فيما أعلم.

وفي كتابة هذا البحث ما التزمت بأي منهج نقدي بل اعتمدت على استقصاء لكل ما أتناوله دراسة ومقارنة، فقد شغلتُ بأعمالهما شغلا مكثفا، وجعلت هذا البحث حصيلة كثير من الدراسة العميقة في بيئتهما وحياتهما وثقافتهما ودواوينهما الشعرية مع ما فيها من الأساليب والمزايا والخصائص، وحاولت البحث عن جوانب الحنين وآلام الاغتراب في شعرهما.

أما مصادر هذه الدراسة فهي متنوعة وكثيرة، إلا أن أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها هذه الدارسة هي دراستي المباشرة لدواوينهما الشعرية، بالإضافة إلى عدد من الكتب التي تتحدث عن الشاعرين وحياتهما وثقافتهما، استفدت من كثير من المقالات والدراسات التي نشرتها المجلات والصحف بشأن إسهاماتهما في الأدب والشعر وحياتهما في المنفى. وقد تعرض الباحث لعدد من المشاكل خلال إعداد هذا البحث، من أهمها نقلُ المفاهيم لبعض قصائد كاموئنس من البرتغالية إلى العربية لكي يعرض الباحث نماذج للمقارنة بين شعرهما، ولا أدري إلى أي حد قد نجحت في أداء مسؤوليتي هذه، لقد حاولت الاستعانة ببعض القصائد المترجمة في الإنجليزية ولكني وجدتها كلها غير كافية لأداء المعني فاعتمدت على النصوص الأصلية اقتداء لقول سسموندي Sismondi : "إن أدني إلمام بلغة كاموئنس الأم يضمن للقارئ التمتع من شعره أكثر ما يجده من خلال أصح ترجمة لشعره"، وفي الأخير أعترف بأني لم أستطع القيام بواجبي كما كان المطلوب، ولكنني بذلت الجهود وتوخيت الصدق والأمانة حسب وسعي.

ودراستي هذه تحتوى على خمسة أبواب تختلف في عدد فصولها وتسبقها مقدمة وتليها خاتمة.

المقدمة: تعريف موجز لجميع ما ناقشت في البحث، وأهمية الموضوع وأسباب اختياره والمنهج المتبع في البحث والمصادر التي اعتمدتُ عليها.

الباب الأول: محمود سامي البارودي حياته وأعماله، وفيه الحديث عن خلفيات عصر البارودي، ومولده وأسرته ونشأته وأهم مراحل حياته ثم دراسة في شعر البارودي وأعماله.

الباب الثاني: لوئس دي كاموئنس حياته وأعماله، وفي هذا الباب ألقى الباحث الضوء على خلفيات عصر كاموئنس أولاً، ثم تطرق إلى مناقشة حياته وأهم ما قدّم من خدمات جليلة. كما أن فيه فصل يدور حول آثار كاموئنس وشعره.

الباب الثالث: الأوضاع الشعرية في مصر وبرتغال خلال عصر الشاعرين، وناقش الباحث فيه الوضع الشعري لمصر في عصر البارودي ودوره فيه، ثم الوضع الشعري للبرتغال في عصر كاموئنس ودوره فيه.

الباب الرابع: المضامين الشعرية وأساليبها عند الشاعرين، ركّز الباحث في هذا الفصل على فن البارودي وأسلوبه ليتبعه مناقشة فن كاموئنس وأسلوبه.

الباب الخامس: الحنين وشجى الاغتراب في شعر كلا الشاعرين، وجعل الباحث هذا الباب من أهم أبواب البحث، وتطرّق فيه إلى ذكر الحنين إلى الوطن وأهله في شعرهما، مُبرزاً في شعرهما عناصر الحنين إلى الماضي وأيام الشباب، وبعد ذلك توجه إلى دراسة عناصر الحنين إلى الحب في شعرهما، وانتهى الباب بمناقشة: شجون الاغتراب في شعرهما.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصل إليها الباحث، كما أنها تحتوى على بعض من توصياته.

وأخيرا؛ نعم! الشكر كلّه لله سبحانه وتعالى أولا و أخيرا، الذي وفّقني لإكمال هذه الدراسة؛ ولكن لا يفوتني أن أقدِّم جزيل الشكر ووافر التقدير إلى جميع من ساعدوني في إكمال هذه الرسالة، كما أزجي الشكر الخالص وأسجِّل تقديري وامتناني البالغين للبروفيسور فيضان الله الفاروقي والدكتور سوون سانيال Dr Sovon Sanyal، اللذان يسّرا لي البحث بنصحهما وإرشاداتهما، حتى أمكناني القيام بإكماله. فشكرا لهما خير شكر وأحسن تقدير.

كما أتقدم بالشكر إلى جميع الأعضاء المنتسبين إلى مركزنا - مركز الدراسات العربية والإفريقية. اللهم تقبل مني هذا البحث واجعله نواة لبحوث مستقبلية.

أيـــــــاز أحمـــــــد
الباحث بجامعة جواهر لال نهرو
دلهي الجديدة
2016/07/20

الباب الأول

محمود سامي البارودي حياته وأعماله

الفصل الأول: خلفيات عصر البارودي

الفصل الثاني: حياة البارودي وشعره

الفصل الثالث: آثار البارودي وأعماله

الفصل الأول

خلفيات عصر البارودي

التكوين التاريخي:

يعد العصر الذي سبق عهد البارودي من العصور الحافلة بكثير من الأحداث في تاريخ الوطن العربي عامة وتاريخ مصر خاصة، وقد رافق تلك الأحداث صراعات وكوارث اجتماعية وسياسية كان لها الأثر البارز في اسهامات الكتاب والشعراء وقتذاك، وتركت انطباعا خاصا على ذهن الجيل القادم.

لقد مر الشعب المصري بأسوأ مرحلة من مراحل التاريخ خلال الاحتلال البريطاني، إن مصر وقعت فريسة للاستعمار بعد فشل الثورة العرابية التي قادها أحمد عرابي عام 1882م وشارك معه كثير من الزعماء المصريين في مقدمتهم محمود سامي البارودي، وألقي القبض عليهم بعد إطفاء الثورة وحُكم عليهم بالإعدام أولا ثم خففت العقوبات فنفوا عن البلاد وعادت مصر كلها تحت براثن الاستعمار البريطاني لمدة طويلة، وأصبح سلطان الولاة العلوية رمزا وانتقلت القوة الحقيقية إلى الإنجليز الذين قاموا خلالها بأعمال العنف والاضطهاد وتعدوا حدود الإنسانية في الهمجية على الشعب المصري وأتوا بصنوف من الجرائم القبيحة من القتل والنهب وتضييق

الخناق الاقتصادي على الشعب المصري وأصبح المصريون كأنه ليس لهم حق للحياة في مصر، إن هذه الابتلاءات والمؤانات للمصريين لم يسبق لها مثيل في التاريخ.[1]

إذا نستعرض أحوالهم في الماضي نجد أن الحياة في مصر كانت مستقرة مزدهرة في أول عصر المماليك حيث إنهم استعدوا لتصدي الأخطار الخارجية التي كانت تهدد دولتهم، والقضاء على الفتن والثورات الداخلية التي شكلت خطرا لاستقرار ملكهم، وقد بذلوا قصارى جهودهم لتوفر الأمن والسلام لرعاياهم، وإرساء دعائم الاستقرار في أرجاء دولتهم في مصر والشام. إنهم قاموا بالدفاع عن الأخطار الخارجية وقاوموا حملات التتار والصليبيين مقاومة حاسمة ودفعوهم عن الشرق الإسلامي، واستقر الحكم لهم في مصر حتى ساد الأمن والرخاء وترعرع البلاد لمدة، فما لبثوا أن انغمسوا في الاسراف و لجأوا إلي الظلم والعنف في أواخر عهد المماليك الجراكسة، فأثقلوا كواهل الشعب المصري بأنواع من الضرائب، وتسرب الفساد في عهدهم إلى جميع فروع الحكومة حتى عمت الفوضى في البلاد وضج الناس من شر الجنود ضجا، وعلى الرغم من كل الفساد إنهم دافعوا البلاد عن الحملات الأجنبية أحسن الدفاع.[2]

وفي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي بدأت حملات الدول الأوربية للاستيلاء على طرق التجارة البحرية إلى آسيا خاصة الهند وتنافست الدول لتحقيق نفوذهم حتى كشف فاسكودي جاما طريق رأس الجاء الصالح عام 1499م، فما لبث

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص250-266

[2] عمر الإسكندري، تاريخ مصر إلى الفتح العثماني ص240.

البرتغاليون أن فرضوا سيطرتهم على مياه الخليج العربي وتعرضوا للتجارة العربية فيها، وجدير بالذكر أنهم لم يواجهوا تحالفا بين القوى الإسلامية الكبرى ولم يكن هناك سوى دولة المماليك التي تصدت لهم عسكريا، ولكن كفاءاتهم العسكرية لم تكن كافية لصد الزحف البرتغالي حيث إنهم تسلحوا بالأسلحة النارية الجديدة، بالإضافة إلى ذلك إنهم استغلوا الخلافات العصبية والمذاهبية بين الولاة والشيوخ للدول الخليجية كل الاستغلال، وأثناء ذلك انتهزت الدولة العثمانية الفرصة للاستيلاء على مصر والشام عام 1517م، ثم وسعت نطاق نفوذها إلى أنحاء الدول العربية الأخرى وجاءت الخلافة العثمانية في حيز الوجود، وأصبحت مصر ولاية للخلافة العثمانية يُعيَّن واليها من قبل الخليفة العثماني، فتحملت الخلافة العثمانية مسؤلية الدفاع لولاياتها عن الأخطار الخارجية وحاولت استعادة طرق التجارة التي فقدت مصر بعد التسلط البرتغالي، وواصل العثمانيون استعداداتهم لمواجهة الخطر البرتغالي فأمر السلطان العثماني سليمان القانوني سليمان باشا بتشييد أسطول قوي، وتقدم العثمانيون لبسط نفوذهم في الخليج، وصادف ذلك إعلان الإمارات الخليجية الولاء للسلطان العثماني ويعتبر هذا تقدما مهما للنفوذ العثماني نحو الخليج، ودفع هذا الإنجاز الدولة العثمانية إلى مواجهة مباشرة مع البرتغال وواصلت الدولة التصدي للنفوذ البرتغالي في الخليج بين عامي 1550 و 1580، ثم

انسحبت من ساحة الصراع في الخليج العربي. وظلت مصر ولاية عثمانية إلى أن يغزوها نابليون بونابرت.[1]

وفي عام 1798 م، استولى الفرنسيون عليها، فلم تستطع الدولة العثمانية والولاة المماليك الدفاع عنها، واتخذ نابليون خطوات عديدة لكسب رضا المصريين، بمافيها إنشاء مجالس شورى باسم الدواوين المكونة من رجال الأزهر وبعض الأعيان والتجار، وحاكى مسلما في زيه وملبسه ادعاء بأنه جاء لصالح الشعب المصري، ولكنه لم يستطع تسخير قلوبهم بالمخادعة، فمالبث المصريون أن نهضوا ضد هذه الحملة الفرنسية وقامت ثورات شعبية بزعامة شيوخ الأزهر ذهبت ضحيتها كثير من النفوس الأبرياء، واضطر الفرنسيون إلى مغادرة مصر عام 1801 م، وقد ساعدت إنجلترا في هذه المقاومة لاسترداد الحكم العثماني، فلم يمكث أن انفجرت ثورة عنيفة ضد الوالي العثماني خورشيد باشا بزعامة السيد عمر المكرم فاضطر إلى مغادرة مصر خوفا من غضب الشعب المصري فعين محمد علي القائم بالأعمال مكانه، واستدعى محمد علي الحاكم العثماني لولايته فصدر الحكم في حقه عام 1805 م، وظل محمد علي قابضا على زمام الحكم حتى عام 1848 م، وحاول الإنجليز أثناء ذلك تعيين أحد أتباعه من المماليك واليا لمصر، ولكن الشعب المصري قاوم هذا

[1] جهود العثمانيين في الحد من لتهديد البرتغالي للنشاطات التجاري في الخليج العربي من خلال الوثائق العثمانية ص1-8.

وعمر الإسكندري، تاريخ مصر إلى الفتح العثماني ص-244.

التدخل بكل قوة وحماسة.[1] فما لبث محمد علي أن اعتزم على التخلص من خطر داخلي من قبل المماليك الذين يشكلون تهديدا لحكمه كما يتمتعون بنفوذ قوي في شؤون مصر، فدبر تدبيرا للقضاء عليهم، ووقع حادث مذبحة القلعة عام 1811 م، قتل في هذه المذبحة جد البارودي لأمه علي آغا البارودي، وجده لأبيه عبدالله الجركسي الألفى. يصف علي الحديدي هذه الأزمة ويقول:

" قتلت مذبحة القلعة الأمل الوليد في النفوس، وأخمدت الروح الوطنية التي امتلأت بها قلوب الأمة في مقاومتها خلال الاحتلال الفرنسي، ورأى الشعب فيها صورة المخادع التركي على حقيقته، وقد كشف من نيابه وأسلحته ليقضي على من يتصدى لأطماعه، أو يقف في طريق دكتاتوريته، واختفت إلى الأبد صورته بالأمس وهو يلبس مسوح النفاق، يخطب ود الشعب ويستجدي عطفه، ويطمع في ثقة زعمائه، ويختلط بالعامة، ويتحبب إليهم، ويتعهد بألا يبرم أمرا دون مشورة علمائهم وذوي الرأي فيهم"[2].

لما تيقن محمد علي باستقراره السياسي عكف على تنفيذ خططه الاقتصادية المبنية على احتكار المحصولات لنفسه، وجعل يكبح جماح الشعور القومي بشتى الطرق كي يحفظ مصالحه السياسية، ويدلي إرادته على الشعب المصري كيفما يشاء، حتى أصبح قوله هو الحرف الأخير في كل الأمور، وواصل سياسة التوسيع وانضم السودان إلى حكمه ثم الشام والجزيرة العربية، وتعليقا على موقفه السياسي

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث ص12.

[2] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص37

تجاه الشعب المصري العربي يقول شوقي ضيف: " ولم يكن باعثه على ذلك إحساسا عميقا بالقومية العربية، فقد كان ألباني الأصل وأصبح حاكما عثمانيا، ولم يستشعر العروبة يوما، إنما كان باعثه إقامة ملك ضخم له ولأسرته على حساب الدولة العثمانية الواهنة التي أخذت تتداعى أركانها في كل مكان"[1].

ولم تغفل أنظار إنجلترا وفرنسا عن مصر للحظة واحدة نظرا إلى موقعها الجغرافي، ومازالت إنجلترا تحاول ما في وسعها فرض سيطرتها على مصر، لأن نفوذ فرنسا كان يشكل خطرا لمستعمرتها وإمبراطوريتها المهمة "الهند"، فوقع الصراع بينهما الذي أثبتت فيه إنجلترا تفوقها على فرنسا بعد هزيمة نابليون بونا بارت عام 1815 م، ومضت إنجلترا تضيق الخناق على مصر بصنوف من الدسائس والمؤامرات التي دبّرتها مع الدولة العثمانية والدول الأوربية الكبرى، فأجبر محمد علي على التنازل عن الجزيرة العربية والشام للدولة العثمانية بمقتضى مؤتمر لندن عام 1840م، وبقيت مصر ولاية عثمانية تساندها بجيشها في معاركها، وتحترم معاهداتها مع الدول الأوربية، وكذلك فتحت أسواق مصر للتجارة الإنجليزية، فأخذ احتكار محمد علي على اقتصاد مصر يتفكك، وجعلت الدول الأوربية تتدخل في الشئون السياسية، إذ أصبحت الكلمة العليا فيها لدول أوربا الكبرى.[2]

---

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص13.

[2] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث ص15-16

خلف محمد علي عباس الأول، فما زال الإنجليز يمدون نفوذهم في مصر بالطرق المختلفة، حتى منح لهم مشروع إنشاء خط حديدي بين القاهرة والإسكندرية، استغل الإنجليز في إنفاذ هذا المشروع المصادر المصرية والعمال المصريين استغلالا ظالما، فلما تولى سعيد على الحكم منح فرنسا امتياز تأسيس شركة عامة لحفر قناة السويس عام 1854 م، ثم منح إنجلترا عقد الامتياز سنة 1856 م، وبدأت عملية حفر القناة سنة 1859 م، وكان لمصر من أسهمها خمسون في المائة في عهد سعيد، ولكن لما تولى إسماعيل الحكم بعد وفاة سعيد باعها للحكومة الإنجليزية لسبب سوء مالية مصر، لقد خسرت مصر، مع ذلك، القناة كلها، ومضت مصر تئن تحت الديون الباهظة التي أدت إلى تسليم مشروع قناة السويس إلى شركة أوربية.[1]

ومع ذلك تمهد الطريق إلى الاحتلال البريطاني، بحيث أنشأ إسماعيل صندوقا للدين تحت إدارة المندوبين عن البيوت المالية الأجنبية، ثم فرضت الرقابة الأجنبية على المالية المصرية سنة 1876م، فما لبثت هذه الرقابة أن تحولت إلى الوزارة حيث عين وزيران، إنجليزي وفرنسي، في الوزارة المصرية من قبل دولتيهما، وأخذا يتداخلان في شئون مصر بصورة مباشرةٍ فحدثت هناك ضجة بين المصريين ضد هذا التدخل السافر من الأجانب، ومع ذلك بلغ الفساد والتعصب الجنسي في الجيش ضد المصريين إلى أوجها، فنهض الشعب المصري لتنشيط مجلس النظار في النشاطات الحكومية، في أثناء ذلك تنازل إسماعيل، وتولى زمام الحكم توفيق، ولكن الأمر قد

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص20.

ذهب من سوء إلى أسوأ وتفجرت الثورة بزعامة أحمد العرابي عام 1881م، فحدث ما حدث من ظلم ونهب وتشريد ونفي لقمع هذه الثورة، سنبحث عن هذا في فصل حياة البارودي حيث إنه كان أحد رواد الثورة العربية، وبعد فشل الثورة ترسخت سيطرة الإنجليز في مصر.[1]

التكبيل الاقتصادي والسياسي:

كانت الأوضاع السياسية والاقتصادية مزدهرة في عهود السلاطين المماليك كما ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة، وقد كانت المدخولات الزراعية عصب الحياة الاقتصادية، كانت مصر تهتم بزراعة القطن وقصب السكر والحبوب والخضراوات والنخيل وغيرها من المحاصيل التي كانت تعتمد على مياه النيل. بالإضافة إلى ذلك اهتم المماليك بتطوير الزراعة وزيادة مساحة الأراضي الزراعية، فقاموا بشق الترع والخلجان واستصلاح الأراضي وبناء الجسور.

وفضلا عن ذلك لم يكن عهد المماليك كله متصفا بالرخاء والازدهار وخاليا عن الاضطرابات، بل عانت مصر في عصرهم من النكسات والنكبات الاقتصادية أيضا، إما كانت في صورة قلة هطول الأمطار وانخفاض مستوى الماء في النيل والأنهار، أو في صورة ارتفاع الأسعار، ولكنها ازدهرت بصورة شاملة حيث مازالت

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص21-29.

التجارة مزدهرة بسبب موقعها الجغرافي والاستراتيجي، وكانت بضائع الشرق الأدنى والأقصى تأخذ طريقها إلى أوربا عبر موانئ مصر والشام.[1]

وفي العصر العثماني تنعكس مظاهر القوة وعوامل الرخاء والانتعاش الاقتصادي، ولم يتدخل العثمانيون على مستوى الزراعة، وأبقوا نظام الإقطاع العسكري على حال ما كان عليه من قبل، واختلفت مساحات الأراضي التي توزعت بين الإقطاع والوقف، والمكيات الخاصة عما كانت عليه في عهد المماليك، فتوسعوا فيه إلى حد. كما أخذ الضعف والكساد يتسلل في طيات النظام الإداري، أصبحت الطبقة المتوسطة الحال عرضة لاستغلال الباشا العثماني والحاكم المملوكي، أما الصناعة فاستمرت كما كانت عليه في أيام المماليك، فمن أشهرها النسج وصبغ الملابس، والأسلحة النارية، والتحف والزخارف، وفنون العمارة، والأثاث الخشبي، وصناعة السفن وقوارب الصيد في الإسكندرية.[2]

لقد بذل العثمانيون جهودا جبارة لتأمين الطرق الممتدة في أرجاء الدولة، وحاول استرداد التجارة البحرية إلى عظمتها الماضية التي قد تعرضت لنكسة بعد سيطرة البرتغاليين على المياه الخليجية والهندية، ولكن الفتن والاضطرابات أحاطتها في أيامها الأخيرة وازدادت الدول الأوربية في تضييق الخناق عليها بطرق شتى، دفعتها هذه الأوضاع إلى الانشغال في الحروب مع أعدائها لإخماد الثورات وحركات التمرد،

[1] نبيل خالد أبو علي، الأدب بين العصرين المملكي والتركي، الجزء الأول، ص12-24.

[2] نبيل خالد أبو علي، الأدب بين العصرين المملكي والتركي، الجزء الأول، ص25-27

فنتيجة تغير مجرى الحياة السياسية والاقتصادية رغم محاولات الإصلاح التي بادر إليها سلاطينهم.[1]

ومضت الصناعة بعد ذلك إلى انتهاء العهد العثماني بتخلف وجمود، وانحصرت في طوائف حرفية، يتحكم بها شيوخ كل طائفة، وزاد الطين بلة عندما تدخلت الحكومة في تعيين الشيوخ، فدخل الحرف من عناصر غير أهلها فتقهقرت الصناعة واضمحلت اضمحلالا، وكان لنظام الامتيازات الأجنبية (Capitulation)، الذي أدخل إلى الدولة العثمانية أخيرا، دور واضح في تقليل الوسائل الاقتصادية دون نمو أي حرفة أو صناعة جديدة، وخاصة بعد أن غزت المنتجات الصناعية الأوربية البلاد العربية. فخلاصة القول إن مصر قد عانت بنكسة اقتصادية في أواخر العهد العثماني حتى غزاها ها نابليون بونابرت واستولى عليها عام 1798م.

ولم يلبث الفرنسيون أن واجهوا مقاومة عنيفة مستمرة من الشعب المصري ولم يجدوا لهم قرارا في مصر، فأرغموا على المغادرة عام 1801م، ورجع حكم مصر إلى الدولة العثمانية من جديد، وفاز محمد علي بولاية مصر بعد ثورة شعبية ضد والي مصر خورشيد باشا عام 1805م. يعد هذا الحادث نقطةالتحول لتطور الاقتصاد المصري، فاتخذ محمد علي إجراءات عديدة لإقامة دولة كبيرة يحميها جيش قوي، فأنشأ مصانع كبيرة لسد حاجة الجيش والشعب المصري، واحتكر

[1] نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين في الحد من التحديد البرتغالي للنشاط التجاري في الخليج العربي، ص5.

منتجاتها وكذلك احتكر المحصولات الزراعية واعتنى بانتعاش التجارة العالمية عن طريق مصر عناية جدية، فنشطت التجارة بمصر كما نشطت الزراعة والصناعة، وازدهرت الحياة ازدهارا، ومع ذلك سلك محمد علي طريق العنف والهمجية لكبح جماح الشعور القومي، وعالج كل عائق جاء بينه وبين حكمه وسياسته بكل شدة وقوة، حتى استقر الأمر له، ومضت مصر تزدهر من كل ناحية وتمد نفوذها إلى البلاد المتجاورة، وتشكلت قوة نامية في المنطقة تهدد مصالح القوات المستعمرة التي كانت تنافس منافسة شديدة لمد نفوذها وتوسيع نطاقها الاستعماري، كانت هناك قوتان بارزتان تصارعان، هما إنجلترا وفرنسا.[1]

وتنبهت بريطانيا إلى الحملة الفرنسية على مصر لوقوعها الجغرافي بين القارات الثلاثة إفريقيا وآسيا وأوربا، وبالإضافة إلى ذلك كانت مصر هي الطريق المباشر إلى إمبراطوريتها المستعمرة المهمة " الهند" ، وحملة نابليون بونابرت على مصر دفعت بريطانيا إلى محاولة استيلاء مصر أو التمكين من أمورها وسياستها، فاستهدف الإنجليز تعيين ألفى بك أحد زعماء المماليك كوالي مصر عام 1807، ولكن الشعب المصري عارض هذا الأمر بكل قوة وشدة فامتنعوا عن إرادتهم إلى حين، أما فرنسا فمازالت تتراقب هذه الأوضاع بكل دقة، وتنتظر لفرصة مناسبة لدورها، وتمكنت من بسط نفوذها في شؤنها عن طريق العلماء والإخصائيين الذين جاؤا لمساعدة محمد علي في نهضة مصر العلمية والصناعية، فوقع هناك التنافس بين

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث ص10-14.

إنجلترا وفرنسا لكسب عناية محمد علي لكى تنفذا نفوذهما في مصر، لكن موقف محمد علي الحازم وجيشه القوي قد تعرضا لهذا الغرض، حتى انهزمت فرنسا بهزيمة نابليون عام 1815 بأيدي الإنجليز، فتقلصت نفوذها السياسي على الصعيد الدولي وبقي الإنجليز بغير معارض في مصر يتفحصون ويستعرضون نشاطات محد علي وسياساته عن كثب، فلما رأوا التجارة تترعرع في مصر وتكثر أموال الدولة بسبب احتكارها للمتأجر والمنتوجات الزراعية والصناعية أسرعوا بعقد معاهدة اقتصادية مع الدولة العثمانية عام 1838م، وعلى أساس هذه المعاهدة فتحت أسواق الولايات التابعة لها للتجارة الإنجليزية، ومع ذلك قد تمهد لإنجلترا الطريق للتغلب على الأسواق المصرية واحتكارها، ثم التفوق عليها سياسيا، يصف هذا الوضع الدكتور شوقي ضيف ويقول:

"وهي إنما تبغى بذلك هدم نظام الاحتكار الذي أقامه محمد علي بمصر والشام والذي مكنه ماليا من تنفيذ خططه الحربية، أو بعبارة أدق تريد هدمه اقتصاديا لتنفذ إلى هدمه سياسيا، ولم يُعِر ذلك التفاتا. ورأى الإنجليز في دولته التي كونها شرا مستطيرا، و خاصة حين رأوه يحاول أن يمد نفوذه إلى اليمن، عاقدا المعاهدات بينه و بين شيوخ الولايات الجنوبية على المحيط الهندي، ومحاولا أن يبسط سلطانه إلى الخليج العربي، وكأنما كان ذلك ناقوسا مدويا لهم أن يتداركوا الأمر قبل استفحاله وقبل أن تصبح كل مراكز الطريق القديم إلى الهند في قبضة محد علي، فبادروا إلى احتلال عدن في سنة 1839 وأخذوا فيما بعد يعقدون

المعاهدات مع شيوخ القبائل من عدن إلى الخليج العربي، متخذين منها شبكة لاقتناص كل تلك الأرجاء العربية، ولم تلبث وقعت جميعها فريسة لاستعمارهم الغاشم وأغلاله، ولا تزال تجاهد إلى اليوم للإفلات من هذه الإغلال"[1] .

وظلت إنجلترا توغر الحاكم العثماني ورؤساء الدول الأوربية على محمد علي، فاتفقوا جميعا على تسوية في مؤتمر لندن عام 1840 م، كان من أهم بنودها أن تحترم مصر مايعقده العثمانيون مع الدول الأوربية من معاهدات، وأن تخضع لما فرضه العثمانيون في دولتهم للأوربيين من امتيازات، فتعرض الاقتصاد المصري لنكسة بعد هذه التسوية، وأخذت قيود الاحتكار التي طوقها محمد علي تنفكّ، حتى إذا كان عصر عباس الأول انفكت جميعها انفكاكا دفع الاقتصاد إلى التدهور الهالك، حيث قبض التجار الأجانب على الشوؤن الاقتصادية بما استثمروا من أموالهم في القطاع المختلفة، إنهم كانوايتمتعون بحقوق المواطنين الحقيقيين، بل قد تفوقوا عليهم بالامتيازات الأجنبية التي منحهم العثمانيون في ولاياتهم، بالإضافة إلى ذلك قد أعطوا الامتيازات الإضافية في عهد إسماعيل، حيث كانوا لايخضعون للنظام القضائي المصري بل أنشأت لهم محاكم خاصة، وكذلك مضوا يستغلون المصادر، فأنشأوا المشاريع التجارية خاصة في تلك القطاع التي لاتمارس فيها الحكومة، واستغلوا الفلاح لصالحهم بشرائهم المحاصيل بأبخس الأثمان ناظرين إلى مصالحهم الشخصية دون مصلحة الشعب، وظلوا يغتصبون موارد البلاد

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص15

وإمكانياتها بظلم واضطهاد، حتى أثقلت خزينة البلاد بالديون الباهظة، وحدث في عهد إسماعيل إنه باع أسهم قناة السويس لإنجلترا، ثم باع توفيق أرباحها التي ذهب ضحيتها الشعب المصري.

لما تضخمت الديون التي أخذها إسماعيل من البيوت المالية الأوربية، أجبر على فرض الرقابة الأجنبية على المالية المصرية، بحيث يتولاها رقيبان أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي، وقبل ذلك كان قد تم إنشاء صندوق الدين تحت إدارة المندوبين عن البيوت المالية الأجنبية، فما لبث الرقيبان أن قاما بمطالبة تشكيل لجنة تحقيق أوربية لفحص شئون مصر المالية، فأرغم إسماعيل على تأليف اللجنة التي اقترحت فيما بعد إلغاء الرقابة المالية مقابل تعيين وزيرين أوربيين في الوزارة المصرية، فلم يستطع إسماعيل رفض الاقتراح، وألفت وزارة مختلط تحت رئاسة نوبار، وعينت فيها الدولتان الإنجليزية والفرنسية وزيريهما. وبهذا الطريق تدهورت مصر سياسيا كما تدهورت اقتصاديا.[1]

الثورة العرابية:

وازداد التدخل الأجنبي الذي بث في نفوس الشعب المصري انقباضا واضطرابا، فتوجعوا لما أصاب الوطن من ألم واضطهاد من الطبقة الحاكمة والأجانب المتدخلين، ونهض جماعة من الزعماء المصريين يقودون الشعب لمطالبة الإصلاح في النظام الحكومي، واشتدت مطالبتهم، ونظرا إلى إلحاحهم بتغيير نظام

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث ص24.

الحكم تنازل إسماعيل عن حكمه، وفوض الأمور إلى مجلس النظار، ومع ذلك قد اغتنم نوبار الفرصة لدوره البغيض لمصالح الأوربين، فبصفته رئيس المجلس أحال ألفين وخمسمائة من الضباط العسكريين إلى المعاش بحجة الاقتصاد في النفقات، فثار الضباط وساعدهم الشعب لسبب تعاون نوبار مع الوزيرين، فاضطر إلى استقالته. وشكل الوزارة بعده توفيق، وجعل للوزيرين سلطة مطلقة، حيث إنهما أخذا يتدخلان في الشؤون القومية كيفما يشائان، ثم قام بإلغاء مجلس شورى النواب، فنهض أعضاءه وقاوموا هذه الأزمة مقاومة شديدة، وتشكلت جمعية وطنية للنظر في تسوية الديون الأجنبية، واقترحت الجمعية النظام الدستوري نيابة عن مجلس النواب، وتقدم محمد شريف يؤلف الوزارة الوطنية التي تراعي حقوق الشعب في جميع الشؤون المالية والداخلية والخارجية. وعارضت الحكومتان الإنجليزية والفرنسية هذا التطور، واستنجدتا من الدول الأوربية، فصدر الباب العالي فرمانا لخلع إسماعيل عن ولاية مصر، وخلفه ابنه توفيق، فقدم محمد شريف استقالته كرئيس مجلس النظار، وقام توفيق بتشكيل مجلس النظار من جديد و نفي جمال الدين الأفغاني من مصر، ووقعت التقلبات على مستوى الإداري والحكومي نظرا إلى مصالح الأجانب الأوربيين، وعين محمود سامي البارودي ناظرا للأوقاف الذي لعب دوره في إسناد رئاسة الوقائع المصرية إلى الشيخ محمد عبده، فأخذ يكتب فيها مقالات إصلاحية تبث الوعي في المجتمع المصري تجاه النظام الشوري، ونتيجة لذلك تحرك الشعب واجتمعت جماعة من ذوي العلم وألفوا

جمعية سرية باسم الحزب الوطني أخذت توزع المنشورات تنقد سياسة توفيق ورياض وتدعو لإقامة حكم دستوري، فاتخذ رياض إجراءات لكبح جماح الأصوات المرتفعة لنقد الحكومة وسياستها، قام بنفي الزعماء وتعطيل الصحف القومية.[1]

ومن جانب آخر كان الجيش يجتاز بدور خطير حيث منع الضباط المصريون عن الترقيات باقتضاء مؤهلاتهم، وزاد الطين بلة عندما تولى عثمان رفقي شؤون البحرية والحربية في حكومة رياض، إنه تخطى لقمع نفوذ الضباط المصريين في الجيش، وقام بظلم واضطهاد جائر، وتقدم عرابي ومعه عبدالعادل حلمي وعلي فهمي بمذكرة إلى الحكومة يطلبون فيها عزل عثمان رفقي وتعديل القوانين العسكرية بحيث تكفل العدل والمساوات بين جميع الضباط. بدلا عن معالجة القضية، قد اعتقلوا بتهمة التمرد والعصيان، فثار الضباط المصريون وحاصروا قصر النيل وأطلقوا سراح الضباط الثلاثة، وأرغموا الخديو ورياض على قبول مطالباتهم، وأجبر رفقي على استقالته من نظارة الجهادية، فتولاها محمود سامي البارودي من جديد إنه كان من مؤيدي عرابي ورفاقه، وقام بإصلاح العسكرية، ومضى يساعد الضباط الوطنيين، وظل يحبط دسائس توفيق ضد كتلة عرابي. استقال البارودي لسبب الأوضاع غير الملائمة، وتم تعيين داود يكن مكانه، فاشتدت الهجوم على المواطنين بطرق شتى، فأخذ الشعب المصري يلتف حول عرابي، زحف أحمد عرابي على رأس وحدات من آلايات الجيش إلى ميدان عابدين ووجه مدافعها إلى القصر، وأرغم

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص27

الخديو على قبول مطالب الأمة المصرية، فأقال وزارة رياض ووافق على تشكيل مجلس نيابي، وعلى زيادة الجيش والتصديق على قوانينه، فألف محمد شريف وزارته، وتولى البارودي نظارة الجهادية، هدأت الأمور بعد اضطربت بغير إيراق قطرة من الدم، وتم انتخاب أعضاء المجلس النيابي في ديسمبر 1881 م.[1]

واضطربت الدولتان الإنجليزية والفرنسية لهذا التطور، فقدمتا مذكرة إلى الحكومة عارضتا فيها حق تقرير الميزانية لمجلس النواب، وزعمتا أن هذا الحق يضر مصالح الدائنين، وطالبتا بتنازل المجلس عن حق الميزانية، ولكن النواب لم يتفقوا على منع إشرافهم على الميزانية، فاعتزل محمد شريف الحكم، وانتخب البارودي رئيسا مكانه، ومضى ينفذ خطط زعماء الثورة. وما لبثت الدولتان أن قدمتا مذكرة شديدة اللهجة إلى الحكومة، ثم خططوا للقضاء على الثورة، فنهضت طائفة من الضباط الشراكسة ودبروا مؤامرة لاغتيال كبار زعماء الثورة، ولكن اكتشفت المؤامرة قبل تنفيذها، عرض المتهمون أمام محكمة عسكرية، فحكم بنفيهم وتجريد رتبهم وامتيازاتهم، ولكن توفيق امتنع عن التصديق على هذا الحكم عندما رفع إليه الأمر، فحدثت هناك أزمة سياسية عنيفة، بذل البارودي مجهودات لتسوية الخلاف بين توفيق والحكومة الوطنية، وتعهد توفيق بألا يستشير الأجانب في أمور الدولة ولا

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص-194.

يقطع أمرا إلا بأذن من الوزارة الدستورية، وفي هذه الأثناء سمع الناس خبر وصول الأساطيل الأجنبية إلى الإسكندرية لحماية توفيق في 20 مايو عام 1882م.[1]

وفي أثناء ذلك طلب توفيق استقالة الحكومة، فدعا مجلس النواب إلى عقد جمعية عمومية تمثل الشعب المصري، شارك فيها رجال الثورة والعلماء والأعيان ورفض جميعهم أن يضعوا يدهم في يد توفيق، فمالبث الإنجليز أن دبروا 11 يونية مذبحة الإسكندرية لجواز حملتهم المسلحة، وفي هذه الأثناء انتقل توفيق من القاهرة إلى الإسكندرية واستقبل إلى الأسطول البريطاني والتجأ إليه، وتنبه عرابي للفاجئة، فأخذ تحصين الإسكندرية، غير أن مدافع الأسطول الإنجليزي ضربت بالقنابل على شواطئها في 11 من يولية، وقاوم الجيش المصري بقيادة عرابي مقاومة باسلة، ولكن القوى الإنجليزية غلبت، فانسحب الجيش إلى كفر الدوار، وركز عرابي جل اهتمامه بالدفاع عن كفر الدوار وعن سواحل مصر و التل الكبير، ظانا أن الإنجليز سيحترمون حياد قناة السويس، ولكن الإنجليز احتلوا بورسعيد والإسماعيلية والسويس، ومضى الجيش المصري يواجه ضربة بعد ضربات حتى أعلنت الدولة العثمانية عصيان عربي وعزله من وزارة الجهادية في منشور نشرته للناس، فانتصر الإنجليز ومضوا حتى احتلوا القاهرة قاعدة أصحاب الثورة.

وألقي القبض على زعماء الثورة العرابية وكثير من الضباط والأعيان، تشكلت محاكم عسكرية في القاهرة والإسكندرية، وحكم على زعماء الثورة بالنفي

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص94-112

المؤبد، لقد احتل الإنجليز مصر بحجة المحافظة على الحكم القائم بها، ولذلك ظلوا يعترفون بالأسرة العلوية، كما ظلوا يعترفون بالسيادة العثمانية الاسمية على البلاد، ولكنهم مضوا يفرضون سيطرتهم فرضاعنيفا.[1]

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث ص-33.

الفصل الثاني

حياة البارودي وشعره

مولده ونسبه:

قد شهد يوم الأحد السابع والعشرون من شهررجب عام 1255هـ المقابل للسابع من شهر أكتوبرسنة 1839م مولد شاعر النهضة ورائد الشعر العربي الحديث محمود سامي البارودي، الذي اختارته ربة الشعر من دون العرب لرئاسة الشعر العربي في عصره، ومكنته بالمواهب الفنية ليعيدبها الشعر العربي إلى روعتها القديم والزهاء المفقود، وكان أبوه حسن حسني بك من أمراء المدفعية، ثم صار مديرا لبربر ودنقلة في السودان في عهد محمد علي باشا والي مصر.

يرجع نسب البارودي إلى أسرة جركسية عريقة، وتجرى في عروقه دماء أجداده الحكام من المماليك الجراكسة الذين حكموا مصر قرابة قرن ونصف قرن 1382 – 1518م. والجراكسة هم جماعة من المولدين الذين قصدوا إلى مصر إزاء حملة التتار على بلادهم فدمروها تدميرا ودفعوا أهلها إلى أسواق الرقيق المعروفة، فباعوهم بأثمان بخسة، واشترى سلطان مصر الملك العادل، عام 1430م، اثنى عشر ألفا من

شبانهم، وجعلهم جنوده وأظلهم بحمايته، فقويت شوكتهم، وعلت كلمتهم، حتى صار لهم الأمر والنهى في المملكة، وتصرفوا في جميع أمور السلطة والسطان.[1]

كان شراء المماليك سنة السلاطين وذوي النفوذ في مصر ذلك الوقت، فزاد عدد المماليك الجركسية في مصر، ويضمهم السلاطين والأمراء و ذوو النفوذ إليهم، واستطاعوا أن يحتلوا مراكز النفوذ في مصر ويسيطروا على مصادر السلطة فيها. ومن ثم أصبحوا يمثلون القوة الفعلية في البلاد وكانت النتيجة الطبعبية لذلك أن استولوا على العرش نفسه، واسطاع برقوق، المملوك الجركسي، أن ينصب نفسه سلطانا على مصر في عام 1384م ، وبدأت به دولة المماليك الجراكسة التي ظلت تحكم مصر حتى مجيئ الحكم العثماني عام 1517م.

يبدأ نسب البارودي بـ "علي آغا البارودي"، جده لأمه ، هو لم يكن من أسرة البارودي، بل كان مملوكا و خاز ندارا لمحمد آغا البارودي، ولم يكن محمد آغا نفسه من أسرة البارودي، وإنما انتسب إلى سيده أحمد آغا البارودي، حين زوجه محمد آغا بفاطمة قادن البارودية بنت زوجته زليخا خاتون البارودية من زوجها الأول "أحمد آغا البارودي" انتسب على آغا إلى أسرة زوجته فاطمة قادن البارودية ولقب بلقبها.[2]

قدم علي الحديدي شجرة النسب للبارودي كما يلي:

---

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص28.

[2] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص33

"وتقول شجرة النسب للبارودي إن الأمير "إيواظ" ابن للأمير" خوشقدم" بن الأمير " رضوان أبي الشوارب " بن الأمير "مراد جلبي البارودي". الوالقع أن الأمير "إيواظ" كان في الأصل مملوكا لرضوان أبي الشوارب، ثم صار بعد ذلك تابعا لـ "مراد الدفردار"، ومراد هذا تابع للأمير "أزبك" بن رضوان أبي الشوارب. والأمير "مراد جلبي البارودي" هوالذي بدأت به نسبة البارودي إلى الأسرة، فقد كان ملتزما "لإيتاء البارود"، بمحافظة البحيرة، فنسب إليها كما هي عادة المماليك في ذلك الوقت.

وأهم ماجاء في شجرة النسب أنها جعلت مرادا البارودي يتصل بتسلسل النسب عن طريق يوسف جاويش إلى الأمير "برسباني قرا المحمدي" وزوجته "أصيل خاتون" التي ينتهي نسبها إلى السلطان "نور الدولة شهنشاه" أخي السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي. ومن ناحية أخرى جعلت شجرة النسب شاعرنا البارودي يتصل نسبه بالأمير نوروز الأتابكي، أخي برسباي، وذلك عن طريق جدة الشاعر خديجة خاتون زوجة الأمير "إيواظ" ثم إلى الأميرة "سعد الملوك خاتون" بنت الأمير نوروز الأتابكي، ولكن هذا الاتجاه في النسب لايمر بالأمير" مراد جلبي البارودي، أصل أسرة البارودي و حامل لقبها الأول".[1]

أما نسبه لأبيه فالمصادر التاريخية وشجرة النسب وصحيفته ومذاكرات الأسرة ومعلوماتها تقف بنا عند جده الأول عبدالله الجركسي، فقد استقدمه الأمير

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص35.

"محمد ألفي" وكانا من بلد واحد من بلاد الجركس، وضمه الألفي إلى أتباعه وجعله كاشفا من كشافه فانتسب إليه، ومضى يدعى "عبدالله الجركسي الألفى".

بعد وفاة محمد الألفى الأول عام 1807م، الذي كان يقود المماليك في معارضة عودة الحكم التركي بعد مطاردة الفرنسيين من مصر، تحالف محمد علي الوالي العثماني الجديد مع أتباع محمد الألفي، فأمنهم وخادعهم كى يستعد للقضاء عليهم، فتظاهر المودة مع زعيمهم الجديد شاهين الألفى، وأكرمه، وأجرى للمماليك الأرزاق، واستبقى البارعين منهم في وظائفهم، وعمل عبدالله الجركسي الألفي كاشفا لمحمد علي في بداية حكمه، و في عام 1810م ولد له ولد سماه حسن حسني الجركسي الألفي، هو والد الشاعر محمود سامي البارودي.

وما إن أكمل الطفل حسن حسني عاما واحدا برعاية والده حتى وقعت مذبحة القلعة، فقد قتل أبوه مع كبار المماليك في هذه المذبحة التي دبرها محمد علي للقضاء عليهم عام 1811م، فقتل فيها حوالي 400 من زعمائهم، ثم أعقبتها المجازر التي أعدها لمن نجوا من المذبحة، فكان جنوده يقبضون على المماليك في أنحاء البلاد ويدفعونهم إلى الذبح كالأنعام.[1]

وبعد التخلص من خطر المماليك بقي محمد على بغير معارض سياسي في مصر، وعكف على تنفيذ خططه الاقتصادية والعسكرية لكي يحقق مطامعه لإنشاء إمبراطورية عظيمة، واستقدم الخبراء العسكريين من أوربا وأنشأ المدارس الحربية،

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص36

وسخر مواد الدولة المادية وإمكانيتها البشرية، وعبأ قواها العقلية لتكون جميعها في خدمة الجيش ووسيلة في تحقيق أطماعه، فالتحق حسن حسني الجركسي الألفي بهذه المدارس الحربية وتلقى العلوم والفنون للحرب فيها، وبعد تخرجه عين ضابطا في المدفعية المصرية الحديثة، ومازال يترقى باستعداداته الحربية و شجاعته النادرة درجات الرقى حتى أصبح من أمراء المدفعية برتبة اللواء.[1]

تزوج أمير المدفعية اللواء حسن حسني الجركسي الألفى بفاطمة هانم البارودية، ولم تكن أسرته تستو أسرة "البارودي" العريقة في المجد، والجاه، والثراء، ومن ثم انتسب إلى زوجته حسب عادة المماليك وتقاليدهم ذاك الوقت، وأصبح بعد زواجه منها يعرف "بحسن حسني البارودي" بدلا من حسن حسني الجركسي الألفي". وفي 6 من أكتوبر عام 1839م ولد لهما ولد سماه "محمود سامي".[2]

وفي عام 1846م عين اللواء "حسن حسني البارودي" مديرا لبربر ودنقلة بالسودان وسافر حسن حسني إلى السودان على كره منه، وترك ولده وأهله وراءه في القاهرة، وكان محمود سامي عندئذ في السابعة من عمره، وعند وصوله إلى السودان أصيب بالحمى، فمازال يقاوم المرض القاتل حتى تسلم للقدر ودفن في دنقلة غريب الأهل والدار. يذكر البارودي موت أبيه ويستعيد صورة الحادث الذي طبع في قلبه حزنا ويأسا فيقول:

---

[1] شوقي ضيف، محمود سامي البارودي رائد الشعر العربي ص12. وعلي الحديدي، البارودي شاعر النهضة ص39.

[2] على الحديدي، محمود سامي البارودي شا عر النهضة،ص، 49.

لا فارس اليوم يحمي السراح بالوادي طاح الردي بشهاب الحرب والنادي

مات الذي ترهب الأقران صولته و يتقى بأسه الضرعامة العادى

مضى و خلفني في سن سابعة لايرهب الخصم إبراقى وإرعادى

فالعين ليس لها من دمعها وزر والقلب ليس له من حزنه فادى.[1]

تعليمه ونشأته:

قد ألقيت المسئولية على كواهل أم البارودي بعد وفاة أبيه بالسودان، فتحملت أمانة تنشئة وليدها وتعليمه بشجاعة دون إشفاق أو تردد، وهي كانت جركسية لأبيها فاختارت له طريق التعليم الحربي شأن أقرانه من أبناء الجراكسة، فبدأت بتوفير المعلمين كي يؤدبوه و يلقنون القرآن الكريم و شيئا من الفقه الإسلامي ومن التاريخ والحساب والشعر، حتى استكمل البارودي دروس المرحلة الابتدائية في بيته كما كان ذلك شأن أبناء الأمراء في ذلك الوقت ، فاهتم محمود سامي بدراسة مواد الدراسة الابتدائية لكي يجتاز امتحان القبول للمدرسة "التجهيزية الحربية"، ودرس هذا المنهج لأربع سنوات 1263-1277هـ (1847-1851)، تناول فيها كتب النحو، والصرف ، والتوحيد ، والأخلاق ، وحفظ القرآن الكريم. وكانت دراسته على نمط الدراسة في مكاتب المبتديان، وكان هذا المنهج الدراسي على منهج الأزهر مقلدا له مادة وطريقة، لأن الحكومة، حين أنشأت مكاتبها، لم تجد أمامها من كتب غير الكتب الأزهرية، ولم تجد معلمين غير المتعلمين في الأزهر، فكان طبيعيا أن تعتمد

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص162.

عليهما في مدارسها، ولقد تأثر البارودي كما تأثر تلاميذ عصره بهذه المحاكاة ، لذلك يتجلى تأثير الأزهر في رواد النهضة واضحا جليا.[1]

تعلم في سنيه الأولى بمنزله، وأنعم القدر عليه وعلى الشعر العربي الحديث إنعاما، بحيث توفر له وقت فسيح كى يقرأ في حرية ما يتذوقه من الشعر القديم حافظا له مرة و مرددا مرة أخرى. ومع ذلك أتيحت له الفرصة بأن يعاشر الشعراء الكبار في سن مبكر، وأن يتصل بهم اتصالا مباشرا، وأدت هذه الفرصة إلى ازدياد ثقته مع مر الزمن، و ظلت تؤثر في مزاجه وخياله وعقله وقلبه.[2]

بعد أن اكتملت دراسته الابتدائية عام 1267هـ (1851م)، التحق بالمدرسة الحربية على شاكلة أبيه، وفي ذلك الوقت كانت مصر تعانى بالنكسة الفكرية والثقافية والاقتصادية بعد تولية عباس الحكم، كما اعتزم على إغلاق المعاهد التعليمية وإلغاء المشروعات العلمية التي بدأت في عهد جده لكي يحرم الشعب من نور العلم والمعرفة، و لما فرغ عباس من أغلاق المدارس الحربية من تجهيزية و خصوصية، أقام على أنقاضها مدرسة جديدة باسم "المدرسة الحربية المفروزة"، فانتظم البارودي في سلك طلابها يتعلم فنون الحرب، و يقرأ معهم القرآن، و كتاب جملة الصرف، وشرح الكفراوي وإنشاء العطار، وكتب الهندسة والحساب والجبر، ويتعلم الرسم واللغة التركية والفارسية. وجد البارودي هذه الكتب المقررة سهلة

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص52.

[2] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص48.

جدا حيث إنه قد أكمل الدراسة لأكثرها من قبل خلال دراسته الخاصة استعدادا لامتحان القبول بالمدارس الحربية، فلم يقع حائل بينه وبين شوقه إلى الشعر العربي القديم، وتوفر له وقت وافر لهذا الغرض، فأخذ البارودي يعكف على مناهل الشعر العربي و أكثر في العكوف حتى أصبح جزءا من نفسه، وكانت جذور العروبة متعمقة في نفسه بحكم أسرته و انتسابها إليها، فعظم حبه للشعر العربي، ومضى يعاشر الشعراء القدماء ويقرؤهم، وتتمثل نفسه ما يقرؤه فجرب موهبته فيه وحاول الإنشاء ولكنه لم يجد من يستمع إليه، وكانت البيئة الأعجمية سائدة، يتفاخر الناس فيها بتركيتهم أو أرستقطراطيهم الجركسية، يتمثل البارودي فيما بينهم وحيدا، ويقضى معهم أوقات الدراسة والممارسات بإكراه، ثم لايلبث أن يتخلي عنهم ويلجأ إلى التعابير عن أحاسيسه ويتحدث عن عوطفه وينفرد بشعره.[1]

و تخرج في المدرسة الحربية برتبة باشجاويش سنة 1271هـ- 1854م في بداية عهد سعيد، وترك الأمل للتعاليم العليا من المدرسة الحربية حيث أمر سعيد بإلغاء المدارس والمعاهد كلها، إنه كان يعتقد أن تعليم الناس يجعل حكمه عسيرا ويمكنهم من نقد تصرفاته، ويجعلهم يطالبون بحقوقهم، ولذلك قد أقفل ديوان المدارس وألغى مابقى من معاهد التعليم. ومع هذه التطورات انتهت حياة البارودي المعهدية بشهادة التجهيزية الحربية، و بلقب باشجاويش في الجيش السلطاني. ولكن هيامه وولوعه بالشعر العربي لم ينته بل مضى يغذى موهبته بالشعر القديم، وكانت

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص49. وعلي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص58.

المطابع قد أخذت تعنى بنشر بعض الدواوين، فاتسعت أمامه فرصة الاطلاع والقراءة، وإضافة إلى ذلك أنه لم يكن يكتفي بما طبع منها، ربما كان يطلب نفائسها التي كانت لاتزال مخطوطة ومضى يعب و ينهل من هذ المنهل. وكان أكثر مايعجبه فيه أشعار الحماسة والبطولة، وكانت تقترن بهذه الأشعار فتوة حادة يتغنى فيها الشعراء بالحب ومشاعره، فتتسربت هذه الفتوة في روح البارودي و أصبحت جزءا من نفسه، وامتزجت بلحمه و دمعه.[1]

وبعد تخرجه من المدرسة الحربية، أصبح البارودي أكثر نشاطا في حياته وتعلمه، أما زملائه فقد استكانوا إلى الواقع و سكنوا إلى دعة العيش ورخاء الحياة، واطمأنوا إلى الخمول مع وسائل اللهو ومتع الشباب، ولكن البارودي لم يمل إلى الملاهي، وأبت نفسه أن تقبل حياة الخمول على حساب متعة الحياة، لأن دماء الإمارة والمجد كانت تجري في عروقه، وغايته في الحياة كانت أسمى وأرفع من هذه المتع والسمعة الزائفة، فاتخذ طريقا غير طريق زملائه لبلوغ المرام، فغيره باللذات قد يلهو و يعجب، وسواه بتحنان الأغاريد قد يجد متعة وطربا، أما هو فمتعته و طربه في شيء آخر، يحدث عنه في قوله:

سـواي بتحنـان الأغاريـد يطـرب وغـيري باللـذات يلهـو و يعجـب

جـواث على هـام الجبـال لغـارة ويملـك سـميه الـيرع المثقـب

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص49.

ولكــن أخــوهم إذا مــا ترجحــت بــه ســورة نحــو العلى راح يــدأب

نفى النـوم عـن عينيـه نفـس أبيـة لهـا بـين أطـراف الأســنة مطلــب

همامـة نفـس أصـغرت كـل مـأرب فكلفــت الأيــام مــا لــيس يوهــب

ومــن تكــن العليــا همــة نفســه فكـل الــذي يلقــاه فيهــا محبــب.[1]

مازال يواظب البارودي على قراءة التاريخ والشعر، فوجد في كتب التاريخ سيرة أبائه وأجداده ثم تتراءى له في الأفق البعيد صور السابقين من أجداده ، وقدحازوا المجد فرسانا تحت ألوية النصر الحمراء يرمون بالصليبيين إلى البحر ويحمون بشجاعتهم الشرق العربي من زخف التتار والمغول المدمر، فأخذ يطمع إلى الإتيان بأفعال مجيدة كما فعل أجداده، وظل هذا الطموح يرافق طوال حياته ، وكان في هذه الفترة من حياته، فترة الشباب، يحلم بالمجد الحربي ، ولكن قد أصبح الجيش المصري بعد مؤتمر لندن مقصوص الأجنحة لايستطيع نهوضا، لقد فكر وقدر في هذا الأمر، فهداه تفكيره و تقديره إلى أن يترك خدمة الجيش بل يترك وطنه نفسهه، وشد الرحال إلى الأستانة، حاضرة الدولة الكبرى، عام 1857م. وأعانته إجادته التركية ومعرفته بالفارسية على الالتحاق "بقلم كتابة السر بنظارة الخارجية التركية.[2]

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي ص56

[2] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص50. وعلي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص78.

وخلال انشغاله بالنظارة الخارجية، تهيأت له الفرصة لتقوية صلته باللغة التركية، وهي يومئذ في إبان نهضتها فتبحر فيها تبحرا، وكان من الطبيعي للشاعر المتبدئ والأديب الناشي أن تعجبه آدابها و تجتذبه أندية أدبائها، فقامت العلاقات الوثيقة بينه وبين شعرائها، يستمع إلى شعرهم ويتناول خبرتهم الأدبية حتى أدرك مذاق الأدب التركي، فينطلق لسانه بشعره و نثره. ووجد في معرفة اللغات متعة لنفسه و دفعة لمهمته، و رأى آفاق ثقافتها ثروة لفكره وغنى لخياله، فيلتفت إلى اللغة الفارسية، وكان قد تعلم مبادئها في المدرسة التجهيزية، فعكف على إتقانها والإطلاع على أدابها وقراءة شعرها، وبدأ ينظم بها من القصائد محاكاة لشعراءها، ويبدو أن ما قرضه من الشعر التركي والفارسي لم يكن يرضيه، لذلك لم يهتم باحتفاظه، وسقط من يد الزمن.

لقد أتاح قيامه بالآستانة فرصة لاستفادة المكتبات الغنية بها، حيث كان العثمانيون قد اعتنوا بجمع الكتب النادرة القيمة التي كانت مبعثرة في مكتبات المساجد والمدارس في أنحاء البلاد العربية الإسلامية، ثم نقلوها إلى الآستانة، كما نقلوا كثيرا من العلماء والأدباء والمهندسين وأرباب الحرف ليجعلوا عاصمة الخلافة حاضرة الإسلام الثقافية والسياسية معا. فاستفاد البارودي من مصاحبة العلماء والأدباء الكبار كثيرا، ومضى يتبع فحول الشعراء العرب يقرأ دواوينهم الجاهلية والأموية والعباسية، فيستظهر ما يطيب له من روائعها و يحاكى ما يوافق ذوقه من قصائدها حتى نضج ذوقه الشعري، وفي أثناء ذلك أحس بالاغتراب والنوى عن

الوطن والأهل، واشتد ألم البعد و جوى الفرقة، فبينما هو يفكر في عودته إلى الوطن، حضر إسماعيل الأستانه سنة 1279هـ/ 1863م عقب توليته عرش مصر ليقدم للسطان عبدالعزيز فروض الشكر والطاعة، وصادفته مرافقة إسماعيل أثناء قيامه بدار الخلافة، فاغتنم هذه الفرصة ووضع خبرته ومعلوماته تحت تصرف الخديو الجديد، حتى بدا له سداد الرأى وحسن التصرف في البارودي، وأعجب ببراعته في الخط والإنشاء التركي، فألحقه بحاشية لينتفع بخبرته وثقافته التركية، وعاد به إلى القاهرة في فبراير سنة 1863م.[1]

ومع ولوعه بالأدب العربي وشغفه بالشعر ودواوين الشعراء الفحول وممارسته في الشعر وقرضه بعض الأحيان لا يوجد شيئ من قصائده قالها خلال قيامه بالآستانة غير قصيد واحدة عنوانها "وقال يمدح إسماعيل خديو مصر". وذكر الشيخ محمد عبده أنه قال قصيدة آخرى بالأستانة قبل قصيدته في مدح إسماعيل، وهي القصيدة التي رثابه أباه. عاد البارودي من الآستانة وقد تبدلت شخصيته واتسعت مؤهلاته حيث أكسبته التجارب، والعمل، والاطلاع، والتعامل مع الناس الثقافة من بابها الأوسع، عاد وقد ذاع صيت قصيدته في استقبال إسماعيل بالآستانة، رجع البارودي مع الآمال الكبار في أعطافه بعد أن هدته المقادير إلى أقصر طريق لتحقيقها، وقد كان إسماعيل يعزم على إعادة مصر سيرتها الأولى كما كانت في عهد جده فمضى يسلك السبيل إليها، ورافقه البارودي في هذه المهمة.

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص84، وشوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص51

وجد البارودي نفسه أسيرة لمعروف إسماعيل، إنه بدل حزن الغربة بفرح العودة والاستقرار، وعينه معاونا لأحمد خيري باشا علي إدارة المكاتبات بين مصر والآستانة العلمية فقال البارودي قصيدة ثانية في مدح إسماعيل باشا يشكره على جميله، ويتمنى لمصر على يديه حكما سعيدا عادلا يقشع الظلمة والخطوب التي غشيتها في حكم سعيد، ويقدم البارودي قصيدته هذه المرة بغير هياب و تردد. لا يهنأ له الجو الديواني و روتينه، لأنه لم يخلق له، وما زالت نفس البارودي تطمح إلى الأمل الذي يصبوا إليه طوال حياته، وإلى الحلم الذي يراوده منذ صباه، ذلك هو سبيل الجيش والحرب، ولم يلبث أن نقل إلى الجيش ورقى إلى رتبة البكباشي العسكرية، والتحق بآلاي الحرس الخديوي ثم عين قائدا لكتيبتين من فرسانه، فخفق قلبه طربا إذا أصبح فارسا، بل كبير فرسان، و هم رهن إشارته، و تفتحت آفاق الأمل رحيبة في وجهه، وزالت المعوقات التي حالت بينه و بين أمانيه، فتحققت أمنيته بكونه فارسا وقائدا[1].

كشفت مواهب القائد الشاب القناع عن طبيعته الحربية الأصلية، وظهرت روح الفروسية الكامنة في طوايا نفسه، فارتفع سريعا إلى العلو، وأرسل في بعثة عسكرية إلى فرنسا و إنجلترا مع خمسة عشر ضابطا من خيرة ضباط الجيش، ليقضوا فترة يشاهدون فيها نظام الجيش الفرنسي والجيش الإنجليزي، ويستفيدوا من خبرة قوادها، فأبحرت البعثة العسكرية على ظهر السفينة الحربية المصرية "شير جهاد" إلى فرنسا، فاستقبلتهم الحكومة الفرنسية بالحفاوة، ودرسوا النظم العسكرية الفرنسية

[1]علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص87. وشوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص53

والاستحكامات، والمناورات العمومية، وكذلك قد تعرفوا بفنون الحرب والقتال، وجمعوا طائفة من المؤلفات الحربية عن أساليب الجيش الفرنسي و نظامه، واتجهت البعثة بعد ذلك إلى إنجلترا، فشاهدت بعض معسكرات الجيش ومنشآته الحربية فيها، وقبل مغادرة البعثة إلى الوطن دُعى أعضاؤها إلى ضيعة أحد النبلاء في الريف الإنجليزي، حيث أقيمت لهم حفلات التكريم، و خرج الفرسان على ظهور الخيل يزاولون رياضة الصيد في الحقول والأخراش على عادة النبلاء الإنجليزي وتقاليدهم.

لقد انتفع البارودي بزيارة فرنسا وإنجلترا انتفاعا، وزود خياله كشاعر حيث وصف البلدين معقلي الحضارة الغربية، فتأثر بثقافتها الحربية كقائد،استوعب عقله خبرات عسكرية ومعلومات عن الفنون الحربية في الجيوش الحديثة، وكلف البارودي نيابة عن البعثة بكتابة تقرير عن الزيارة للجيشين الفرنسي والإنجليزي، وتحديد النظم التي يمكن الاستفادة منها في بناء الجيش المصري، فرقى البارودي إلى رتبة عقيد (قائمقام) في نوفمبر 1864م، ثم إلى رتبة عميد (أمير ألاي)، ووكلت إليه قيادة الفليق الرابع من الحرس الخديوي في أبريل عام 1865م.[1]

وشعره في هذه الفترة التي امتدت من سنة 1863م إلى سنة 1860م موزع بين الفخر، بشيمه الرفيعة وأصله النبيل، وبين التغنى بجمال الرياض ونشوة المدام

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص90.

ولوعة الغرام، وهي لوعة صادقة، فقد هام حبا بفتاة يرمز لها تارة باسم ليلى و تارة ثانية باسم لمياء و تارة ثالثة باسم ظبية المقياس[1] وفيها يقول:

ياظبيـــة المقيـــاس هـــذا مـــدمعي فـــردى، وهـــذا روض قلـــبي فـــارتعى

إن كـــان لايرضـــيك إلا شـــقوتي فلقـــد بلغـــت هنـــاك منهـــا و اقنعـــى

أنـــا مـــن بـــين صـــبابة لاتنقضـــى أيامهـــا و غوايـــة لـــم تقلـــع

لاتحســـبي قـــولي خديعـــة مـــاكر إن الـــوفى بعهـــده لـــم يخـــدع

إنـــي لأقنـــع مـــن هـــواك بنظـــرة وأعـــدها صـــلة إذا لـــم تمنعـــى

هـــذى منـــاي و حبـــذا لونلتهـــا عـــن طيـــب نفـــس فـــهي أكبر مقنـــع[2]

قد حان الوقت لفروسية البارودي في ميدان الحرب عام 1282 هـ/ 1865م كما انفجرت ثورة عارمة ضد الحكم التركي "بجزيرة كريد" في البحر المتوسط، وعجز الجنود الأتراك عن إخمادها فاستنجد السلطان التركي بمصر، فخرجت إليها حملة مصرية بينها "آلاي" من فرسان الحرس يقوده محمود سامي البارودي بصفته رئيس يادور حرب.[3]

وأقلعت الحملة من الاسكندرية والبارودي أسعد رجالها يتوق شوقا إلى يوم يحرك فيه سيفه، وقد طال سكوته في غمده، فبرزت مؤهلات الباري العسكرية في

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص55.

[2] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص321.

[3] الجوائب المصرية, نقلا عن علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص91.

هذه المعركة كان يخوض المعارك و هو راكب على جواد أدهم شاهرا سيفه أمام جيشه يشجعهم و يحرضهم، وأحرز الجيش المصري النصر للأتراك، واستسلم الثوار وانتهت مهمة البارودي الفارس وفرغ منه الشاعر لخياله وخواطره ويصور المشاهد والصور للحرب ويعبر عن إحساسه و خواطره تجاه هذه الحرب، يقول البارودي:

ولما تداعى القوم و اشتبك القنا ودارت كما تهوى على قطبها الحرب

وزين للناس الفرار من الردى وماجت صدور الخيل و التهب الضرب

ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا سقينا بكأس لايفيق لها شَربُ

صبرت لها حتى تجلت سماؤها وإني صبور إن ألم بي الخطب[1]

استغرقت حرب كريد مدة عامين كاملين يتشوق البارودي خلالها إلى الوطن تشوقا، فازداد حينه إليه، هناك نراه لأول مرة يشدو بحبه إلى الوطن ويتغنى بشوقه إليه بهذه الشدة، فشهدت "جزيرة كريد" مولد التغنى بمشاعر البارودي الوطنية ، ونرى أول قطرات الفيض الذي تفجر في عواطفه نحو بلاده، وظل يملأ بالنور والحب والفداء طوال حياته فيصف جمال وطنه و مما سنه ويقول:

ذكرت مواردها بمصر وأين من ماءٍ بمصر منازل الرومان

فسقى السماك محلة و مقامة في مصر كل رويـة مرنان

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص75.

حــتى تعــود الأرض بعــد ذبولهــا شـــتى النمـــاء كثيــرة الألـــوان

بلــد خلعــت بهــا عــذار شــبيبتي و طرحــت في يمني الغــزام عنــاني

فصيعدها أحوى البنات، وسرحها ألمى انطـلال ، وزهرهــا متــداني[1]

مازالت الذكريات من الوطن تتوالى و تتكاثر حتى انتهت الحرب ثم عاد البارودي إلى الوطن مع الجيش فتحقق له النصر من ناحيتين؛ الحصول على الوسام العثماني من الدرجة الرابعة، وزعامة الشعر والبلوغ إلى المثل الأعلى للشعراء.

وبعد عودته من حرب كريد لم يرجع البارودي إلى الجيش، بل نقل إلى المعية الخديوية كـ "ياورخاص" ضمن ياوران الخديو، وكان إسماعيل يواظب على حكم مصر بأسلوب الرشوة والمساومة مع الباب العالي، وكان يفكر في أن يجعل القاهرة باريس أخرى علي النيل، فتوهم أن إسراف أموال الدولة على المظاهر السطحية سيبدل القاهرة بباريس، فمضى يبذل المال يمينا وشمالا، ويعشق البذخ الطائل، فأكثر من تشييد القصور وملأها بالجوارى الحسان من أنحاء العالم كله. عايش البارودي هذه البيئة البذخة اللاهية حولى ثمانية أعوام من شبابه، فتوفرت الأوضاع لينعم بمجالس اللهو والشراب والغناء، هناك شباب يتفجر صبا و فتوة ، وثراء يسلكه في عداد علية القوم، و مجد يعلو به إلى الهام، وشعر يخلب اللب ويسلب القلب من الضلوع ، فخلاصة القول بأن حياة اللهو قد ألقت بكأسها بين يدى البارودي في شبابه فكرعها حتى الثمالة كما وصف علي الحديدي، يقوده فيها

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص-646.

شيطان الخلاع والسكر، يتصيد قلوب الغانيات فيشقى بحبهن تارة و يسعد أخرى ويعب من الصهباء حتى تظل به الأرض الفضاء تدور ، ويعيش مايشاء من ليالي الأنس و مجالس اللهو والغناء.[1]

كذلك مازال البارودي يتغنى بالفخر والحب والخمر حسب طبيعته العادية، ومن خلال هذا الغناء نحس بضرب من التغير في طبيعته. وكأن أزمة ألمت بنفس البارودي، فقد أعلن في شعره أن السنة التاسعة والعشرين من عمره أي سنة 1868م، سنة فاصلة بين عهدين من حياته عهد الصبا واللهو والغواية، و عهد الجد والمسئولية والهداية كما يقول:

نزعت عن الصبا و عصيت نفسي ودافعـــت الغوايـــة بالتأســـي

وقلـت لصـبوتي والعـين غرقـى بأدمعهـــا رويـــدك لا تمســـي

ومـن يـك جـاوز العشـرين تتـرى وأردفهـــا بأربعـــة و خمـــس

فقـــد ســـفرت لعينيـــه الليـــالي وبـان لـه الهـدى مـن بعـد لـبس[2]

لايمكن أن يحدث مثل هذا التحول الكبير في طبيعة البارودي فجأة دون بواعث ومقدمات، أو أن يسببه بلوغه سنا معينا من حياته، بل لابد أن تكون دوافع قوية وراء هذا التحول، يرى الباحثون أن هذا التحول يرجع إلى إحساسه العميق بفساد حاشية إسماعيل وفساد إسماعيل نفسه ما أخذ يثقل به ظهر البلاد من

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص101.

[2] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص289.

أعباء الديون. يقول علي الحديدي: "راقب البارودي إسماعيل وهو يستقبل في قصوره الأفاقين من الأجانب، سماسرة و تجارا ولصوصا محترفين ، ويبعثر عليهم أموال الدولة دون حساب. وكم من قادم جاء إلى مصر لايملك قوت يومه، فما هو إلا أن يأوى إلى إحدى قاعات الانتظار بقصر الجزيرة أو عابدين حتى يصبح من كبار التجار الموردين، والفلاح المصري رابض في الطين مسخر دون مقابل للشركة الفرنسية في القناة، وفي حقول الخديو وحاشيته من الطغاة الظالمين".[1] يرى البارودي كل هذه الأحداث ويرقبها ويشهد خفايا الأمور و يسمعها، وهو صاحب النفس الأبية الحرة فيفيق من سكرة الصبا، ويحفو النوم عينيه كما يقول:

فسمع أنين الجور قد شاك مسمعى ورؤية وجه الغدر حل عرى جفنى

وزادت الأحوال سوءا حين أسندت الوزارة المالية إلى إسماعيل صديق المفتش، فكثرت الديون وانجدرت البلاد إلى الهاوية، يكشف البارودي القناع عن الحقيقة ببصيرة الشاعر، فيرى سفينة البلاد تسرع بقيادة الثالوث إلى صخور الهاوية لتتحطم، وفكر البارودي وأطال تفكيره في عمل يقف به تيار الفساد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي يجر البلاد إلى الهاوية، واستهدف جمع الرأي بين زملائه وأقرانه من رجال المعية ومستشاري الخديو ضد الفساد، فلم يجد منهم

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص125.

من يستمعوا إليه، وأعرضوا عن نصحه ورأيه خوفا من العاقبة، إنهم كانوا تعودوا متع العيش ورضوا عن نصيبهم من الغنيمة،[1]

فانقبضت نفس البارودي بما تونس به أنفسهم، إنه أقام اثنتى عشر سنة كاملة بعيدا عن ميادين القتال، عين أثناءها ياورا للخديو إسماعيل، ثم رئيس الياورية، ثم اصطفاه الخديو كاتم سره الخاص، إنه سافر في رحلتين قصيرتين إلى الآستانة لمهمة سياسية تتصل بفتنة الهرسك، و بفتنة البلقان والجبل الأسود. مازال يشاهد البارودي خلال هذه السنوات حياة مصر ونشاطاتها عن كثب حتى اكتئب عن الحياة الوظيفية، وتألم بما تعانى مصر من ذلة وتدهور بسبب سياسة إسماعيل.[2]

فنهض يحرض الشعب على مقاومة هذه الكارثة الفظيعة والأزمة الوطنية التي ساقت الشعب المصري إلى الذل والهوان، ودفعت البلاد إلى التدهور والهلاك، ودعاهم إلى ثورة على الحاكم الظالم وعلى الحاشية الفاسدة، وثورة على الموطنين الذين أذلهم الطغيان حتى فقدوا الإحساس بإنسانيتهم ووجودهم، فيحاول أن يدفع عنهم الخوف الذي ملأ قلوبهم بتقدير موفقهم، ويوقظهم من مضاجع الغفلة

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص127.

[2] هيكل حسين، مقدمة ديوان البارودي، ص16.

ويدعوهم إلى حمل السلاح لتكون "ثورة مسلحة" تقصى على رؤوس الفساد،[1] فينشد الثورة المبكوتة.

فيا قوم هبوا، إنما العمر فرصة وفي الدهر طرق جمة و منافع

أصبرا على مس الهوان وأنتم عديدي الحصى إني إلى الله راجع

وكيف ترون الذل دار إقامة وذلك فضل الله في الأرض واسع

أرى رؤوسا قد أينعت لحصادها فأين ولا أين السيوف القواطع

فكونوا حصيدا خامدين أو افزعوا إلى الحرب حتى يدفع الضيم دافع[2]

ولكن صرخته هذه ذهبت سدى، وعندما التفت البارودي حوله لم يجد سميعا لندائه ولا مجيبا له، فيثور البارودي عليهم ويقول:

أهبت، فعاد الصوت لم يقض حاجة إلي ولباني الصدى وهو طائع

فلم أدر أن الله صور قلبكم تماثيل لم يخلق لهن مسامع

ودعوة البارودي قومه إلى الثورة و استخدام القوة حدث وطني يستحق الدراسة والاهتمام، فالبارودي لم يكن من الطبقات المظلومة التي تعاني بإرهاق الضرائب أو محنة السخرة، ولم يمس عرضه بأذى من فجور الخديو وبطانته، ولم يغصب حق من حقوقه في الرتب العسكرية أو المراكز الدينية، بل كان على النقيض من ذلك، كان من الجراكسة وهم طبقة التي اتسمت بالامتيازات في الدولة، والتي

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص131.

[2] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص319.

يختار منها أنصار الخديو و معاونوه وضباط جيشه، ويصاهر الأسرة الخديوية بزواجه من بنت أحمد يكن ابن أخت محمد علي.

وإذا أمعننا النظر في القصيدة العينية التي ظهرت كالصحيفة الأولى للثورة نجدها صرخة صادرة عن وطنية صادقة، وانبعثت من شعور الفنان المتألم للحرية المقبوضة في وطنه، وللظلم الذي يجثم على صدر مواطنيه، وللإرهاب الذي ينتهك كرمة المصريين فيهيب بهم أن يهبوا للثورة، وهنا يظهر البارودي الفارس وهو لايعرف في هذه المرحلة من حياته إلا السيف والرمح حلا للمشكلات السياسية، ومن ثم دعا قومه إلى الحرب، و إلى معركة تطيح برؤس الإرهاب وتخلصهم من الفساد.[1]

ويبدو أن دعوة البارودي للثورة لم تجد صدى في نفوس الشعب، ولم يشفعه قوله بعمل إيجابي سريع، ويظهر أن اليأس من القضاء على إسماعيل و بطانته الفاسدة بلغ منه في هذه الفترة مبلغا عظيما، ومن ثم نراه خنقا على الدهر والناس، ضيقا بأذناب القصر ووشايتهم وسعاياتهم، وجعله ذلك حذرا، يكثر من مدارتهم، حتى لايطير به إسماعيل طيرة بطيئا سقوطها.[2]

ومع ذلك لم يكن يستطيع أن يكتم الثورة التي تحتاج نفسه، فكان يرمي بسهام الهجاء إلى ثالوث الطغيان والفساد وأعوانهم ويضمهم بالعار ويسجل مثالبهم للتاريخ، يقول:

---

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص132.

[2] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص62.

وصالك لي هجر وهجرك لي وصل فزدني صدودا مااستطعت ولاتألو

وكيف أود القرب من متلون كثير خبايا الصدر شيمته الختل

خبثت فلوطهرت بالماء لاكتسي بك الماء خبثا لايحل به الغسل

وجهك منحوس وكعبك سافل وقلبك مدغول وعقلك مختل

بك اسودت الأيام بعد ضيائها وأصبح نادى الفضل ليس به أهل

فما نكبة إلا وأنت رسولها ولاخيبة إلا وأنت لها أصل[1]

يقلق البارودي ويزداد قلقا على مصير بلاده، وضاقت نفسه من حياة القصر، فاتخذ من الوسائل ما جعله يرد إلى الجيش، إذا أخذت تظهر في الأفق بوضوح بوادر الكارثة التي أخذ إسماعيل يدفع إليها البلاد، لابما أثقل ظهرها من أعباء الديون فحسب، بل أيضا بما فسح للدول الأجنبية من التدخل السافر في شئونها. فإذا هو يرتضى بإنشاء صندوق للدين حسب مطالبة المندوبين الأجانب، كما يرتضى فرض الرقابة الأجنبية على شئون البلاد المالية، ويتولاها رقيب إنجليزي و فرنسي[2].

في عام 1871م نزل جمال الدين الأفغاني بمصر ففتح باب جديد من المناقشات في الأوساط العلمية والسياسية والدينية، واستهوت المناقشات حول "جمال الدين الأفغاني وأفكاره" محمود سامي البارودي، كما استهوت صفوفا من

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص504.

[2] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص.63

المثقفين وذوى النفوس المتطلعة إلى الحرية الفكرية والسياسية، فأصبح جمال الدين الأفغاني محور التجميع، وكانت حلقاته مجالا للتعارف بين الطاقات المختزنة المتحفزة للانطلاق، وفي مجلسه التقى الأحرار.

وتردد البارودي على مجالسه الخاصة واستقبله في ندوته الأدبية بداره في باب الخلق، كان الأفغاني يبسط لسامعيه أراءه في الدين فيدعو إلى ضرورة تجديد الفكر، فيتناول تعليم الإسلام وشرائعه بروح مفتحة مسايرة للعصر والمدنية الحديثة، وينادي بحركة تجديد ديني تقلع مارسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي، وينشر بين الناس في الصحف والندوات وبالخطابة، يريد أن تتحرر الشعوب الإسلامية من عبوديتها للحكام، وأن يفهم موقفها من الحاكم وموقف الحاكم منها، وأن يكون لها رأي عام قوي واسع الثقافة، يستطيع أن يقرر مصيره في شئونه الداخلية والخارجية.

بعد الاستماع إلى الأفغاني وجد البارودي أن روحيهما تتلاقان على نقطة واحدة وكأنهما يصدران من إحساس واحد. إحساس المتألم لما ينوء به القوم من الظلم والعبودية، ومن السياسة الخرقاء التي تسوق البلاد إلى الهاوية، كان البارودي يرى أسلوب التغيير في القوة وفي دعوة قومه إلى الثورة المسلحة، ولكن الأفغاني هو فارس أيضا شهد الحروب وحضر الوقائع ومارس الحياة السياسية فزادته تجربة ومرانا، وهو يرى التغيير في إيقاظ عقول الخاصة من أبناء الأمة وتنويرها حتى تتضح لهم الرؤية أولا و يعرفون مواقعهم من الغاصبين الأجانب المستبدين من الحكام، ثم

يعمل هؤلاء لتكون الرأى العام في الأمة وتجميع الشعب من حولهم فيكون الإصلاح أو الثورة، فيقنع البارودي بأسلوب العمل السياسي للأفغاني ويشتد إعجابه به وبسيطرته على القلوب والعقول ويصور إعجابه في أحدى قصائد لمدح الافغاني.[1]

فلما كانت سنة 1294هـ/ 1877م أعلنت روسيا الحرب على تركيا، واستنجد تركيا بمصر فأرسل إسماعيل لمعاونة السلطان حملة من اثنى عشر ألف مقاتل، وكان البارودي قائدا من قوادها. نزلت الحملة في "وارنه" على البحر الأسود، ومضى جنودها وضباطها يحاربون في أكرانيا بمقاطعة "سرنسوف"، هناك خاضوا في معارك وقاوموا الأعداء ببسالة وشجاعة وأبلوا بلاء حسنا، قد شغلت البارودي المعارك اشتغالا لم يدر من أمر عيد الفطر شيئا، حتى أخبره به بعض مرافقيه، وفجأة وجد عواطفه تجيش، وتتزاحم الذكريات من كل جانب، ويشتد حنينه إلى الوطن فيحكى مافعلت به ذكريات العيد وهو غريب فيقول:

أراك الحمى شوقي إليك شديد وصبري ونوى في هواك شريد

ألا أيها اليوم الذي لم أكن له ذكورا، سوى أن قيل لي هو عيد

أتسأ لنا لبس الجديد سفاهة وأثوابنا ما قد علمت حديد

فمن لغريب "سرنسوف" مقامه رمت شملة الأيام، فهو لهيد[2]

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص142.

[2] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص144.

ثم انتقل البارودي إلى إقليم "دبريجة" في بلغاريا، وظلت الحملة تحارب في بلغاريا و أكرانيا بشجاعة وقوة، وأبلى الجنود المصريون بلاء حسنا حتى وضعت الحرب أوزارها، واضطر الترك إلى معاهدة "سان استفانو" المشهورة في مارس 1878م. وكانت قد طارت الأنباء بما أبداه البارودي في تلك الحرب من شجاعة و بسالة نادرة، فخلع عليه الترك رتبة أمير اللواء ومنحوه الوسام المجيدي من الدرجة الثالثة و نيشان الشرف.[1]

عندما كان البارودي يزاحم في ميادين هذه الحرب ومعاركها الدامية كان ينازعه الشوق إلى مصر التي بلغ حبها إلى أعماق قلبه، وقد صور ذلك في قصائد عديدة، فنذكر بعض الأبيات من قصيدة قد صور فيها صورة الحرب الروسية التركية، ووصف شيمته العربية النبيلة وهو يقول:

ولـي ظمـأ لـم يبلـغ المـاء ريـه وفي النفس أمر ليس يدركه الجهد

أود ومـا ود أمـريء نافعالـه وإن كان ذا عقل إذا لـم يكـن جـد

ومن كان ذا نفس كنفسي تصدعت لعزتـه الـدنيا و ذلـت لـه الأسـد

ترك البارودي تركيا بعد أن ذاقت مرارة الهزيمة في حربها مع الروسيا، وعاد إلى مصر عام 1878م، فرقى إلى رتبة اللواء وعين مديرا للشرقية، مكث بها أربعة أشهر فشاهد ما شاهد من صنوف العذاب وألوان الإرهاق التي يعانيها الفلاح والشعب من يد الأمراء والحكام، وما لبث أن نقل إلى القاهرة في ستمبر 1878م، بعد

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص151

أن عين محافظا للقاهرة، وفي هذه الفترة رأى إسماعيل كان يركع على قدميه أمام الإنجليز والفرنسيين، مذعنا لتدخلهم في شئون الحكم إذعانا، يؤلف الوزارة المختلطة في شهر أغسطس من تلك السنة، بحيث أصبحت وزارة المالية بيد وزير إنجليزي ووزارة الأشغال بيد وزير فرنسي، أما رئاسة الوزراء أو مجلس النظار فأعطيت لنوربا عميل الأجانب، وبذلك سقطت مقاليد حكم البلاد في يد الوزيرين الأوربيين، تحرك الشعب حركة قوية، يريد أن يدفع عن ظهره أعباء الظلم التي أخذه بها إسماعيل والأجانب جميعا. وظهرت حركة في الجيش بسبب إحالة كثيرين منه إلى المعاش، فخلف توفيق بن إسماعيل نوبار في رئاسة مجلس النظار، ولكن توفيقا لم يكن بأكثر وطنية من نوبار، ولم تكن وزارته بأحسن حال من الوزارة السابقة بل كانت أسوأ منها، ذلك أنه أتاح الوزيرين حق وقف كل قانون لايوافقان عليه في مجلس النظار، ففقدت الوزارة صبغتها القومية، فضج الشعب ضجة، وألغي مجلس شورى النواب، فلم تهدأ النفوس، بل ازدادت حدة على قوى الظلم، ثم تكونت جمعية وطنية أرغمت إسماعيل على وضع نظام دستوري سليم، واضطلاع وزارة وطنية بشئون الحكم لايكون بينها أجنبي دخيل، وتكون هذه الوزارة مسئولة أمام مجلس شورى النواب، وقام محمد شريف بتأليف وزارة وطنية، وأخذ يضع قواعد الدستور الجديد.[1]

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص66.

ولكن توفيق بخضوعه للنفوذ الأجنبي تجاوز طغيان أبيه و استبداده، فاضطرب الشعب اضطرابا، واتجه الرأى العام إلى البحث عن السبل التي تخلصهم من التدخل الأجنبي بأسره، وكانت مراكز القوى الوطنية تموج بالغضب والثورة، ولكنها كانت تتحرك متفرقة مع كون حركتها في اتجاه متشابه، فتجمعت في حركة واحدة تبحث عن زعيم يوحد الصفوف ثم يقودها، فتقدم البارودي بنداء الثورة، يشرح الأسباب التي يدعو مواطنيه من أجلها إلى الثورة فقال لامية المشهورة:

قلدت جيد المعالى حلية الغزل وقلت في الجد ماأغنى عن الهزل

حلبت أشطر هذا الدهر تجربة وذقت مافيه من صاب و من عسل

فما وجدت على الأيام باقية أشهى إلى النفس من حرية العمل

لكننا غرض للشر في زمن أهل العقول به في طاعة الخمل

قامت به من رجال السوء طائفة أدهى على النفس من بؤس على ثكل

من كل وغد يكاد الدست يدفعه بغضا ويلفظه الديوان من ملل

ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت قواعد الملك حتى ظل في خلل

وأصبحت دولة الفسطاط خاضعة بعد الإباء وكانت زهرة الدول[1]

ويحثهم على المبادرة بالثورة قبل أن يفقدوا الفرصة ويطلبهم بانتهاز الفرصة للثورة كي يستأصلوا الفساد والطغيان من وطنهم العزيز، ويقول:

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص403.

فبادروا الأمر قبل الفوات وانتزعوا شكالة الريث فالدنيا مع العجل

وقلدوا أمركم شهما أخا ثقة يكون ردءا لكم في الحادث الجلل

ولاتلجُّوا إذا ما الرأي لاح لكم إن اللجاجة مدعاة إلى الفشل

وطالبوا بحقوق أصحبت غرضا لكل منتزع سهما ومختتل

لاتتركو الجد أو يبدو اليقين لكم فالجد مفتاحُ بابِ المطلب العَضِل

حتى تعود سماء الأمن ضاحية ويرفل العدل في ضافٍ من الحُلَل[1]

ولم يتخد الشعب المصري ندائه إلى الثورة بالجد كصرخته الأولى قبل عشر سنوات، فلم ييأس البارودي من ثورة الشعب، إذ تغيرت الظروف وكذلك تغير اتجاه الحركة الوطنية إزاء قبول إسماعيل اللائحة الوطنية، وفوض محمد شريف بمسئولية تكشيل الوزارة، وما لبث توفيق أن جعل يتقرب إلى زعماء الحركة وأعلن تقرّبه إلى الحزب الوطني، وأخذ يتردد إلى مجلس جمال الدين الأفغاني، وأصبح جمال الدين صلة قوية بينه وبين المصلحين الذين وعدهم توفيق مرة بعد أخرى بأنه متى وصل إلى العرش فسوف لايحيد قيد شعرة عن جادة الحكم الدستوري[2].

وعندما كان محمد شريف رئيس مجلس النظار يحاول أن يضع للبلاد دستورا قويا لكى يرد عليها كرامتها وحقوقها المهضومة، وفوض مجلس شورى النواب الاختيار عن كل تصرف مهما دق، وجعل الوزارة مسئولة أمام المجلس عند

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص413.

[2] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص161

كل تصرف، وسرعان ماجعلت الحكومة الإنجليزية والفرنسية تكيدان لإسماعيل عند الدولة العثمانية لإبعاده الوزيرين الأجنبيين عن الوزارة و إسناد رياستها لمحمد شريف الوطني الغيور، ومازالتا تحثان السلطان العثماني على خلعه عن ولاية مصر، حتى خلعوه في يونيو سنة 1879.[1]

ورفع توفيق إلى العرش بعد إسماعيل، فقدم له محمد شريف استقالته حسب التقاليد المتبعة، وبعث توفيق إلى محمد شريف بالكتاب التقليدي لتشكيل الوزارة، وجاء الكتاب خاليا عن الإشارة إلى الإصلاح الدستوري والحكم النيابي، و اكتفى بالإشارة إلى الأزمة المالية، وعلى الرغم، مازالت آمال الشعب المصري منوطة بتوفيق، لأنه كان متصلا بالسيد جمال الدين الأفغاني وبالشيخ محمد عبده وبالدعاة إلى الإصلاح والشورى، وعلى ذلك إنه استقدم إلى القصر جمال الدين الأفغاني، وأكد له ثباته على خطة الإصلاح، ولكنه حين آل إليه الأمر نقض وعوده وأعاد المراقبة الثنائية، وأصدر قانون التصفية، وخاصم الحكم الينابي، واستدعا محمد شريف ووزراءه وطلب منه الاستقالة بعد أن رفض البرنامج الدستوري، كما استدعى جمال الدين الأفغاني إلى قصره وقال له: "إني أحب كل خير للمصريين و يسرني أن أرى بلادي و أبناءها في أعلى درجات الرقى والفلاح، ولكن مع الأسف إن أكثر الشعب خامل جاهل لايصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة".

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص70.

ورد عليه جمال الدين بلسان حزبه بقوله: "ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص إن الشعب المصري كسائر الشعوب لايخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل، فبالمنظار الذي تنظرون به إلى الشعب المصري ينظر إليكم، وإن قبلتهم نصح هذ المخلص وأسرعتم إلى اشتراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى، فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة يسنون القوانين وينفذونها باسمكم وإرادتكم، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسطانكم".[1]

وكان جزاء النصيحة المخلصة أن قبض على جمال الدين الأفغاني في 24 أغسطس 1879 ونفى من البلاد وشرد أنصاره ومريدوه، وحددت إقامتهم في بلادهم وقراهم بعيدا عن العاصمة، ومنعوا من الحديث في السياسة، فما لبث توفيق إذ وضع يده في أعداء البلاد الإنجليز والفرنسيين، فلا يتحرك إلا بإشارة منهم فطلبوا منه أن لايصدر الدستور ولايدعو مجلس شورى النواب، فاستقال محمد شريف، ويمضى توفيق في حكم البلاد بدون دستور ولاهيئة نيابية، وسلم رياسة مجلس النظار إلى مصطفى رياض. والبارودي لم يبتعد من الوزارة بعد استقالة محمد شريف حسب الاتفاق الذي عقده شريف مع وزارئه بأن لايشتركوا في وزارة جديدة إلا إذا وافق الخديو على البرنامج الدستوري الذي أعده شريف، وانضم البارودي ناظرا أو وزيرا للأوقاف والمعارف في المجلس العالي الذي شكله توفيق برئاسته ثم

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعرالنهضة، ص166، نقلا عن خاطرات جمال الدين لمحمد المخزومي، بيروت 1931 ص53.

اشترك في وزارة رياض وزيرا للأوقاف، ويبدو من بادية النظر بأن الباردي انحرف عن المبادئ الدستورية وانضم إلى الصفوف الرجعية، ولكننا إذ فحصنا الحقائق التاريخية من حياة البارودي الأولى والأخيرة ونتبعنا الدلائل والشواهد من أعماله في الحركة الوطنية لعلمنا حقيقة الأحوال، وابتعدنا عن كل مظنة بسبب اشتراكه في الوزارتين، فإنه لم يقبل الوزارة لرغبته بالقوة والسلطة ولم يكن منصب الوزارة غاية آماله، فآمال البارودي كانت فيما وراء الوزارة.

قام البارودي بإصلاحات كثيرة في وزارته من أهمها جمع الكتب الموقوفة المتفرقة في المساجد، وجمع الآثار العربية ووضعها في مسجد الحاكم، بينما كان البارودي يؤدى مسئوليته تجاه وزارته كان توفيق و رياض يضيقان أغلال التدخل الأجنبي وتجاوزا في الظلم والاضطهاد والعنف والتشريد، فتعالت أصوات الشعب تندد وتوجه إليهما الانتقادات اللازعة، و تكونت جمعية سرية باسم الحزب الوطني منذ نوفمبر سنة 1979م، وأخذت تطبع منشورات تكشف فيها عن استبداد الحكام وخيانتهم، وتوزع هذه المنشورات في البلاد، وقد انضم بهذه الجمعية كثير من أعيان البلاد وأصحاب الرأى وبعض مديرى أقاليمها على سبيل المثال أحمد عرابي، محمود سامي البارودي، عبدالعادل حلمي و علي فهمي وغيرهم[1].

وفي أثناء ذلك عين عثمان رفقى الشركسي وزير الحربية والبحرية، فما لبث أن أخذ يضطهد ضباط الجيش الوطنيين، ومنعهم من الرقى إلى المناصب الرفعية من

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث ص، 73.

الجيش، وجعل هذه المناصب خاصة لأبناء جنسه من الضابط الشراكسة والأتراك، فوقع هذاالحادث على الضباط الوطنيين كصاعقة وأثار حفيظتهم حتى أجمعوا أمرهم بينهم على مقاومته إلى أي حد ممكن، فتقدم عرابي باشا وعبدالعادل حلمي وعلي فهمي في 17 من يناير سنة 1881م بمذكرة إلى الحكومة يطلبوا فيها عزل عثمان رفقي وتعديل قوانين العسكرية بما يضمن العدل والمساواة بين جميع الضباط في الجيش. وقرر توفيق ورياض وعثمان رفقي قتل الحركة في معهدها باستئصال زعمائها، دعاهم رفقي للمحاكة فاعتقلهم، وسارع زملاؤهم في الجيش ومعهم من جنودهم فردوا إليهم حريتهم، وارتعدت فرائض توفيق وجمع مجلس النظار ليتشاور معه في الأمر فأشار البارودي عليه بإباحة طلبات الجند، فعزل عثمان رفقي وألغى قانون العسكرية، و اسندت وزارة الجهادية إلى محمود سامي البارودي، وسرعان ما أخذ البارودي في إصلاح القوانين العسكرية مع زيادة رواتب الضباط والجند.[1]

كان موقف البارودي تجاه الحركة ودفاعه عن زعماء الحركة ومطالب الجيش في مجلس الوزراء قد أثار الشك في نفس رياض، فبث العيون والأرصاد من حوله حتى تأكد من العلاقة السرية بين البارودي و زعماء الحركة، فدس له عند توفيق، فتربصا به الشر واتخذا له أسباب المضايقة حتى قدم استقالته في 22 اغسطس 1881م.

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص، 183.

كان البارودي قد أشار زعماء الحركة إلى أنه إذا لم يستطع دفع الضرر عنهم قدم استقالته، فاتخذوا استقالته إنذارا لهم، وبعث رياض وكيل الداخلية ليبلغ البارودي قرار الحكومة لخروجه من القاهرة و اعتكافه في ضيعته والامتناع عن السياسة، فركب البارودي القطار المتوجه إلى ضيعته "بقرقيرة" ونفسه تتميز من الغيظ، و قلبه يفيض بالكراهة والحقد على رياض، وتنفعل نفسه بالألم فتفجر نفسه بالهجاء ويقول قصيدة الانتقام:

تبلى العظام و يبقى ذكره أبدا في كل عصر له سجع وترنام

مالي بودك بعداليوم إلمام فأذهب فأنت لئيم العهد نمام

في وجهه سمة للعدد بينة وبين جنبيه أحقاد وأوغام

فظ غليظ مقيت ساقط وجم وغد لئيم ثقيل الظل حجام

وهاك ما أنت أهل في الهجاء له فاالهجو فيك لنقص الحق إبرام[1]

عندما وصل البارودي ضيعته توالت الأخبار المفزعة من القاهرة، فقد كان استقالته فعلا نذير الخطر الزاحف على زعماء الضباط، عين توفيق زوج أخته داود يكن وزيرا للجهادية وهو لواء جركسي، اشتهر بقسوته و تعصبه ضد المصريين، وعزل رياض أحمد الدرملي محافظ القاهرة، وعين مكانه عبدالقادر حلمي وهو من العسكريين الجراكسة أيضا، ويتكشف البارودي في خطة الرجعيين مايوشك أن يدفع بالجيش إلى حرب أهلية، وما يتهدد الوطن كله بنكسة تذهب بما أحدثته حركة

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص582.

فبراير من يقظة للشعور الوطني، فيهرع إلى القاهرة، يلقى الناس ويتحدث في شئون الوطن، وما مضت أيام حتى ثار الجيش في 9 من ستمبر سنة 1881 بقيادة عرابي مطالبا بعزل رياض و إعادة مجلس شورى النواب وزيادة عدد الجيش حتى يصبح قلعة حصينة للأمة يرد عنها كيد المعتدين.[1]

أذعن توفيق فعزل رياضا وعهد إلى محمد شريف بتأليف مجلس نظار جديد، فأشرك البارودي معه ناظرا للحربية والبحرية، وأنشأ مجلسا نيابيا حرا، وأخذ يعرض عليه الدستور الذي كان أعده لأواخر عهد إسماعيل والذي تنص إحدى بنوده على أن يكون للمجلس النيابي الحق الخالص في تقرير الميزانية، فأسرعت الحكومتان الإنجليزية والفرنسية، فقدمتا مذكرة زعمتا فيها أن جعل تقرير الميزانية حقا للمجلس سيضر بحقوق الدائنين، وتقدم شريف "باللائحة الأساسية" للمجلس، وقد نص فيها على منع النواب من الإشراف على الميزانية، فأجمع النواب على رفض هذه اللائحة، واعتزل محمد شريف الحكم. ورجع أعضاء اللجنة إلى زملائهم النواب يتشاورون فيما بينهم ليختاروا رئيس الوزراء، فأجمعوا على اختيار البارودي فاسند إليه رياسة الوزارة في فبراير سنة 1882م.

ودعا توفيق البارودي إلى تشكيل مجلس النظار الجديد، فألفه من زعماء الثورة العرابية وأنصارها ، وجعل العرابي نظارة الحربية والبحرية، وجعل للسودان نظارة تختص بالنظر في شئونه، ومضى يطهر الجيش من جرائم الفساد الشركسية

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعرالنهضة، ص192.

والتركية، وأعلن الدستور الذي يخص فيه الحق النهائي في تقرير الميزانية لمجلس النواب، وتحتج انجلترا وفرنسا احتجاجا فلا يبالي لاحتجاجهما، وفي شهر أبريل انكشف القناع عن مؤامرة دبرتها طائفة من الضباط الشراكسة للقضاء على زعماء الثورة، فعرضوا أمام محكمة عسكرية ثم حكم بنفيهم المؤبد إلى السودان، وتجريدهم من رتبهم ومن كل امتيازاتهم، وعند ما قدم الحكم إلى توفيق للتصديق، منع التوقيع عليه وخالف الحكم، فثارت ثائرة البارودي وعرابي ومن معهما من النظار، وازداد الخلاف بين الوزارة وتوفيق، وطالب كثير بضرورة خلعه، وهنا وجد البارودي نفسه تحتدم فيها الثورة على توفيق احتداما عنيفا[1]، ونظم قصيدة طويلة يعيد فيها إصراره على موقفه، ويقول:

حسبوا التحول في الطباع خليقة وتحـــول الأخـــلاق لـــيس يطـــاق

تـــالله أهـــدأ أو تقـــوم قيامـــة فيهـــا والـــدماء علـى الـــدماء تـــراق

أنـــا لا أقـــر علـى القبـــيح مهابـــة إن القـــرار علـــى القبـــيح نفـــاق

قلـــبي علـى ثقـــة ونفســـي حـــرة تـــــأبى الـــــدني وصـــــارمي ذلاق

وعـــلام يخشـــى المـــرأ فرقـــة روحـــه أو لـــيس عاقبـــة الحيـــاة فـــراق[2]

طالب البارودي المجلس النيابي ليحل النزاع بين الحكومة وتوفيق في الحكم الذي صدرته محكمة عسكرية لنفى طائفة من الضباط الجراكسة الذين دبروا

[1] شوقي ضيف، محمود سامي البارودي رائد الشعر الحديث، ص76.

[2] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص360.

لاغتيال زعماء الثورة، قد كان توفيق عدل الحكم حسب هواه، فحل المجلس هذا النزاع، وتم القرار بأن توفيق لايستشير الأجانب في أمور الدولة، ولا يقطع أمرا إلا بإذن من الوزارة الدستورية، وعلى الرغم من ذلك إنه مضى يستشير الإنجليز والفرنسيين حتى أصبح كأنه عميل لهما، و سرعان ما أرسلا له بوارج من أسطوليهما التي خاضت مياه الإسكندرية، وما وافى يوم 25 من مايو حتى قدمت الحكومتان إلى الحكومة المصرية وإلى الخديو المذكرة المشتركة تطلبان إلغاء الوزارة البارودية ونفى أحمد عرابي خارج البلاد، وتحديد إقامة علي فهمي وعبد العادل الحلمي في الريف المصري، فرفضت الحكومة والشعب المصري المذكرة المشتركة، ولكن توفيقا قد خدع وأعلن قبوله للمذكرة، فاكفهر الجو وقدم البارودي استقالته.[1]

قد كان لاستقالته أسوأ وقع في البلاد، وأحس الناس نذر النكسة و بوادر العاصفة، وأيقنو أن الخديو قد باع البلاد للأجانب، وفتح لهم أبواب السيطرة على مصاريعها، فقامت الأمة كرجل واحد، وتأججت الثورة في القلوب، وبالرغم من كل ذلك فقد أمعن الخديو في موقفه العدائ من الأمة، ولم يراع شعورها لأنه يعلم علم اليقين أن النفوذ الأجنبي هو سنده الوحيد في بقائه بمنصبه، ولكنه لم يستطع تعيين وزارة تخلف وزارة البارودي بسبب الخوف والذعر من أنصاره وأتباعه، وساد البلاد الأضطراب والرهب، وكذلك أصاب الأجانب المقيمين موجة من الهلع والخوف، لأن تدخل إنجلترا وفرنسا في شئون البلاد ووجود أسطوليهما في مياه

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص28. وشوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص78

الإسكندرية قد عبأ الشعور العام بالكراهية ضد الأجانب جميعا، وأصبحت البلاد كالبركان الذي يموج ويوشك أن ينفجر.[1] وصور البارودي هذه الحالة التي يمر بها شعبه وطنه في قصيدة يقول:

كنا نود انقلابـــــــا نستريح به حـــتى إذا تـــم ســـــاءتنا مصـــايره

فالقلب مضـــــطرب فيما يحاوله والعقـل مختبـل ممـــــا يحـاذره

وأحس توفيق وحلفاؤه بأن زمام الحكم يفلت من أيديهم بعد أن رفضت البعثة التركية مذكرة الدولتين، لأنها قد اضطرت إلى هذا الموقف بعد أن رأت إجماع الأمة على رفضها، ووجد مندوب إنجلترا نفسه أيضا وقد فشل في خلق الأسباب للتدخل المسلح، واتخذت الحكومة الإنجليزية طريق التدخل السافر في مياه الإسكندرية تهديدا لحكومة الخديو، وعدوانا على الوطن، ثم حدثت فتنة الإسكندرية هلك فيها المساكين، فأقامت منها حكومة إنجلترا حجة للهجوم على الأراضي المصرية، ساد الخوف والاضطراب بين الأجانب المقيمين في الإسكندرية فأسرع القناصل الأوربية إلى الخديو وطلبوا منه تكشيل وزارة تتحمل المسئولية في البلاد، فتم تعيين إسماعيل راغب رئيسا لمجلس النظار.

عاد الأمن واستقر النظام في الأيام الأولى لوزارة إسماعيل راغب، وخابت آمال الرجعية والاستعمار في وضع أسباب للتخل، فما لبث الخديو أن أصدر منشورا دون سبب ظاهر في 21 يونيو 1882، يبدى خوفه على نفوس الأجانب المقيمين في مصر

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص224.

هذه الظروف المضطربة، ويندد بما لاقوه من اضطهاد المصريين في حادث الإسكندرية، فأثار هذاالمنشور حفيظة زعماء الثورة، وأيقن البارودي أن توفيقا يريد دفع البلاد إلى خطر ثاني فرأى أن يخلع ويولى إبنه عباس تحت الوصاية بدلا منه.[1]

ومما ازداد الطين بلة هو طلب الأدميرال سيمور قائد الأسطول البريطاني وقف تحصين القلاع على شواطئ الإسكندرية، رغم توقف التحصينات مضى سيمور يبحث عن المعاذير للاحتلال، فطلب تسليم بطاريات حصون الإسكندرية وإلا ضربها بمدافعه، فرفض الشعب الإنذار البريطاني بكل قوة.

ولم تلبث مدافع الأسطول الإنجليزي أن ضربت الإسكندرية بالقنابل في 11من يوليو سنة 1882م، أدت مدفعية الساحل واجبها بكل بسالة، وظلت تقاوم العدو حتى أسكتتها قنابل الإنجليز، وصلت أخبار الاعتداء على الاسكندرية إلى البارودي في القاهرة فأسرع إليها، ولقى عرابي ومجلس القيادة الحربية، وحلل الأوضاع من ناحية السياسة والحرب تحليلا، ورأى أنها الحرب بين مصر وإنجلترا لا مفر منها في سبيل الشرف والكرامة.[2]

رأت القيادة العسكرية أن الاسكندرية بعد تحطيم حصونها وتعرضها للحريق من قنابل الأسطول البريطاني ونزول الإنجليز إليها لم تعد تصلح جبهة للدفاع، وقررت الإنسحاب منها إلى منطقة كفر الدوار، وقام الرأي أن يعود البارودي إلى

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص231.

[2] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعرالنهضة، ص234.

القاهرة ليتولى هو ويعقوب سامي وكيل الجهادية أمر تعبئة الأمة للقتال. كان الإحساس العام بين كبار الساسة وبعض ضباط الجيش بالقاهرة أن تركيز التحصينات والدفاع في منطقة كفر الدوار يعطى الفرصة للعدو بغزو البلاد من منافذ الوطن المهملة دون التحصين، وخاصة قناة السويس، سافر البارودي وبعض الضباط إلى كفر الدوار واقترح لسد القناة لمنع الأسطول الإنجليزي، لقد اتفق الجميع على رأى البارودي ولكن عرابي القائد الأعلى للجيش لم يوافق على سد القناة بسبب ما وعده "دليسبس" من حماية فرنسا والدول الأوربية لحيادها.[1]

وتحقق فيما بعد ما تنبأ به البارودي، ففي 20 أغسطس 1882م تحركت المدرعات وبوارج الأسطول البريطاني تحت ضحى الليل إلى بورسعيد فاحتلها ثم اقتحمت قنادة السويس دون معارضة من دليسبس. وفاجأت الجيوش البريطاني الجيش المصري المحول إلى المنطقة الشرقية، وتنبه عرابي للخدعة فأبرق إلى الجيش المصري بالمنطقة كى يسد القناة، ولكن القرار جاء بعد فوات الأوان، حين جاء البارودي أنباء احتلال القناة طارت نفسه شعاعا وأيقن بأن كفة الحرب قد تحولت إلى مصلحة الأعداء[2]، ويتألم البارودي و يموج صدره بالحسرة ويقول:

لمعمري لقد أيقظت من كان راقدا وأنذرت، لكن لم تكن تنفع النذر

نصحت وكذبتم، فلما أتى الردى عمدتم لتصديقي وقد قضى الأمر

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص239.

[2] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص240.

فلـم يبـق في أيـديكم غير حســرة ولم يبق عندي غير ما عافه الصدر

فجـاء الـذي كنـتم تخـافون شــره وزال الذي لم يبق من بعده شـعر[1]

وعين البارودي قائد "لمواقع الصالحية " غربي الإسماعيلية، وخرج إلى الحرب قائدا لفرقة من 12 ألف جندي من الأسلحة الثلاثة، المشاة والسواري، والمدفعية، ومضى يحارب بجرأة وبساله. وأثناء الحرب بـ"الصالحية" وصله نعى أمه فانفعلت نفسه وجاشت عواطفه، فعبر عن انفعاله في قصيدة. اجتمع زعماء الجيش المصري وقرروا الهجوم على مركز التجمع الإنجليزي "بالقصاصين" و رسموا الخطة، وعرف كل قائد مهمته في العملية الحربية، ولكن العدو كان عالما بما استقر عليه الرأى بوسيلة جواسيسهم فاستعدوا للمعركة، وبادر العدو بإطلاق النار وتوالى المد والجزر بين الجيش، وتوقع القادة المصريون هجوم جيش الصالحية بقيادة محمود سامي، ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل، ذلك أن محمود سامي لم يأت بجيشه وتأخر عن موعده حيث قد أضلهم دليل الصحراء الطريق، عندما أسفر الصبح واهتدى البارودي إلى الطريق سارع إلى أرض المعركة، ولكن العدو كان يعلم تحركاته، وكان له بالمرصاد فلما قرب من موقعه وجه إليه بطاريات مدافعه قبل أن يصل إلى موضعه من المعركة، فتشتت الجنود وولوالأدبار، وحاول البارودي أن يبث الشجاعة في القلوب ولكن الهزيمة كانت قد ذهبت بالنفوس وأطاحت بالعقول وإلى هذه المعركة يشير البارودي في قصيدة طويلة:

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص251.

لأي خليـــل فـي الزمـــان أرافـــق وأكثـر مـن لاقيـت خـب منـافق

ظننـت بهـم خيرا فأبـــت بحسـرة لهـا شجن بين الجوانـــح لاصـــق

فيا ليتني راجعت حلمي ولم أكن زعيـــمـــا وعاقتني لذاك العوائـــق

ويـاليتني أصبحت في رأس شـاهق ولم أر ما آلـــت إلـــيه الوثائـــــق

أسـود لـدى الأبيـات بين نسائـهم ولكنهم عند الهيـــــاج نقـــــانـق

إذ المـرأ لـم يـنهض بقـائم سيـــفه فيا ليت شعري كيف تحمى الحقائق[1]

كانت هزيمة الجيش المصري في معركة القصاصين بداية النهاية، وتاحت منها رائحة الخيانة، وواجه العملاء الاتهامات التي تضيق على أعناقهم، فأخذ الجيش المصري على غزوة جاءت به الهزيمة الكبرى في موقع "التل الكبير" صباح 13 ستمبر 1882م. لما بلغ محمود سامي البارودي قومندان الصالحة ومن معه من الضباط بهزيمة التل الكبير قرروا الانسحاب من مواقعهم، أخذ البارودي يجمع القوات للدفاع الثاني، وأرسل برقية إلى عرابي يطلب هداياته، فلما جاء الرد علم بأن المجلس العرفي أخذ يبحث فكرة التسليم، وأسرع البارودي إلى القاهرة ليحاول منع المجلس من التسليم للأعداء ولكن محاولاته ذهبت سدى، وتم القرار للتسليم، خرج عرابي وطلبة عصمت، وقد عزما على تسليم نفسيهما أسيري حرب للقائد البريطاني. أما

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي ص379.

محمود سامي البارودي فلم يقبل أن يذهب إلى العدو المحتل وليسلم نفسه وسيفه طواعية وقال "إني ذاهب إلى منزلي فإذا أرادوني فإنهم يعرفون أين يجدوني".[1]

وسلمت القاهرة في 15 ستمبر 1882م ودخلها القائد الانجليزي يحف به أعوان الخيانة ومندوبو الرجعية، ونزل قصر عابدين ورفع عليه أعلام الاحتلال وانتهت مرحلة من مراحل الحركة الوطنية بالهزيمة أمام المد الرجعي والاستعماري، وانطوت صفحة من صفحات الجهاد الوطني لتكون ذكرى وتاريخا.[2]

وألقى القبض على الزعماء ومن معهم من المعاونين وحوكموا أمام محكمة عسكرية، شكلت من خصوصهم، كانت المحاكمة مهزلة المهازل كما يصفها شوقي ضيف في كتابه، إذ حكم عليهما، وعبدالعال حلمي، وعلى فهمي، وطلبة عصمت، ويعقوب سامي، ومحمود فهمي بالنفى المؤبد، واختارت لهم الحكومة الإنجليزية جزيرة سرنديب، أصدر توفيق أمرا بمصادرة أملاكهم، وأمرا ثانيا بتجريدهم من جميع الرتب والألقاب، وبلغ العسف أقصى مداه فحكم على كثير من العرابيين بالنفى المؤقت أحكاما تتراوح بين سنتين وعشرين سنة وجرد كثيرون من رتبهم وامتيازاتهم ومناصبهم مع تحديد إقامتهم، غير أن الثورة العرابية إن كانت قد أخفقت، فإن روح الشعب ظلت قوية رغم محنة الاحتلال.[3]

---

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص250، نقلا عن تاريخ الثورة العرابية، ص444.

[2] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص250.

[3] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص81.

في 27 من دسمبر سنة 1882م، أُخِذوا تحت جنح الليل إلى قطار أطفئت أنواره في ثكنات قصر النيل، وجيئ بهم تحت الحراسة المشددة إلى ميناء السويس، ونقلوا إلى الباخرة الإنجليزية ميوتس المنتظرة، فغادرت الباخرة بهم في الثامن والعشرين من دسمبر 1882م ووصلت إلى "كولمبو" في صباح 10 من يناير سنة 1883م، وعندما حانت ساعة الفراق وقف البارودي يلقى نظرة الوداع على الوطن الحبيب ويلتاع قلبه لفراق الأهل والولد.[1] يسجل البارودي مشاعره وعواطفه في لوحة الوداع الخالدة في صورة شعرية، ويعبر عن آلامه عند الرفراق:

محا البين ما أبقت عيون المها مني فشبت ولم أقض اللبانة من سن

عناء ويأس واشتياق وغربة ألا شد ما ألقاه في الدهر من غبن

ولما وقفنا للوداع وأسبلت مدامعنا فوق الترائب كالمزن

أهبت بصبري أن يعود فعزني وناديت حلمي أن يثوب فلم يغن

ولم تمض إلا خطرة ثم أقلعت بنا عن شطوط الحي أجنحة السفن

وما جربت النوى قبل هذه فلما دهتني كدت أن أقضي من الحزن

ولكنني راجعت حلمي و ردني إلى الحزم رأى لايحوم على أفن

فيا قلب صبرا إن خزعت فربما جرت سخا طير الحوادث باليمن[2]

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص269.

[2] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص625.

وفي المنفى يبدأ الطور المظلم من حياة البارودي، يزدحمه اليأس والألم واللوعة، كان يطوى على ذلك كله جوانحه ثم يخرج ليعيش بين الناس والرفاق بنفس تكسوها القوة كأن الأحداث لم تنل منها. ومن ظلمة النفى تفجر النور في حياة الفن والشعر والقصيدة كما وصف علي الحديدي في كتابه. أثارته الذكريات فغنى لأيامه الخاليات، ولازمته ربة الشعر لاتفارقه بعد أن أصبح متفرغا لها في منفاه يسجل خطوات الزمن. كان صادقا في حياته الأولى فهو أكثر صدقا في حياة المنفى. ذلك لأن شعره كان سلواه وكان متنفس همه حين ثقلت وطأة الإغتراب، وبالإضافة إلى الهموم والغموم في المنفى ازدادت حياته كدرا بعد أن اتهمه بعض رفاقه بأنه ثار طمعا في الملك، وكان هذا الاتهام يؤلمه أكثر من المنفى والنأي عن الأهل والوطن، فنظم قصيدة طويلة صور في مطلعها احتفاظه بشعور العزة والكرامة أمام عوادي الزمن وخطوبه وجعل يدفع عن الاتهامات بقوله:

يقــول أنــاس إنــي ثــرت خالعــا وتلـك هنـات لـم تكـن مـن خلائـق

ولكنــني ناديــت بالعــدل طالبــا رضا الله واستنهضت أهل الحقائق

وإن كـان عصــيانا قيــامي فــإنني أردت بعصــياني إطاعــة خــالقى

وهل دعوة الشورى على غصاصة وفيهـا لمـن يبغى الهـدى كـل فـارق[1]

وإذ كانت الحقائق كلها تثبت بأن البارودي، حين نصبته الثورة مستشارا لها ثم زعيما من زعمائها، لم ينضم إلى الحركة لتحقيق مأربه، أو ليتخذها سلما للوصول إلى

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص387.

مطامعه، فإننا لانستطيع أن نبرئه براءة كاملة من تطلعه إلى الملك في فترة خاصة من حياته، هي فترة شبابه، عندما كان يعمل ياورا لإسماعيل و كبيرا لياوران توفيق وهو ولي العهد، إنه تمنى ملك مصر ليقود البلاد إلى حياة أفضل يسود فيها العدل والمساواة والشورى، ولكن مع هذا الطموح عندما تيقن بأنه لايملك من مقومات الزعامة الشعبية ما يملكه أحمد عرابي، ألقى إليه زمامها وبايعه بالزعامة، واكتفى بأن يكون الرجل الثاني في التنظيم الشورى وهو الوزير ثم رئيس الوزراء، من ذلك نستطيع أن نؤكد أن البارودي لم يتخد الثورة مطية لأغراضه الشخصية.[1]

هكذا مازالت الأيام تمر على الزعماء في المنفى فتضيق صدورهم بالاغتراب ولكنهم غير نادمين لما فعلوا في سبيل إنقاذ وطنهم. ومازال البارودي يعلن احتماله للنفى بإباء، وظل يقاوم صامدا للمحنة، وما لبثوا أن دبت الفرقة بينهم، ويقبل بعضهم على بعض يتلاومون وتستشرى الخصومة حتى يقع بينهم الشقاق ويعتزلهم البارودي ويسكن وحده في منزل بمنأى عن المتخاصمين، فتزيد الوحدة من آلامه ويطول به السهاد وتهجمه الذكريات، ويلتفت حوله فلايجد من يؤنسه إلا خادمه كافورا، فيلم به طائف من الحسرة على نفسه يصور في قوله:

خليلي هل طال الدجى أم تقيدت كوكبه، أم ضل عن نهجه الغدا

أبيت حزينا في سرنديب ساهرا طوال الليالي، والخليون هجّد

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص281.

إذا خطرت من نحو حلوان نسمة نــزت بــين قلبي شــعلة تتوقــد

وماكنت أخشى أن أعيش بغربة يعللــني فيهــا خويــدم أســودا

وكان مما يؤجج لوعته بغربته انتزاعه من عقر داره ومن بين أحضان زوجته الشابة الحبيبة وفلذات كبده، وبينما هو ذات ليلة غارق في نومه إذا طيف ابنته الوسطى سميرة يلم به، فتجيش عواطف الأبوة في صدره، وتسيل أنات وزفرات، إذ يذكر ما كانت فيه هي وأخواتها من سعادة وارقة لظلال.

تــأدب طيــف مــن ســميرة زائــر ومــا الطيــف إلا ماتريــه الخواطــر

ألــم، ولــم يلبــث، وســار وليتــه أقــام، ولــو طالــت علي الدياجــر

تعودن خفض العيش في ظل والد رحــيم وبيــت شــيده العناصــر

تمثلهــا الــذكرى لعيــني، كــأنني إليهــا علـى بعــد مــن الأرض نــاظر

فيــا بعــد مــا بيــني وبــين أحــبتي ويا قرب ما التفت عليه الضمائر[1]

و يسترد قواه ولايدع الضعف يستبيد به، ويسمو نفسه فوق النكبة ويستهين بما لاقاه في سبيل الوطن من عذاب، و يكتسي بأعماله و أمجاده وما قدم لوطنه من خدمات، وهو يقول:

ولاغــرو أن حــزت المكــارم عاريــا فقد يشهد السيف الوغى وهو حاسر

ومــا هــي إلا غمــرة ثــم تنجلــى غيابتهــا والله مــن شــاء ناصــر

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص236.

وعلى هذا النحو ظلت للبارودي في سرنديب نفسه القوية، وأخذت تفيض ينابيعها بحنين لاينضب إلى أهله ووطنه، وأكثر في هذا الحنين كثرة لاتعرف لشاعر عربي من قبله، يقبل عام 1885م، ويفاجئه بنعى زوجته، فيئين أنينا ويعول عويلا، يصف البارودي حالة نفسه حين وافاه الخبر فيقول:

و رد البريـــد بغيـــر مـــا أملتـــه تعس البريد، وشاه وجه الحادي

فســـقطت مغشـــيا علـي كأنمـــا نهشت صميم القلب حيـة وادي

قـد اظلـت منـه العيـون كأنمـا كحـل البكـاء جفونهـا بقـــتاد

ويعتب البارودي على الدهر و يستنكر منه فجيعته في حليلته وهي كانت عدته في الحياة، ويفكر في بناته العزيرات ثم يسأل الدهر إن كان مغاضبا له ومحاربا ويقول:

يـادهر فـيم فجعـتني بحليلـة كانـت خـلاص عـدتي و عتـادي

إن كنت لم ترحم ضناي لبعدها أفـلا رحمـت مـن الأسـى أولادي

أفـردتهن، فلـم يـنَمن تـوجعا قرحى العيـونِ رواجـفَ الأكبـاد

يبكـين مـن ولـهٍ فـراقَ حفيـةٍ كانـت لهـن كثيـرة الإسـعاد

فخـدودهم مـن الـدموع نديـة وقلـوبهن مـن الهمـوم صـوادي[1]

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص154.

ولايترك القدر البارودي يفيق من صدمة وفاة زوجته حتى يلاحقه بصدمة أخرى، فينشب الموت أظفاره في شباب ابنته، ويأتى نعيها إليه فلا يجد في قلبه موضعا لمزيد من الآلام، ولافى مقلتيه فضلة من الدموع ويصور كيفيته في شعره يقول:

فزعت إلى الدموع فلم تجبني وفقد الدمع عند الحزن داء

وما قطرت في جزع، ولكن إذا غلب الأسى ذهب البكاء

كذلك مازالت الأخبار المؤلمة والمفجعة تأتى حينا لآخر. و يأتيه البريد من مصر يحمل إليه الناعي موت الصحب والأخلاء، وتهجم صولة الأحداث على أهله و أترابه فتدفعهم إلى القبور وهو بنأي بعيد، لقد أثرت هذه الحوادث وآلام الاغتراب على قلب البارودي تأثرا، وهو ينظر إلى نفسه ليرى ما فعلت به صولة الحوادث، فيجد أنها تخطفت أهله وأحباءه، وأصابته بمحنة الحزن الدائم والاغتراب المضني، ثم أردفت كل ذلك بالشيب والكبر، فانهد منه الجسد، ونالت من سمعه وبصره، فيرثى نفسه كما يرثى الأحباب ويرسم صورة هذا الطور من عمر بريشة فنان، فيقول:

أخلق االشيب جدتي وكساني خلعة منه رثة الجلباب

ولوى شعر حاجبي على عيـ ـني حتى أطل كالهداب

ولا أرى الشيئ حين يسنح إلا كخيال كأنني في ضباب

إذا ما دعيت حرت، كأنني أسمع الصوت من وراء حجاب

لم تدع صولة الحوادث مني غير أشلاء همة في ثياب

فجعتـــني بوالـــدي و أهلـــي ثـم أنحـت تكـــر فـي أتـرابـــي

كـل يـوم يـزول عـني حبيـب يـا لقـلبي مـن فرقـة الأحبـاب[1]

ويعصف به الحزن حتى يمرضه مرضا شديدا، فينصحه الأطباء بأن يترك "كولومبو" إلى هضاب سرنديب الداخلية، ويحاول رفيقه يعقوب سامي أن يأسو جرحه، فيزوجه من ابنته، و ينزل بها منذ سنة 1890م مدينة كندي، وقد ظل البارودي أثناء قيامه بكندي يراوده الحنين إلى الوطن، وقد حدث تحول عظيم في طبيعته خلال قيامه بكندي، إذ أخذ يتوجه إلى ربه يريد أن يلوذ بكنفه، حيث ازدادت عليه المحن والخطوب، وتوالي النضال بعد النضال ما جعله يزهد في متاع الحياة،[2] يقول:

إلام يهفـــو بحلمـــك الطـــرب؟ أبعـــد خمســـين فـي الصـــبا أرب

هيهـــات ولـى الشـــباب واقتربـــت ســـاعة ورد، دنـــا بهـــا القـــرب

فلـــيس دون الحمـــام مبتعـــد ولـــيس نحـــو الحيـــاة مقتـــرب

كـــل أمـــرئ ســـائر لمنزلـــة لـــيس لـــه عـــن فنائهـــا هـــرب[3]

وبعد انتقاله إلى كندي شغل نفسه في أمور مختلفة، كان يراسله بعض الشعراء من أمثال شكيب أرسلان، كذلك راسل بعض الأدباء الهنود، وتعلم الإنجليزية، ويقال إنه ترجم منها بعض الموضوعات إلى العربية، وإضافة إلى ذلك إنه

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص68.

[2] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص93.

[3] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص88.

عني بتعليم بعض مسلمي كندي القراءة والكتابة، حتى يعرفوا لغة دينهم الحنيف، وكان يؤم المسلمين هناك في بعض الجمع[1].

مع مرور الأيام اشتد هجوم العلة والمرض،فبلغ ضعف بصره إلى حد يهدده بالظلام الأبدي، فيزداد البارودي جزعا وهلعا، وتقرر جمعية الأطباء بسرنديب ضرورة عودته إلى وطنه لمعالجته في المناخ الذي ولد وشب فيه، وخاف أهله وأصحابه من أن تدركه المنية وهو بسرنديب فقاموا بمحاولة إعادته إلى مصر، والتمسوا عند الخديو عباس السماح لعودته للاستشفاء، وحاول محمد عبده ما في وسعه حتى حصل على السماح لعودته، فغادرت السفينة به وبأسرته ميناء كولمبو أول ستمبر سنة 1899م، ووصلت إلى ميناء السويس صباح 12 ستمبر 1899م، تتحدث ابنته فاطمة عن كيفيته عند وصوله مصر "فيقف على ظهر السفينة مستقبلا مصر وهو قابض على سور السفينة والدموع تنهر من مآقيه، ولايجرؤ أحد منا أو من مستقبليه من أخواتنا و إخواننا أو الأهل والصحاب أن يقترب منه فيقطع عليه لحظة اللقاء مع وطنه الحبيب"، عاد البلبل الغريد إلى روضته ولم تكد قدماه تلمس ثرى القاهرة أنشد قصدته الرائعة:

أبابـل رأى العـين أم هـذه مصـر فـإني أرى فيهـا عيونـا هي السَحر

رضـيت مـن الـدنيا بحبـك عالمـا بـأن جنـوني في هـواك هوالفخـر[2]

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص94.

[2] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص272.

وقد مضى فيها يتغزل بفاتنات مصر مصورا ما تلم به قلوب العشاق من فتنة وإغراء، كما مضى يمتدح بعزة نفسه وصلابة روحه وبأسه الشديد. فما وافى عام 1900م حتى يعيد الخديو إلى البارودي ألقابه وإملاكه الموقوفة، فتقبل الدنيا عليه بعض الإقبال وتلاطفه بعد نفورها الطويل، ويعترف البارودي لعباس بالجميل فيشكره ويمدحه في قصيدة أخرى، ولزم البارودي بيته ولم يختلط بأحد سوى أهله وأصدقائه المخلصين ومن أنس إليهم من الكتاب والشعراء.[1]

لقد تنفس البارودي أنفاسه الأخيرة في يوم الأثنين، الثاني عشر من دسمبر 1904م، وخرج مهده في الثانية من ظهر الثلاثاء 13 ديسمبر 1904م، من داره بباب الخلق، وقام الأستاذ محمد عبده بإمامة المصلين عليه، وخرج الناس زرافات ووحدانا من أنحاء البلاد لأداء التكريم الأخير للبارودي.

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، ص94.

الفصل الثالث

آثار البارودي وأعماله

مؤلفات البارودي

الديوان:

إن أروع ما خلفه البارودي أثرا له و ذكرى هو " ديوان شعره" فقد نسى الناس البارودي كقائد و زعيم سياسي و رئيس للوزراء، ولكنهم ذكروه كشاعر، وخلده ديوانه في ضمير الزمن. وكان البارودي يسجل ما يحتف به منذ بلغ عامه العشرين بحيث يكتب شعره في صفحات كبيرة كانت تسمى في ذلك الوقت "نمر"، وقد عاد البارودي من منفاه بأكثر ديوانه مخطوطة بيده ولم يزد عليه بعد النفى في الأعوام التي قضاها بمصر سنة 1900- 1904 من شعره إلا قليل، وبعد أن استقر بالبارودي المقام في مصر عقب العودة من المنفى أخذ في المعاودة والتنقيخ لديوانه ، ثم أملاه على كاتبه ياقوت المرسي مرتبا حسب القوافي، جامعا في كل قافية ما أمكن من الأعراض والمناسبات المتشابهة فكتبه في صورته النهائية.

بعد رجوعه إلى الوطن نقح ديوان شعره و أعده للطبع، إنه أملى على كاتبيه بعد أن كف بصره في أيامه الأخيرة ماشاء من تخير وتنقيع، وظل يرتب الديوان حسب قوافيه حتى أكمل آية لمجده و تراثا للأجيال من بعده في 5313 بيتا ما عدا

قصيدة "كشف الغمة في مدح سيد الأمة". وكذلك شغل البارودي نفسه في أواخر عمره "بمختاراته"، فاختار ثلاثين ديوانا وانتخب منها ما دق لفظه ومعناه وخلا من الحشو والتعقيد، ورتب أسماء الشعراء على حسب أزمنتهم لا على حسب مكانتهم، فبدأهم "ببشار بن برد"، وانتهى بهم إلى "ابن عنين" ووضع تعليقا لمختاراته يفسر به للكلمات الغريبة والمعاني المختلفة[1].

قام بنشر ديوانه على الجارم و شفيق معروف، وقد عهدت إليها بذلك وزارة المعارف فحققاه و نقحاه وأصدرا منه جزئين حتى آخر قافية الكاف أولا، ثم أصدرا الجزء الثالث أخيرا إلى النهاية حتى قافية الياي، وطبع للبارودي قصيدة تحت عنوان " كشف الغمة في مدح سيد الأمة" وهي ملحمة شعرية في محد الرسول صلى الله عليه وسلم تعالج سيرته من مولده إلى وفاته، وسار فيها متتبعا سيرة ابن هشام، وقد نظمها في المنفى على وزن نهج البردة للبوصيري، وعدد ابياتها 447 بيتا و تقع في 48 صفحة، وقد أشرف على طبعها، وصححها ونشر بعض غريبها كاتب يد الناظم في سنيه الأخيرة ياقوت المرسي.[2]

وللبارودي كتاب يسمى "قيد الأوابد" وهو كتاب نثري التزم فيه أسلوب السجع، وراعى الصناعة البديعية ومحسناتها وجمع فيها بعض الخواطر السانحة والرسائل التي كتبها لخاصته أو التي نفث فيها مكنون صدره فخفف عن قلبه ثم

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص354.

[2] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص433.

استبقاها لنفسه، ومن ثم فهو كتاب يصور لنا جوانب خفية من حياة البارودي ويفسر لنا مغاليق شخصيته ومنازع نفسه، ويكتب عن الأحداث والظروف التي مرت به ، وإذا كان ديوانه هو الكتاب الخالد لصورة نفسه العاطفية فكتاب قيد الأوابد في ظني هو صورة البارودي التاريخية.

أغلب الظن أن البارودي كتب قيد الأوابد في المنفى فقد كان لديه من الوقت والفراغ ويسع له بأن يكتب بهذا الأسلوب الأدبي المصنوعي المنمق ويعنى به كل هذه العناية، فيختار الكلمات وكأنه يقيس أطوالها وزواياها ويتألف في المحسنات فيحشد أنواعها المختلفة والذي لاشك فيه أن البارودي وهو يكتب هذا الكتاب لم يرسل نفسه على سجيتها ليعبر في تدفق وسلاسة، بل كان يلائم بين الكلمة والكلمة والفقرة ومثيلتها. ويطلب الكمال في التناسق بين صيغ التعبير، ومع ذلك فالقاري وهو يقرأ بعض فقرات الكتاب يعشر بالحس الدقيق والشعور المرهف لكلمات اللغة الجزلة والرقيقة والعبارات الرصينة المستحكمة كل فيما وضع له. وهذا الكتاب لم ينشر حتى الآن، ولايدري أحد أين مستقره، قد أورد الأستاذان علي الجارم ومحمد شفيق معروف في مطلع نشرتها لديوان البارودي صورة لفصل مخطوطة من هذا الكتاب ننقل هنا بعضها على سبيل المثال.

"إني لما أفضت بي غوائل الزمن، إلى مفارقة الأهل والوطن، وحقت كلمة الوداع، وأنصت كل مجيب وداع، سارت بأشباحنا الفلك، بتقدير من له الملك، فلما توسطنا لجة اليم، وغشيتنا ضبابة الهم، أخذ البحر يهدر ويموج، والريح تعصف

وتروج، والدجن يبرق ويرعد، والموت يقرب ويبعد، والفلك بين صعود وهبوط، والناس بين رجاء وقنوط، فشخصت الأبصار، وغابت الأنصار، وأقبل الفزع، واستولى الجزع، وشغلت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، هناك دعا ربهم الغافلون، وكفت أذيالهم رافلون، فلا ترى إلا ناكس الطرف، لا ينبس بحرف، وكأنما أظلتهم الرجفة، وغشيتهم الوجفة، فهم لفرط الحيرة خمود، تحسبهم أيقاظا وهم رقود، فلم يزل يتخبطنا اليم، ويأخذ بأكظامنا الغم،حتى كادت الأنفس تزهق، وأظفار المنية ترهق، ونحن في وعاء، ولا نملك غير الدعاء، ولبثنا على ذلك ثلاثا، لا هجد فيها غياثا، وكيف لنا بالإخلاص، ولات حين مناص، فبعد لأي ما سكنت فورة الريح، وهدأت ثورة ابن ريح، وتجلت بنورها السماء، واصطلح الماء والهواء، فقرت الأنفس في الصدور، وتنفس كل مصدور، ولم يبق إلا شوق الحديث، من قديم وحديث، والفلك يمخر البحر بجؤجؤه، ونحن من الشهر في دؤدؤه، عتى انتهى بنا الدبيب، ولاحت لأعيننا سرنديب.

مختارات البارودي:

ترك البارودي كتابا آخر بإسم مختارات البارودي قد ألف هذه المجموعة من شعر فحول الشعراء المولدين، لتكون عونا للناشئين على طبع ملكة البلاغة والتكوين الفني للشعراء و تغذية الموهبة والخيال، واختار البارودي ثلاثين ديوانا لثلاثين من الشعراء العباسيين يبدأ برائد الشعر العباسي بشار بن برد، و يتنهى بشرف الدين أبي العباس ابن عنين، وانتخب من هذه الدواوين ما رق لفظه ، و دق معناه، وخلا

من الحشو والتعقيد مرتبا ذلك على سبعة أبواب (1) الأدب (2) والمديح (3) والرثاء (4) والصفاة (5) والنسيب (6) والهجاء (7) والزهد، وقد رتب البارودي الشعراء في مختاراته على حسب أزمنتهم لا على مكانتهم، ووضع تعليقا لهذه المجموعة يفسر به الألفاظ الغريبة والمعاني المغلقة وقد بدأ البارودي انتقاء هذه المختارات في مايو 1900م وانتهى منها في أبريل 1903م.

ومذهب البارودي فيما اختاره أن لم ينتخب إلا الجيد لفظا و معنى، وربما يأخذ البيت غير الجيد لتعلق الجيد به، وأنه لم يراع في بعض الأبيات ترتيبها الأصلي، بل قد يقدم المؤخر و يؤخر المقدم، وقد يكرر بعض ما اختاره في بابي الأدب والمديح في أبواب آخر، وقد يبدل الباء بالواو والواو بالباء أو بلام القسم إذا اقتضى السياق ذلك. وقد نشرت المنتخبات قبل الديوان فظهرت ما بين عامى 1909 و 1911 و خرجت في أجراء أربع حوت من الشعر العباسي 39593 بيتا.[1]

تتمثل آثار البارودي شخصيته من جميع جوانبها، تتمثل فتوته و إقدامه بحيث يقدم البارودي مثلا رفيعا للفارس العربي، إنه حتى لايخشى إنسانا ولاحيوانا ولافيافي صحراء مهلكة ، كان البارودي يتمثل هذه الصورة منذ صباه ، غير أنها لم تتكامل في نفسه بجلالها و عمق مشاعرها إلا منذ أصبح فارسا شاكي السلاح فقد مضى يعيش بها، كأنما اصطفته ربة الشعر لكى تنبعث فيه بجيمع خطوطها و ألوانها النفسية، بل لكى تحفرها في أذهان معاصريه حفرا، و تقدمت فهيأت له من الثراء و نعيم الحياة ما

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص442.

جعله بفرغ لشعره بين حين وحين، كما يفرغ أيضا بين حين و حين للحب والخمر ، وأيضا فقد أتاحت جوا طليقا لكى ينعم بالحرية ولكى يعب من صفوة الحياة ، وسرعان ما انطلقت به إلى حدائق حزيرة الروضة النضرة الممتدة في النيل أمام القاهرة لتكتمل عيناه بجمال الطبعية المشرق وجمال المرأة المضئ وليرخى لنفسه العنان في احتساء الخمر مع رفاقه محيلين بعض الليالي إلى أوقات أنس بهجية.

الباب الثاني

لوئس دي كاموئنس حياته وأعماله

الفصل الأول: خلفيات عصر كاموئنس

الفصل الثاني: حياة كاموئنس و خدماته

الفصل الثالث: آثاركاموئنس وشعره

الفصل الأول

خلفيات عصر كاموئنس

تأسيس البرتغال:

لقد استرد الملك فرديناند الأول أراضي لوسيتانيا الواقعة بين نهري دويره ومنديجو Mandego، وشكل منها كونتية البرتغال، وجعل ششند المستعرب حاكما عليها، وبقيت الكونتية على حالها حتى عهد الملك ألفونسو السادس. ودفعت الأوضاع السياسية المتقلبة إلى الصراع المستمر بين القوى المتنافسة في المنطقة، ورافقت هذه الأوضاع حركة الاسترداد التي كانت تطلب قوة مركزية لتشييد عملية الاسترداد، فنشأت عدة مراكز القوى الحربية، وكل منها تنافس لبسط سيطرتها على الأخرى وكانت كونتية البرتغال من إحداها.[1]

وعلى جانب آخر، كان التنازع والتنافس حادا بين ملوك الطوائف، ومهد هذا الخلاف إلى تشكيل حركة سياسية، فاغتنم الملك ألفونسوالسادس هذه الفرصة الذهبية واستولى على مملكة طليطلة عام 1085 م، ولكنه ما لبث أن انهزم بأيدي المرابطين في موقعة الزلاقة عام 1086 م. واستنجد من القوى الصليبية في أنحاء أوربا فأسرع كثير من فرسان الدول المجاورة إلى المساعدة وشكلوا جيشا قويا عام

[1] محمد محمود أحمد النشار، تأسيس مملكة البرتغال: السياسة الخارجية لألفونسو هنريكيز ملك البرتغال,ص34.

1087 م، وزحفوا جميعا إلى شبه الجزيرة الإيبيرية وقاموا بمحاصرة حول طليطلة، ولكن قد وقع الخلاف فيما بينهم فرُفع الحصار بدون أي إنجاز، ورجع الفرسان إلى أوطانهم. وجدير بالذكر أن الكونتيين هنري و ريموند كانا ضمن فرسان هذه الحملة من فرنسا، إنهما آثرا

البقاء في أسبانيا على العودة إلى فرنسا مع بقية الفرسان، ولعبا دورا ملموسا في تطورات سياسية في شبه الجزيرة الإيبيرية، قام ألفونسو السادس تزويجهما من ابنتيه؛ تزوج هنري البرجوني من دونيا "تريزا" الابنة غير الشرعية لألفونسو عام 1093 م، ثم تزوج "ريموند" من "أوراكا" الابنة الشرعية للملك، وفوض إليهما حكم جاليقية والبرتغال على التوالي. و فاز الكونت هنري بكسب حماية الرهبان والبابا بما بذل من جهود لاستيصال مسلمي الأندلس، وكذلك ترسخت العلاقات الودية بين فرنسا والبرتغال، فخلاصة القول لقد انفتح باب جديد لتاريخ البرتغال حيث إنهما شكلا قوة نامية في المنطقة.[1]

وأثناء ذلك طلب المتوكل أمير بطليومس مساعدة الملك ألفونسو ضد خطر المرابطين بجزاء التنازل عن لشبونة Lisboa وشنترين Santarem وسنترة، فاتفق ألفونسو بهذا القرار وفوض مسؤولية الإشراف على هذه المدن إلى "ريموند" وجهز جيشا قويا لهذا الغرض، ولم يمض إلا قليل حتى أعد القائد المرابطي سير بن أبي بكر

[1] محمد محمود أحمد النشار، تأسيس مملكة البرتغال: السياسة الخارجية لألفونسو هنريكيز ملك البرتغال,ص36.

جيشا كبيرا واسترد هذه المدن من قبضة الملك ألفونسو بعد أن هزمه المرابطون عام 1094م، وقرر ألفونسو، إزاء هذا الحادث، فصل كونتية البرتغال عن جليقية وإسناد حكمها إلى هنري البورجوني كدوطة لزواجه من ابنته غير الشرعية "تريزا" عام 1094م، وظل هنري البورجوني خاضعا لإشراف ريموند طوال حكمه كونتية البرتغال[1].

وفي أثناء هذه الفترة اتخذ هنري إجراءات هامة بما فيها نقل عاصمة الكونتية إلى مدينة جويماريس Guimaraes، ثم أحاط نفسه بعدد هائل من بارونات Borons البرتغال، وأخذ يقربهم بالوظائف الرئيسية ومنح الإقطاعيات، وكذلك تجمع حوله الأعيان وذوو النفوذ من المجتمع، حتى استقر الحكم في كونتية البرتغال لهنري البورجوني، فما وافي عام 1094 م أن ولد للمك ولد، مع أنه كان الولد غير شرعي أحس هنري خطر وراثة الكونتية إليه، فعقد تحالفا سريا مع ابن خاله الكونت "ريمند" ضد أي خطر لحكمهما في المستقبل، وقد انضم إليهما جماعة الرهبان الكلونيون لأنهم كرهوا وراثة الأمير سانشو لانتسابه إلى أمه العربية، وقد عاني الكونت هنري من كثير من الاضطرابات بعد إعلان وراثة الأمير سانشو للمملكة، ولحسن حظه ساعدته الظروف، حيث توفي ريموند البرجوني عام 1107 م، إنه كان

[1] محمد محمود أحمد النشار، تأسيس مملكة البرتغال: السياسة الخارجية لألفونسو هنريكيز ملك البرتغال,ص38

يشكل تهديدا لحكمه بسبب نفوذه عند الملك ألفونسو، فأصبح الجو خاليا لدوره، وفي العام التالي قتل ولي العهد الأمير سانشو في معركة مع المرابطين بموقعة إقليش.[1]

استشار الملك ألفونسو السادس أعيان المملكة في أمر وراثة عرش المملكة بعده، فأجمع الرأي على الموافقة على أن تتولى "أوراكا" حكم مملكة قشتالة وليون وأشتوريس، ويمنح ولدها ألفونسو ريموند كونتية جليقية مع بقائها تحت سلطة قشتالة، بينما يمنح الكونت هنري البرجوني صهر الملك ألفونسو إمارة البرتغال كتابع لعرش قشتالة.

وبعد وفاة الملك عام 1109م، تم زواج أوراكا من الملك ألفونسو المحارب، ولكن سرعان ما حدث النزاع بين الزوجين بسبب الاختلاف في شخصيتهما، ووقعت صراعات مسلحة متواصلة بينهما وزحف المحارب بجيشه على أوراكا وحبسها في القلعة. ولكنها قد تمكنت من إطلاق سراحها فيما بعد، ثم تحالفت مع الكونت هنري البرجوني ضد ألفونسو المحارب، وعقدت الاتفاق على منح هنري سمورة وقلعة سيا Cea مع سلسلة من المدن تقع بين سمورة وسانبريا Sanbria من شمال طلبيرة، هذا فضلا عن قلاع تورو Toro ومدينا Madina، ونصيبه من ممتلكات في جبال أوكا Montes de Oca، فسار الكونت هنري بجيشه إلى قلعة بينفيل Penofiel، مقر الملك ألفونسو المحارب. وفي أثناء ذلك قد أصرت "تريزا" زوجة الكونت هنري على تنفيذ الاتفاق الذي قام به زوجه مع "أوراكا"، فعندما طالب هنري بتنفيذ بنود الاتفاقية

[1] محمد محمود أحمد النشار، تأسيس مملكة البرتغال: السياسة الخارجية لألفونسو هنريكيز ملك البرتغال,ص41

المبرمة بينهما أخذت "أوراكا" تماطله، ثم عقدت التحالف السري مع زوجه ألفونسو المحارب، ولما تبين له خداعها أسرع هنري إلى محاصرة الملك ألفونسو المحارب وأوراكا، ولكن الحصار لم يطل واضطر هنري إلى فك الحصار بعد أن أدرك أن القوات المصاحبة له غير كافية للصمود فترة طويلة، ولكن سرعان ما لاح بريق الأمل أمامه حين ثار الشعب الجاليقي ضد الملكة أوراكا لسبب صلحها مع زوجها، فطلب الجالقة من الكونت هنري التعاون معهم ضد الملكة، فلبى النداء وانضمت القوات البرتغالية بقيادته إلى جيش الجاليقي تحت قيادة بدرو فرويلز دي ترابا Pedro Froilaz de Trava، وفرض الحصار حول قلعة "ساهوجون" ولكن قد انفك الحصار بدون إنجاز.[1]

وأعادت أوراكا النظر في سياستها، وبعد إدراك الخسارة المحتملة قررت التخلى عن تأييد زوجه وانضمت إلى حزب ابنها في جاليقية، ولما علم الملك ألفونسو المحارب بذلك استعد للهجوم عليها واستولى على قلعة منشون Manzon، وأسرها في دسمبر عام 1111م، ثم أطلق سراحها بعد هدنة بين الطرفين، وتلت أحداث عديدة فيما بعد بشكل سريع، وحاول الطرفان ضم الكونت هنري إلى حزبهما وفكر هنري في

[1] محمد محمود أحمد النشار، تأسيس مملكة البرتغال: السياسة الخارجية لألفونسو هنريكيز ملك البرتغال,ص41-46.

هذا الأمر وأعاد حساباته مرة أخرى نظرا إلى صالح الكونتية البرتغالية فآثر الانضمام إلى فئة الملكة أوراكا.[1]

وبدأت المعارك الحربية بين الطرفين عام 1112م، وحاصر الملك ألفونسو المحارب قلعة الملكة أوراكا، ولكن بعد وصول نجدة من الكونت هنري أجبر المحارب على رفع الحصار، وفي هذه الفترة عند ما كان هنري مشغولا بالحروب الأهلية في قشتالة وليون قد تهيأت للمرابطين الفرص لجمع شملهم فاستعدوا لمواجهة القوى المسيحية في إسبانيا، وفي مقدمتها البرتغال. وقاد علي بن يوسف الحملة ضد القوى المسيحية لاسترداد مدينتي شنتره وشنترين، وفاز بالاستيلاء عليهما عام 1109م، بإثارة العرب المقيمين في شنتره ضد الحامية المسيحية، ولكنه سرعان ما تمكن هنري البرجوني من إخماد الثورة، واستولى على المدينة مرة أخرى نفس العام. وأما المرابطة فواصلوا جهودهم ضد المدن المسيحية في أسبانيا.

سار سير بن أبي بكر بجيش كبير إلى نهر تاجة للاستيلاء على مدينتي شنتره وشنترين واستطاعت قوات سير بن أبي بكر الاستيلاء على هاتين المدينتين. وفي هذه الأثناء شغلت هنري الحروبُ الأهليةُ وتمردُ السكان في بعض أنحاء كونتيته عن مواجهة القوات المسلمة، وقد اكتفى سير بن ابي بكر بالاستيلاء على المدينتين، وعاد أدراجه. وعندئذ قرر هنري تأجيل الموجهة مع المسلمين لوقت آخر، ولكن القدر لم

[1] محمد محمود أحمد النشار، تأسيس مملكة البرتغال: السياسة الخارجية لألفونسو هنريكيز ملك البرتغال,ص47.

يمهله، إذ وافته المنية في "استورقة" في 30 من أبريل عام 1112م. وترك خلفه ابنه الصغير ألفونسو هنريكز ولم يناهز بعد ثلاثة أعوام من عمره.[1]

واستولت دونيا تريزا على حكم كونتية البرتغال بصفتها وصية على ابنها الصغير الأمير ألفونسو هنريكز، وكانت شبه الجزيرة الإيبيرية وقتذاك تعج بالفوضى والاضطرابات الناجمة عن استمرار الحروب الأهلية وكثرة الأحزاب السياسية بها، فكان هناك ثلاثة أحزاب متعارضة؛ الأول يؤيد ملك أرجوان وهو أشدها قوة بسبب سيطرته على أهم حصون قشتالة، والحزب الثاني ينضوي تحت لواء الملكة أوراكا ويؤازره معظم رجال الدين في قشتالة وليون وجليقية، أما الحزب الثالث فهو حزب الأشراف المعارض لحكم الملكة وزوجها ملك أرجون، ويريد أن يسند حكم قشتالة إلى الملك الطفل ألفونسو ريموند، ملك جليقية.

وسلكت دونيا تريزا على نهج سياسة زوجها الكونت هنري البرجوني، فتحالفت مع أختها أوراكا ولكن وقع الخلاف بينهما فيما بعد، وفي أثناء ذلك أعلن أسقف الكنيسة ببطلان عن زواج أوراكا وألفونسو المحارب للقرابة الشديدة بينهما، فانتهزت دونيا تريزا هذه الفرصة لتوسيع الشقاق بينهما، فأثارت الشكوك في قلب أحدهما لآخر، ولكن ألفونسو المحارب رفض هذا القرار من الأساقفة، وأعلن الحرب على قشتالة ونجح في الاستيلاء على ولاية " ريوخا"، وواصل زحفه إلى الجانب الشرقي من مملكة قشتالة ولكن الملكة أوراكا لم تواجه هذه الحملة بسبب

[1] Richard F. Burton, Camoens his life and Luciad, p211

صراعها مع أنصار الحزب الجليقي، وكانت تريزا تراقب هذه الأحداث عن كثب لكي تتخذ إجراءات مناسبة لصالح كونتية البرتغال. وتنافس الطرفان المتنازعان لكسب تأييد "تريزا" لهما، فوفر ها هذا التنافس فرصة لتقديم الشروط لاستمالة البرتغال إلى جانبه، ورجح ميلها إلى جانب أختها أوراكا التي أنعمت عليها بلقب ملكة البرتغال في أحد احتفالات عام 1115م.[1]

والأحداث الأخيرة التي شهدتها شبه الجزيرة الإيبيرية قد شجعت المرابطين كثيرا واشتدت هجماتهم على الممالك المسيحية الأسبانية بدءا من عام 1116م، وهاجموا المدن المسيحية، لقد ركز علي بن يوسف اهتمامه على هجوم البرتغال دون غيرها من الممالك المسيحية الأخرى، لأن الاستيلاء عليها سيكون أمرا أيسر بسبب انشغال حاكمتها دونيا تريزا بالحروب الأهلية، وأعد قواتٍ كبيرةً من المسلمين في أنحاء شبه الجزيرة الإيبيرية، وتوجه إلى التاجة مارا بلشبونة وشنترين ثم توغل في أراضي البرتغال حتى وصل إلى مدينة قلمرية وحاصرها، وعند ما وصل خبر تحرك جيش المرابطين إلى دونيا تريزا أسرعت إلى قلمرية واستعانت بحلفائها الجليقيين خاصة الكونت فرديناند بيريز لمساعدتها وأعدت ووسائل الدفاع عن المدينة، وعند ما أدرك علي ين يوسف صعوبة اقتحام المدينة اضطر إلى فك الحصار، وعاد مرة أخرى إلى إشبيلة.

[1] محمد محمود أحمد النشار، تأسيس مملكة البرتغال: السياسة الخارجية لألفونسو هنريكيز ملك البرتغال,ص48-52.

وخلال هذه الفترة شاهدت كونتية البرتغال تطورات عديدة وتعرضت لخطر كبير بسبب عشق دونيا تريزا مع الكونت فرديناند بيريز الجليقي، لقد ذكر كاموئنس هذا الواقع في شعره واستنكر حب تريزا استنكارا، ووقف رجال الدين المسيحي في البرتغال ضد تريزا، وكذلك طالب عامة الشعب بإنهاء العلاقة الأثيمة بين تريزا وفرديناند، ولكن تريزا لم تصغ إلى مطالباتهم ومضت بعلاقتها غير الشرعية.

أما الغارات التي وجهها المرابطون ضد الممالك الأسبانية فأدت دورا مهما في تهدئة الأمور بين بعض الممالك المسيحية، وتوقفت الحروب الأهلية بين أوراكا والملك ألفونسو المحارب بعد أن رضي كل منهما بما تحت يديه من ممتلكات في شبه الجزيرة الإيبيرية، وفي نفس الوقت حدث تقارب بين الملكة أوراكا وأعضاء الحزب الجليقي واتفقت أوراكا معهم على الهجوم ضد كونتية البرتغال لاستعادة منطقتي توى وأورنس، فحدثت معارك بين أوراكا وتريزا، وفازت أوراكا بالانتصار على أختها، وما لبثت أوراكا أن وافتها المنية في مارس عام 1126م، وخلفها ابنها ألفونسو السابع، ومع تولية الحكم إنه ورث كثيرا من القضايا والمشاكل من أهمها سخط بعض فئات الشعب وتمردهم ضده في مناطق مختلفة، وبعد إطفاء التمرد، قرر الملك ألفونسو السابع باتخاذ الإجراءات لإخضاع تريزا لطاعته فزحف بجيش قوي في ستمبر عام 1127م، وكانت دونيا تريزا مستعدة لحملة محتملة من جانب ألفونسو السابع، التقى الجيشان ودارت رحى الحرب واستمرت المعركة لستة أسابيع، وانتهت المعركة بانهزام تريزا وأرغمت على التنازل عن مناطق توى وأورنس واعترفت التبعية

الإقطاعية لألفونسو السابع. ولكن ألفونسو لم يطمئن بهذه التطورات لأن ابن تريزا ألفونسو هنريكز كان صاحب الحق الشرع في الحكم وكان على وشك البلوغ السن القانوني لتولية الحكم. وكان يستهدف ألفونسو السابع ضمان الولاء والطاعة من جانب ألفونسو هنريكز، فتوجه بجيشه إلى جويمارس Guimaraes، مقر الأمير ألفونسو هنريكز وفرض الحصار حولها لفترة طويلة حتى اضطر إيجز مونيز Egaz Moniz، الوصي على الأمير منذ طفولته، إلى قبول كل شروطه وقدم زوجته وأولاده ضمانا لتنفيذ وعده، فرفع الحصار.[1]

وكانت كونتية البرتغال تجتاز بدور مضطرب إذ أخذت الأمور تتحول ضد دونيا تريزا بصورة سريعة، وازداد تذمر النبلاء ورجال الدين ضدها، والتفوا حول الأمير ألفونسو هنريكز كما بلغ الأمير الثامنة عشر من عمره عام 1128م، وأصبح مؤهلا لأن يتولى الحكم. لذلك طالب النبلاء ورجال الدين دونيا تريزا بالتنازل عن الحكم لابنها حيث قد رفعت وصايتها عليه، فامتنعت عن التنازل، واضطر النبلاء إلى حث الأمير على الاستيلاء على الحكم بالقوة، فجهز جيشا قويا وجمع كثيرا من النبلاء البرتغاليين وعلى رأسهم ايجز مونيز، وتوجهوا جميعا بقيادته إلى قلعة ساو مامدي Sao Mamede بمدينة جويمارس حيث أقامت دونيا تريزا وجمعت قواتها من بعض البرتغاليين ونبلاء جليقية وليون، وتلاقى الفريقان صباح 22 يونيو عام 1128م في معركة شديدة انتصر فيها ألفونسو هنريكز على أمه. ويقال إنها وقعت في الأسر

[1] Richard F. Burton, Camoens his life and Luciad, p212

ومعها الكونت فرديناند دي ترابا وسجنا معا في قلعة "لانسو"، وكانت دونيا تريزا قد أرسلت رسالة سرية إلى ابن أختها تستنجد به، فاستجاب الملك ألفونسو السابع ودخل أراضي البرتغال بحجة العمل على إنقاذ خالته تريزا، ولكن هذا التدخل من جانب ألفونسو السابع في شؤون البرتغال لم يكن يهدف نجدة تريزا، وإنما هدف بفرض الضغط على ألفونسو هنريكز ليقر له بالتبعية الإقطاعية، ولكن قد انقلب الأمر هذه المرة تماما حيث رفض هنريكز سيادة مملكة قشتالة على كونتيته. ونفى أمه وعشيقها إلى جليقية نظرا إلى الأخطار الناجمة في المستقبل، فبقيت تريزا هناك حتى وفاتها في 1 نوفمبر سنة 1130م، ودفنت بجوار زوجها هنري البورجوني.[1]

يعد ألفونسو هنريكز من الشخصيات البارزة في شبه الجزيرة الإيبيرية وأعظم الفرسان آنذاك، لقد قام "ايجز مونيز" بتربيته تربية كافية كما عينه أبوه هنري البورجوني وصيا على تربيته في صباه، وواصل إيجز مونيز تربيته بعد وفاة هنري وأخذ ينمي فيه كل الصفات التي تؤهله لوراثة الحكم حتى أصبح ماهرا في كل الفنون الفروسية ومتدربا على أساليب فنون الحرب والقتال، فتم تعميده فارسا عام 1224م، وكان محبا للشعر والرومانسية والأخبار الفروسية، وعلاوة على ذلك كان نموذجا للرجل المسيحي في التعصب لدينه.

[1] محمد محمود أحمد النشار، تأسيس مملكة البرتغال: السياسة الخارجية لألفونسو هنريكيز ملك البرتغال,ص56-60.

وقد دارت سياسة ألفونسو هنريكز حول الجبهات الثلاثة؛ هي إنهاء سيطرة مملكتي قشتالة وليون على كونتية البرتغال وفصلها عنهما، وتوسيع رقعة حدود البرتغال على حساب جيرانها المسلمين، وتحويل كونتية البرتغال من إمارة إلى مملكة. وخاض هنريكز حروبا ضروسة مع الملك ألفونسو السابع وفرديناند الثاني لإنهاء تبعية دولته عن مملكة قشتالة وليون، لقد أدت هذه الحروب دورا ملموسا في وضع أسس الاستقلال وتأسيس مملكة البرتغال، وفي نفس الوقت اعتنى بعناية خاصة تجاه توسيع حدود البرتغال على حساب البلدان الإسلامية المجاورة التي قد بدأت تتداعى أركانها، وخاض في معارك كثيرة وطويلة في تحقيق هذا الغرض، وفوض إليه لقب أكبر محارب صليبي في شبه الجزيرة الإيبيرية بسبب موقفه الشديد تجاه المدن الإسلامية، وامتاز من الملوك الأوربيين الآخرين بقتاله وصراعه المستمر ضد المسلمين، لذلك قد اعترفت البابوية به كملك وبالبرتغال كمملكة مستقلة بذاتها بدون التبعية لقشتالة أو ليون.[1]

لقد استأنف هنريكز سياسة محاربة وأخذ يهاجم المسلمين بصورة منظمة، وكان العرب والمرابطون يحتلون حتى الآن المدن المهمة في جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية مثل غرناطة وقرطبة ولشبونة وغير ذلك، لقد بدء انهزام المسلمين بمعركة حفل أوريك Compo De Ourique.

[1] محمد محمود أحمد النشار، تأسيس مملكة البرتغال السياسة الخارجية لألفونسو هنريكز ملك البرتغال، ص222

كذلك استمرت البرتغال تتقرب إلى الاستقلال بصورة تدريجية كما عرض ألفونسو هنريكز نفسه كملك للبرتغال، وجعل يصر على استقلالها من ليون منذ عام 1179م، حتى لقبه السفراء البابويون بلقب ملك البرتغال، وبعد الانتصار على القوة المسلمة بمعركة أوريك عام 1139م، زحف إلى حدود نهر تاجة، ثم عكف على ضم الأراضي الواقعة بجنوب تاجة إلى حكمه.

أما البلاط الأول فقد أنشئت عام 1211م. وفي البداية كان حق النيابة مقتصرا على الطبقة من الأعيان ورجال الدين، ولكن الملك دينس Dinis منح طبقة التجار امتياز النيابة في البلاط، وذلك يدل على اهتمام البلاط بتطوير التجارة في مملكة البرتغال. ونقلت عاصمة المملكة إلى لشبونة وبقيت المدينة عاصمة البرتغال منذ القرن الثالث عشر، وأنشئت الجامعة الأولى هناك عام 1290م، وسرعان ما نقلت إلى كويمبرا فيما بعد. وخلال حكمه قام دينس Dinis بإصلاح الأراضي الزراعية وغرس أشجار الصنوبر، وحفرت المستنقعات لري الحقول، فازدهرت الزراعة في حكمه ازدهارا. وإنه وطد العلاقات التجارية مع فرنسا وإنجلترا وغير ذلك من الممالك المجاورة كما أن قمع مفاسد رجال الدين، ولكنه عمل في صالح المسيحية والكنيسة، وقام ببناء كنيسة في ذكرى زوجته حيثما دفن بعد وفاته في 7 يناير عام 1325م.

وخلفه ألفونسو الخامس، إنه قام بإصلاح الأمور الداخلية وساعد عامة الناس ضد القوي الإقطاعية في المجتمع البرتغالي، وخاض في معركة مع المسلمين في موقع تريفا Tarifa، انتصر فيها البرتغاليون المسيحيون على المسلمين، لقد فقد

المسلمون كثيرا من الدماء، ذهب ضحية هذه الحرب ألوف من الجنود المسلمين، وإزاء حرب تريفا وقع حادث قتل دونيا إجنيس دي كاسترو D. Ignez de Castro، زوجة دوم بيدرو، فلجأ بيدرو إلى العصيان والتمرد بعد هذا الحادث كردة فعل، وعزم على ثأر بقاتلها وأخذ يستهدف القوى المسؤولة عن القتل، ثم قام الأسقف بمصالحة بينه وبين ألفونسو، فما لبث أن توفي ألفونسو عام 1356.[1]

لقد استولى دوم بيدرو "الظالم" على زمام الحكم، ومضى يكبح جماح أولئك الذين شركوا في قتل زوجته إجنيس دي كاسترو Ignes de Castro، ثم قام بعقد حفلة تكريم بحيث أخرج جثة زوجته من القبر بعد سبعة أعوام، فأكرمها بامتياز الملكة وقام بتتويجها بصفتها ملكة، وأمر أصحاب البلاط بتقبيل يدها احتراما لها، ثم أعادها في قبر بني من الرخام. ثم عكف على الإصلاح السياسي والاجتماعي، إنه كان أديبا لقد ترك أعماله الشعرية باللغتين البرتغالية والإسبانية التي رثى فيها زوجته، وتوفي في 18 يونيو عام 1367م.[2]

قد تولى الحكم بعده فرديناند الأول Ferdinand I، إنه قام بتشييد الجدار حول مدينة لشبونة وتحصين إيورا Evora، وذهب أن ادعى حقه على قشتالة وألح ادعاءه، فنشبت الحرب بينه وبين ملك قشتالة، وسرعان ما استقر الأمن بعد أن تدخل الأسقف جراجري Gregorry للمصالحة بينهما، وتزوج فرديناند من دونيا إليانور القشتالية D. Eleanor بمقتضى قرار الأمن، فما لبث أن وقع في حب دونيا

[1] Rechad F. Burton, Camoens his life and Lusiads, p230

[2] Rechad F. Burton, Camoens his life and Lusiads, p233

ليانور، ودفعت علاقته الغرامية هذه إلى طلاق زوجها جون لارنسو دي كونية Joam Larenco de Cunha. وفضلا عن ذلك إنه تحالف مع أعداء دوم هنريك ملك قشتالة، ذلك ما أثار حفيظة هنريك، فحاصر لشبونة وقام بتدمير وعنف، فتقدم البابا وتوسط باتفاقية الهدنة. ولكن فرديناند لم يغفل عن الحرب ومضى يستعد لها ويجمع القوة، واستنجد من إنجلترا بهذا الصدد وهاجم قشتالة بجيش قوي، والتقي الجيشان بموقع ما بين إلواس Elvas وبداجوز Badajoz، ولكنه ذاق مرارة الهزيمة وأرغم على توقيع معاهدة السلام مرة ثالثة، إنه مات في 22 أكتوبر سنة 1383م.

وتركت وفاة فرديناند الخواء بين القوى السياسية الذي دفع مملكة البرتغال إلى الاضطراب والفوضى، وتولت دونيا ليونار زمام الحكم حسب وصية زوجها فرديناند. وبسبب عدم وجود الوريث الذكر قد منع الحواريون التحالف معها وأشاعوا الخبر بكون بنتها غير شرعية، وفي أثناء ذلك نهض القائدان الأخريان يدعيان حقهما على العرش، فوقع الشجار فيما بينهم وهاجم "دوم جون الأول" من قشتالة على البرتغال لفرض سيطرته عليها، و غلى الرغم من معارضة البابوية إنه عين ملكا إزاء موافقة الشعب البرتغالي العام.[1]

يعتبر "جون الأول" مؤسس مملكة البرتغال في الحقيقة، إنه واجه الحملات القشتالية في بداية الحكم حيث شن الأسبان الهجوم على البرتغال بأسطول حربي

[1] Rechad F. Burton, Camoens his life and Lusiads, p238

وجيش يشمل حوالى 90 ألف جندي تحت قيادة الملك القشتالي بنفسه، فقاوم البرتغاليون مقاومة عنيفة، قاد دوم نونو D. Nono جيشا يشمل 11 ألف جندي، والتقي الجيشان في 14 أغسطس عام 1385م، بموقع الجبروتا Agjubarota. لقد نزلت حرب الجبروتا على الإسبان بما نزلت حرب أوريك على المسلمين. وعلى الرغم من ذلك قد اعترف "جون" بالتفوق القشتالي وحصل على الإعفاء وتزوج من فيليبا Philipa ابنة لانكاستر lancaster، والتحق لانكاستر بجيش صهره وهاجم على ليون.

قد اعتني جون الأول بالتجارة الخارجية والتطورات الداخلية مثل الزراعة والعمارة عناية خاصة، وتطورت البرتغال خلال حكمه تطورا حتى تحولت الأوضاع كليا، حيث صار الفاتح بالأمس مفتوحا اليوم، وطارد البرتغاليون المسلمين إلى المغرب كما أمر جون الأول بالإبحار إلى المغرب وأرسل أبناءه الباسلين للهجوم على مدينة سبتة Ceuta، فانتصر البرتغاليون في هذه الحملة، واستوا على مدينة سبتة في 15 أغسطس عام 1415م. توفي جون عام 1433، بعد أن قضى 48 سنة على العرش، إنه قدم خدمات جليلة وقام بتحرير البلاد من كل التبعية حتى أصبحت البرتغال مملكة مستقلة، وطور البحرية البرتغالية ومهد الطريق إلى الاكتشافات البرتغالية في المستقبل.[1]

وتولى الحكم بعده دوم دوارتي D. Duarte، إنه كان مولعا بالاكتشافات والتوسيع كمثل أبيه، قد أقنعه أحد الأمراء بانتهاك معاهدة الأمن مع المسلمين في

45[1] Rechad F. Burton, Camoens his life and Lusiads, p2

المغرب لشن الهجوم على طنجة Tangier، فاستعد لهذا الغرض وفوض قيادة هذه الحملة إلى دوم هنريك، فقاد هنريك المهمات الملاحية البرتغالية وجهز السفن الحربية وخصص لهذا الغرض موارد مالية خاصة، وفي أثناء ذلك قد حان وقت وفاة دوم دوارتي في 19 من ستمبر عام 1438م.

لم يكن يناهز "أفونسو الخامس" السادس من عمره حين توفي أبوه، فرفض قومه اعتراف وصاية أمه عليه بصفتها خارجية، فانتقل الحكم إلى عمه بيدرو الذي حكم لعشر سنوات. وفي عام 1448م، تزوج أفونسو من دونيا إيزابل D. Isabel ابنة عمه بيدرو الذي كان يواجه التهمة بدسائس الأمراء، ثم ثبتت جريمته فيما بعد، فتقدم أفونسو الخامس لحل القضية نظرا إلى استقرار الأمور.

فما وافت السنة 1463م حتى توفي الأمير هنري الذي قام بخدمات جليلة تجاه توسيع حدود المستعمرات البرتغالية، وظل نشيطا لهذا الغرض لمدة أربعين سنة، ومع ذلك لم تتوقف مسيرة الفتوحات البرتغالية، بل تواصلت الفتوحات في أفريقيا بدون توقف إلى أن سقطت طنجة Tangier وأنافي Anafe وأصيلة Arzilla في حوزة البرتغاليين عام 1471م. وهناك نشبت الحرب بين أسبانيا والبرتغال التي انتهت بمعاهدة القنطرة Alcantara. قد تنفس أفونسو أنفاسه الأخيرة في 27 من أغسطس عام 1481 بعد أن حكم مدة 43 عاما.[1]

[1] Rechad F. Burton, Camoens his life and Lusiads, p255

لقد تولى الحكم بعد أفونسو جون الثاني، يعتبر عصره بداية العصر الحديث في التاريخ البرتغالي حيث إنه قام بالإصلاح الاقتصادي وألغى القوانين الإقطاعية، واهتم لتوسيع الإمبراطورية البرتغالية اهتماما بالغا، وأرسل بعثة بحرية بقيادة البحار بارثولوميو دياز Bartholomeu Dias للاستطلاع على الامكانات عن الطريق إلى الهند عبر أفريقيا، فخرج دياز وظل غائبا لمدة سبعة عشر شهرا، ورجع بالمعلومات المدهشة في عام 1487م، وازداد جون الثاني تحمسا في طموحه بعد اكتشافات كولمبس، واختار إستيوام دي جاما Estevam de Gama أحد شرفاء مدينة ألمتيجو Alemtejo لهذا الغرض. هناك وقع الشجار بين المملكتين البرتغال وأسبانيا بسبب ادعاء البرتغال حقها على جزر الهند الغربية التي اكتشفها كولمبس حاليا، وانتهت الخصومة بالتوقيع على اتفاقية توردیسیلاس Tordesillas عام 1494، وفي العام التالي لقي جون الثاني حتفه بأثر السم.[1]

لقد تولى الملك إمانويل زمام الحكم بعد وفاة جون الثاني، إن عهده مليء بالمغامرات والمعارك في آسيا وأفريقا، وما زالت القوات البرتغالية مشغولة بالصراعات خارج أوربا خاصة في المياه الخليجية والهندية، ولم يخض إمانويل في أي معركة في حدود أوربا سوى حملة قام بها لمساعدة ونسي Vince ضد الأتراك، وركز جل عنايته على اكتشاف الهند، إنه احتفظ الدراسة والبحوث التي قام بها سلفه، واستغل تدابير مهمة الاكتشاف أحسن استغلال، وبسبب وفاة إستيوام Estevam

[1] Rechad F. Burton, Camoens his life and Lusiads, p262

قد تحولت قيادة هذه المهمة إلى ابنه فاسكو دي جاما. وفي عام 1498م بدأت الحملة بقيادة فاسكو دي جاما ومضت تبحر حول أفريقيا ووصلت إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، Cape of Good Hope ورسا فاسكو دي جاما المرساة بميناء "كاليكوت" في 19 من مايو عام 1498م.

لقد دفع اكتشاف الهند إلى اكتشاف البرازيل، وترفعت البرتغال إلى عظمة لم يسبق لها مثال في تاريخ العالم. كانت آسيا آنذاك مصدرا مهما للتوابل التي كانت مطلوبة عند أوربا بأغلى ثمن، فأخذ البرتغاليون يستوردون هذه التوابل إلى أنحاء أوربا عن طريق مائي حديث الاكتشاف.

التطور الاقتصادي:

كانت البرتغال تستهدف السيطرة على الطرق التجارية المهمة في الخليج العربي التي كانت خاضعة لحكم المماليك في تلك الفترة، ونجحوا في السيطرة على منافذ تجارة الشرق في الخليج العربي والبحر الأحمر، وتمكنوا من التحكم بمضيقي هرمز وباب المندب، وساعد البرتغاليين في هذا الصدد تشتت القوى الإسلامية في المشرق؛ وكثرة الصراعات والحروب بينهم، وأتاح لهم الفرصة لتنفيذ خططهم الاستعمارية وفرض سيطرتهم في المنطقة، وبعد نجاح البرتغاليين في اكتشاف رأس الرجاء الصالح ووصولهم إلى الهند في مطلع القرن السادس عشر الميلادي؛ عكفوا على الحكم بالطرق المائية عبر المحيط الهندي والخليج العربي، والبحر الأحمر، وأصبح الخليج العربي وجنوبي الجزيرة العربية مجالين للتنافس الاستعماري في

النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، وحدثت صراعات بين القوى العربية في الخليج والقوة البحرية البرتغالية، و اتخذالبرتغاليون وسائل القرصنة والإرهاب لإخضاء العرب لنفوذهم، فإن سيطرتهم على طرق التجارة المائية دفعت إلى توسيع نفوذهم إلى سواحل الخليج العربي وجنوب شبه الجزيرة العربية وإلى المناطق الأخرى من آسيا وأفريقيا.

عند ما استولى البرتغاليون على مدينة سبتة Ceuta في المغرب عام 1415م، تفتحت لهم أبواب النجاح والفوز لتأسيس إمبراطورية استعمارية برتغالية، لقد مهد هذا الانجاز طريق توسيع الفتح البرتغالي في الساحل الأفريقي الغربي، ونظرا إلى الموقع الجغرافي للأراضي المفتوحة أخذت البرتغال تحاول سيطرتها على الطرق التجارية من المحيط الأطلنطي إلى الصحراء الكبرى الأفريقية، لأن الرسوم الجمركية المكثفة كانت تثقل كواهل الاقتصاد البرتغالي، وتمثل عبئا على السفر بطرق التجارة عبر شمال إفريقا وصولا إلى جنوب أوربا.

ولم يمض إلا قليل حتى استولى البرتغاليون على جزر ماديرا Madeira عام 1420م، و جزر الأزور Azores عام 1439م، وجزر كاب فيردي Cabo verde في العقد السادس من القرن الخامس عشر. وقد ركزت البرتغال عنايتها على تجارة المواد الأساسية مثل الأخشاب والسكر والسمك والقمح بدلا عن البحث عن الذهب، فأخذ الاقتصاد البرتغالي يزدهر، وقد أدى هذا إلى إعادة تحديد أهداف الاستكشاف البحري والاستيطان من جانب التاج البرتغالي، وبعد أن استحكم حكم البرتغاليين في

جزر الأزور استأنفوا بالإبحار جنوبا إلى أقاليم لا تقع على أي خريطة أو ما يطلق عليه حسب خريطة بطلموس الأقاليم المجهولة. وعندما وصل البرتغاليون إلى أقصى حدود الملاحة المعروفة في منطقة البحر المتوسط استعانوا بخدمات العلماء اليهود لوضع جداول شمشية، وخرائط نجمية، أسطربالات، وأدوات الربعية، وعصي الملاحة لحساب دوائر العرض حسب موقع الشمس والقمروالنجوم، وباستهلال ثمانينات القرن الخامس عشر، أصبحت هذه التطورات الاستكشافية ناجحة إلى حد أن البرتغاليين أبحروا حول سيراليون، وقاموا بتأسيس مواقع تجارية على سواحل غينيا.[1]

لقد تركت المواجهات التجارية الناتجة عن تلك التطورات أثرا ملحوظا على ثقافة واقتصاد المجتمعات في غرب أفريقا والبرتغال وبقية أراضي أوربا، فاختلاط الناس أدى إلى خلق مجتمعات مستقلة مختلط الأجناس في غرب أفريقيا، والتي كان يطلق عليها اسم " لانسادو". وكان يجري مقايضة النحاس والخيول والقماش مقابل الذهب والفلفل والعاج والأبنوس. وبنهاية القرن الخامس عشر تمكنت البرتغال بفضل الذهب الذي شحن إلى لشبونة، من إصدار عملتها الذهبية الأولى " الكروسادو" Crosado، كما شرعت في تنفيذ برنامج بناء عام طموح كان يستوعب العناصر الأساسية الكلاسيكية والمغولية والفارسية، والتي تتضح آثارها حتى اليوم على امتداد لشبونة وغوا ومكاو.

[1] جيري بروتون، عصر النهضة ، تعريب: إبراهيم البيلي محروس ص 79

وفي ديسمبر عام 1488م، عاد بارثولوميو دياز Batromoleu Dias إلى لشبونة، وجاء بالمعلومات المدهشة عن أخبار البحر، وأفاد بأنه قد أبحر حول الطرف الجنوبي الأقصى من أفريقيا، وأفاد عالم جغرافي برتغالي معاصر بأن دياز كان يرى أن الساحل في هذه النقطة كان يتجه إلى الخليج الغربي ، مقدما بذلك أملا عظيما لاكتشاف الهند، وعلى أساس هذا الرأي أطلق دياز على تلك المناطق التي كانت أقاليم مجهولة عند بطلموس "رأس الرجاء الصالح". وبهذا الخبر أصبحت الخرائط المطبوعة التي لاتزال تعيد انتاج رؤية بطلموس عن العالم قديمة ومهجورة بصورة متزايدة.[1]

لقد اتسع نطاق السيطرة البرتغالية مع اكتشاف فاسكو دي جاما Vasco de Gama الطريق البحري إلى الهند، لقد واجه البرتغاليون مقاومة عنيفة عند وصولهم إلى سواحل الهند، ففي سبيل بسط سيطرتها في المنطقة، بدأت القوات البرتغالية بحملات قاسية ووحشية جدا ضد الشعوب المستعمرة في آسيا وأفريقيا على حد سواء، وخاصة بعد تولية القائد البرتغالي ألبوكيرك Albuquerque على زمام حكم المستعمرات عام 1509م، إنه مضى ينفذ الخطط الاستعمارية بكل ظلم وقساوة، واستحكمت أقدام البرتغاليين في مياه الهند حتى استولوا على غوا سنة 1510م. كذلك عظمت تجارتهم من الهند فكانت الرحلة التي تتكلف 4000 جنيه بما فيها ثمن السفينة تباع حمولتها وحدها بمبلغ 15000 جنيه، ولكن البرتغاليين لم يكتفوا بهذا

[1] جيري بروتون، عصر النهضة ، تعريب: إبراهيم البيلي محروس ص 81.

الثراء العريض ففتحوا مالقة وجزيرة هرمز على مدخل الخليج العربي وبسطوا نفوذهم على عدن ومصوع وقمران وجابوا البحر الأحمر واستولوا على سفن مصر والبندوقية فسيطروا على المحيط الهندي ومن بعد على بحر الصين.[1]

لما تولى سواريز الحكم كنائب للملك في الهند بعد وفاة البوكيرك ، جعل يتبع سياسة جديدة تختلف تماما عن السياسة البرتغالية السابقة التي اتبعها البوكيرك، وتخمض عنها تطورات سياسية واقتصادية أدت إلى إنعاش التجارة البرتغالية، كالتجارة العربية السائدة قبل مجيء البرتغاليين، والتوقف عن السياسة السابقة التي لجأت إلى أساليب العنف المسلح.

ولتنفيذ هذه السياسة الجديدة، تم تعيين ضباط جدد لجمع الضرائب من المناطق البرتغالية مثل هرمز. وكذلك قد تحول بعض القادة العسكريين إلى تجار، لأن هذه السياسة الجديدة استهدفت إعطاء الحرية للحركة التجارية التقليدية، ولكن تحت السيطرة البرتغالية وإشرافها المباشر، للحصول على أكبر قدر من العوائد المادية.[2]

ولم تضف السياسة البرتغالية أي عنصر جديد إلى التجارة التقليدية، ولم يكن البرتغاليون سوى محصّلي الضرائب، ولم تكن الإستادو دوأنديا Estado do India سوى مؤسسة لتوزيع العنف المنظم مقابل رسوم الحماية، في حين كان

[1] أحمد زين الدين المعبر، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين ص-173.

[2] محمد حسن العيروس، سقوط الحكم البرتغالي في الخليج العربي ص15

"الكارتازة" Cartasa الأداة التي تجمع Estado do India الرسوم والضرائب بواسطتها، أي ببيعها إلى التجار وأصحاب السفن.

ويمكن القول بأنها مصاريف الحماية التي تقدمها "الإستادو دا إنديا" للسماح للتجار والسفن بالمتاجرة في المحيط الهندي، وكل من لا يحصل عليها يكون عرضة للسلب والقرصنة من قبل الأسطول البرتغالي، كما لا يسمح للسفن بمغادرة الموانئ البرتغالية إلا بعد حصولها عليها.

وتقوم السلطات البرتغالية بجانب الكارتازة بتحصيل الرسوم الجمركية على البضائع بما لا يقل عن 10%، ولهذا الغرض كان الأسطول البرتغالي يجبر السفن التجارية على التوجه إلى ميناء هرمز أو مسقط.

وقد سوغ البرتغاليون مؤسسة الكارتازة بأنها تعمل على نشر المسيحية ودورها التنصيري لقطع العلاقات والاتصالات فيما بين المسلمين في الشرق، وللضغط الاقتصادي على العثمانيين.[1]

وظل البرتغاليون يسيطرون على هذه المناطق حوالى قرن ونصف قرن يكسبون خلالها في كل سنة من الهند مليونا ونصف مليون ديوك ذهبا يبعثون بثلثها إلى لشبونة، فاثرت ثراءا فاحشا، وازدهرت بلدان شواطئ المحيط الهندي والاطلسي في حين ركدت ثغور البحرين الأبيض والأحمر وكان لركودها أسوأ الأثر في حياة الشرق الأدنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية و أحسن أثر في النهضة الأوربية.

[1] محمد حسن العيروس،سقوط الحكم البرتغالي في الخليج العربي ص17

الفصل الثاني

حياة كاموئنس و خدماته

نسبه وأسرته:

في بداية القرن السادس عشر أقامت أسرة كاموئنس في البرتغال، مع فروعها في "كويمبرا" Coimbra و "إيفورا" Evora، يرجع نسب كاموئنس إلى أسرة عريقة إسبانية قصدت إلى "كادمن" وأقامت بقصر من قصور "غاليسيا" Galicia. يرجع أصل هذه الأسرة إلى فاسكو بيريز دي كاموئنس الذي ينتمي إلى أسرة جاليقية نزلت "بفينيستير"، المنطقة البعيدة التي كانت تسكنها أعراق مختلفة كثيرة.

كان فاسكو بيريز دي كاموئنس Vaco Pirez de Camoens يشتغل فارسا في جيش الملك بيدرو القاسي Pedro the Cruel، وبعد هزيمة بيدرو وموته في حرب بمونتيل Montiel عام 1369م، إنه قصد إلى البرتغال، وأقام هنا بقية حياته، ومضى يلعب دورا بارزا في الحرب والسلم كفارس، وكذلك أدى دوره كشاعر بعد أن لحق بالحاشية الملكية. ثم إنه شارك في حرب وقعت بين الملكة ليانور Lianor وقشتالة عام 1385م، واختفى اسمه من السجلات بعد عام 1386م ولم نعثرعلى ذكره فيما بعد.[1]

واستقر ابنه، جون John في كويمبرا وعاش هنا حياته، ودفن في كاتدرائية كويمبرا، ولا توجد المعلوات عن حياة جون. وتزوج أنتاو فاز دي كاموئنس Antao Vaz

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p1

de Camoens ،نجل جون، من السيدة جويومار فاز داجاما D. Guimar Vaz da Gama، أصلها من مدينة الغرب، وهي تنتمي إلى أسرة فاسكو دي جاما. ويبدو أنه مازال يقيم في كويمبرا، حيث ولد ابنه ،سيماو فاز دي كاموئنس Simao Vaz de Camoens، في الربع الأخير من القرن الخامس عشر.

وفقا لمدونات فريئ نيكولو دي سانتا ماريا Frei Nicolau de Santa Maria، أن شقيقه أصغر، بينتو Bento، أصبح رئيسا لدير سانتا كروز Santa Cruz في كويمبرا لمدة عامين 41-1539م، قد لعب انتساب بينتو هذا إلى الدير دورا هاما في تحديد بعض الحقائق لسيرة لوئس دي كاموئنس،[1] واستخرج منه الكتاب من أهمهم الدكتور براغا Dr. Braga والدكتور ستورك Dr. Storck، المعلومات الكثيرة عن حياة الشاعر المبكرة استغلالا هذا المصدر.

وفقا لمخطوطة قام بها فراي غابرييل Frei Gabriel، أن فري نيكولاو Frei Nicolau اختلط بكاهن متواضع من سانتا كروز ربما لا ينتمي إلى أسرة كاموئنس. وأغلب الظن أنه قد يكون الكاهن الذي توفي في سن مبكر، وكان عمره نفس عمر لويس فاز دي كاموئنس(Luis Vaz De Camoens) ابن سيماو فاز دي كاموئنس(Simao Vaz de Camoens)، وأنا دي ماسيدو. ويبدو أن لوئس فاز دي كاموئنس هو الطفل الوحيد لهما، وولد في الثلث الأول من القرن السادس عشر.[2]

[1] Theophilo Braga, Camoes e o sentimento nacional, p4.

[2] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p3.

كان الكاهن بينتو Bento هو ابن عم للشاعر، وينتمي إلى فرع أسرة كاموئنس المستقرة في كويمبرا، و كانت هذه الأسرة من إحدى العائلات الرئيسية في تلك المدينة، وخلاصة القول إن هذه العلاقة قد أدت دورا رئيسيا في تحقيق المعلومات عن حياة الشاعر حيث وفرت مدونات الكنيسة المعلومات عن الكاهن بينتو وأسرته.

مولده ونشأته:

لا يعرف مكان ولادة الشاعر على وجه اليقين وكذلك لم يتم تحديد سنة مولده بالضبط، وهناك ادعاءات لمدن مختلفة بكونها مسقط رأس كاموئنس.[1] ووافق فاريا اي سوزا ادعاء سانتاريم Santarem، ولكن بدون أساس أكثر وثوقا من ألنكير، وتم تصديق الادعاء الأخير من قول كاموئنس Patria mainha Alenquer "وطني ألنكير" عندما أخرج من سياقه. وهناك مدينتان أخريان يدعي بكونهما مسقط رأس كاموئنس، هما لشبونة و كويمبرا. وجاء بيانان معاصران في هذا الصددیعارضان كليا.

في عام 1607م ادعى دومينغوس فرناندیز Domingos Fernandes، صاحب المكتبة لجامعة كويمبرا، خلال نشر كتاب كاموئنس "ريماس Rimas" بأنه ولد في كويمبرا. وادعي مانويل كوريئا Mannuel Correa في عام 1613م، بأن كاموئنس كان ولد في مدينة لشبونة للأبوين النبيلين، أما والدته أنا دي ماسيدو Anna de Macedo فكانت تنتمي إلى عائلة معروفة من مدينة سنتاريم، ولكننا لسنا متأكدين بأنها إما

[1] Richard F. Burton, Camoens : his life and his Lusiads,p3.

ولدت أو عاشت هناك في أي وقت من الأوقات. وكان والده Simao Vaz de Camoens رجلا نبيلا عاديا، خرج إلى الهند كقبطان سفينة تحطمت على شواطئ غوا، ونجا في هذا الحادث ووصل إلى غوا Goa على لوح خشبي، وتوفي هناك. إذا نعتمد على رواية كوتو Couto،بأن كاموئنس وكوتو درسا معا،فتدل القرائن إلى حق لشبونة، ولكن "دومينغوس فرناندیز" يقول إن كاموئنس عاش في كويمبرا لسنوات عديدة، ودرس هناك لبضعة أعوام، ويدعم قوله هذا ببيان من سيرة سيفيريم دي فاريا Severim de Faria.

كل ما هو معروف عن سنواته الأولى لم يستند إلى أي مصدر وثيق، بل يستدل ويستخرج من قصائده فحسب، وسنة ولادته المقبولة عند المحققين عامة هي سنة 1524م (سنةولادة رونسارد، ووفاة فاسكو دي جاما). يقول فاريا إي سوزا إنه كان في خمسة وعشرين من عمره في عام 1550، حسب قوله في لوسيادا، ويشير كامويس إلى نفسه، و يقول:

Vao os annos decendo e ja do Estio

Ha pouco que passar ate o Otono

"الأيام و السنوات تمر بسرعة و أصبحت كأنه لم يبق لي إلا قليل للوصول إلى الخريف"

ويفيدنا ديوغو دو كوتو Diogo do Couto بأنه تم كتابة هذه الأبيات في شتاء عام 1569، عند ما كان كاموئنس يعيد النظر لوسيادا يهدف طباعته لدى

عودته إلى لشبونة، أضاف قائلا أن الصيف يعني سن 25 إلى 50، عندما يبدأ الخريف، إذا كان قد بلغ الشاعر الخريف ذلك الوقت معنى ذلك أنه قد يكون ولد في أو قبل عام 1519م، ولكنه يقول إن لديه القليل من الصيف الغادر. ومن المؤكد أنه لم يكن يعني بهذا القليل مدة سبع سنوات لحكم الملك دوارتى Rei Duarte، بل يجب أن يعتبر القليل خمس سنوات أو أقل ، و هذا يقودنا إلى 1524 . ويتضح لنا بعد دراسة شعر كاموئنس بأن "أنا دي ماسيدو"Anna de Macedo ، أم الشاعر توفيت عند ولادته.

Quando vim da materna sepultura,
De novo ao mundo, logo me fizeram
Estrellas infelices obrigado,
Com ter livre alvedrio m'o nao deram.[1]

ويسجل كاموئنس في هذه القصيدة حياته الماضية، كما هو يعبر عن أحاسيسه كشاعر وعاشق أيضا، وإذا أمعننا النظر في هذه القصيدة لاهتدينا إلى الشعور التالي:

في بداية الطفولة إنه شرب سم الحب، وأصبح مصيره أسيرا عند الإله الأعمى الذي ظل يضربه بحظه القاسي منذ نعومة أظفاره. إذا كان يمكن استخراج معنى أكثر تحديداً من هذه الأبيات فهو يكون أن طفولته كانت غير سعيدة.

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p7.

يمكن للمرء أن يرابط شقاوة طفولته بالفقر بسبب وفاة والده غير المتوقع في وقت مبكر، وزواج أمه من جديد، أو بسبب وفاة والدته، إذا نتيقن بهذا الرأي، ووجود ممرضة قاسية لرعايته.[1]

وعلى الرغم من البؤس والشقاء في طفولته لقد توفرت له فرص البهجة والسرور حيث نراه ينشأ في جامعة المدينة الساحرة في أوروبا التي تحفها أجمل المناظر الرومانسية. ويبدو أنه تعلم في كلية سانتا كروز بكويمبرا Coimbra، و أغلب الظن التحق بالجامعة بعد أن انضمت الكلية بالجامعة،[2] ليس لدينا بهذا الصدد أي مصدر موثوق به غير الافتراض، وبدون افتراض لا نستطيع وضع كاموئنس في أي مدينة ما عدا كويمبرا، لأنه يتحدث في أغنية جميلة عن منظر بهيج وحياة فرحة في هذه الأرض التي هي المملوءة بالزهور، ويعبر عن انفعاله تجاه هذه المناظر بوضوح عندما كان يغادر كويمبرا.

Vao as serenas agoas
Do Mondego decendo
E mansamente ate o mar nao param,
Por onde as minhas magoas
Pouco a pouco crecendo
Para nunca acabar-se começaram.

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p9.

[2] Theophilo Braga, Camoes e o sentimento nacional, p9.

"تمر المياه الهادئة من نهر "منديجو" بلطف ولا تزال تنزل في البحر بدون توقف، حيثما يزداد قلبي وجعا شيئا فشيئا، وأرى هذه الأوجاع لا نهاية لها كالمياه الجارية لـ"منديجو".

Ali se me mostraram

Neste lugar ameno

Em que ainda agora mouro

Testa de neve e de ouro,

Risco brando e suave, olho sereno,

Um gesto delicado

Que sempre na alma m'estara pitado.

"وفي هذا المكان الجميل الذي أسكنه في الخيال حتى الآن، يترائ لي الوجه المشرق الناعم والعيون الهادئة، هناك صورة جذابة قد ارتسمت على جدار قلبي، وستبقى في قلبي مرسومة إلى الأبد".

Nesta florida terra,

Leda fresca e serena,

Ledo e contente para mi vivia.[1]

"في هذه الأرض النعيمة ذات الأزهار الجميلة ظلت الحياة لي سعيدة وفرحة".

أينما كان قد درس، فقد درس لبعض الأغراض النبيلة، و انهل من منهل التعليم بعمق. إنه كان على معرفة جمة بالتاريخ، والآداب الكلاسيكية التي تظهر

[1] V. de V. M., Poesias liricas selectadas de luis de Camoens, p38.

ملامحها بواسطة أعماله، وأغلب الظن أنه حصل على هذه العلوم خلال دراسته في الجامعة، ولا يمكن له الحصول عليها فيما بعد، لأن مغامراته في الحياة لم تهيئ له فرصة كافية لتحقيق هذا الغرض، فمن الأرجح إنه قد تعرف بهذه العلوم بسهولة أثناء شبابه في جامعة كويمبرا في عدن الثانية.

وكانت لدى كاموئنس معرفة وافية للاتينية ويكتب الإسبانية بسهولة، ويقرأ الإيطالية، و ربما اليونانية أيضا، ويشير جوروميناJuromenha إلى أنه من الممكن كان كاموئنس قد تعرَّف بـ تشوسر Chaucer والأدب الانكليزي بوساطة جورج بتشونان Jorge Bachunan خلال قيامه في كويمبرا، حيث إنه شغل أستاذا هناك لمدة. ولكن شعر كاموئنس لايدل إلى أي علامة لمعرفته باللغة الإنجليزية.[1]

وتعد هذه الفترة التي عاش كاموئنس في كويمبر أسعد الأيام من حياته، ويقال إنه وقع في الحب مع سيدة في البلاط، وربما تعرف عليها خلال قيامها في كويمبر لمدة قصيرة. وأغلب الظن أنها عاشت بشكل دائم في كويمبرا، و يرجى الرجوع بهذا الصدد إلى قصيدة الشاعر التي تحدث فيها عن غيابه من تلك المدينة.

فأولئك الكتاب الذين يرفضون انفعال حبه الذي سجله في قصيدته " Vao as serenas agos" ويصفونه رغبة عابرة من زمن الصبا، لم يتمكنوا من إدراك الشعور ونضج الفكرة في هذه الأغنية الرائعة، حيث إنه يغني " Testa de neve e

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p11

ouro" ويحتفل بهذه الفكرة كثيرا من الأحيان في الأغاني اللاحقة، ومن الصعب أن نعتقد بأنه قرض هذه الأبيات في وقت لم يناهز ثمانية عشر من عمره.[1]

ويعتبر عام 1542م نقطة التحول في حياة كاموئنس الذي غادر فيه مدينة كويمبرا إلى لشبونة. ومن أهم المصادر الرئيسية لتحديد التواريخ لهذه الفترة من حياته هي ملاحظته لحياته في رسالته بعنوان "Desejei tanto" "تمنّيتُ كثيرا"، بأنه عندما غادر لشبونة للهند في مارس عام 1553م قد كان اجتاز به 3,000 يوم من الثرثرة والإفتتان والأنس، كذلك تشير هذه الملاحظة إلى إقامته في لشبونة. والمؤرخون يستدلون بها نفيه إلى مدينة رباتيجو Ribatejo لسنة كاملة، وسنتين لخدمته العسكرية في شمال أفريقيا، فعندهم ثماني سنوات أو 3,000 يوم تشير إلى عام 1542م كتاريخ وصوله إلى لشبونة.

عندما كان كاموئنس يغادر مدينته الحبيبة كويمبرا، اشتد اشتياقه إلى المناظر البهيجة للحقول على شواطئ نهر منديجو Mandego. و الحنين إلى الوطن والعيون الفتانة جعلته أسيرا. ولكنه مثل أولئك الرجال الذين شقي حظهم في هذا العالم، قد اضطر إلى الترحال، وتوجه إلى لشبونة بحثاً عن قوته و حياته.[2]

فما لبث كاموئنس أن فارق داره وفؤاده وراءه، وكذلك ودع كثيرا من الأصدقاء، بما فيهم ابنا عمه بينتو Bento، وسيماو فاز دي كاموئنس Simao Vaz de

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p13.

[2] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p15

Camoens. ولم يمض إلا قليل أن كسب "سيماو فاز" عناية الأمير جواو Joao (1537-1554). وأصبح من أخص الخواص له، ولكن كان الأمير لم يناهز ثماني من عمره تلك الوقت، لذلك لم يكن من الممكن أن يدعمه سيماو حسب آماله لدى وصوله إلى مدينة لشبونة أو أن يعرفه في البلاط الملكي.

ويعتقد الدكتور ستورك أنه غادر كويمبرا في عام 1542م، وأصبح معلما للسيد أنطونيو دي نورونيا Antonio Noronha، نجل كوندي دي لينياريس الثاني، هو فرانسيسكو دي نورونا Francisco Noronha، وكان فرانسيسكو سفيرا لدى فرنسا، وهذه العلاقة مع أسرة نورونيا وفرت كاموئنس الفرصة للتعرف بالأعلام البارزين في الأوساط العلمية، وكذلك بأسر كبيرة من الطبقة الحاكمة. نعى كاموئنس وفاة أنطونيو المبكرة في شمال أفريقيا في سونتياته وقصائده.

أما المؤرخون الذين اعتبروا عام وصول كاموئنس إلى لشبونة سنة 1542م و منفاه الأول سنة 1549م، فليس لديهم شيء يملأ هذا الفراغ لسبع سنوات. وأما الآخرون فيعتبرون منفى كاموئنس من قبل، ويعتقدون أنه عاد إلى، ما غادر، لشبونة في عام 1549م. وبما ليس لنا بد إلا الاختيار بين المفروضات، يبدو التسلسل الزمني الأخير أكثر احتمالا. وعندما وصل لشبونة لأول مرة قد يكون له أصدقاء في العاصمة بكونه Cavaleiro Fidalgo "فارسا نبيلا"، وقد وجد هناك أصدقاء كويمبرا القدماء؛ ولكنه لم يحصل على أية وظيفة فوريا.

وبعد عودته من أفريقيا إزاء خدمته العسكرية اتسعت له الآفاق اتساعا لحياته الجديدة في البلاط، وعندما وجد ابن عمه مؤيدا كبيرا له عند الأمير ارتفعت آماله عالية؛ و ترك الفكرة للذهاب إلى الهند في عام 1550م، كما يدعي فاريا سوزا أنه ألقي شراعه للرياح، و لاحق برفقائه الطائشين، وما لبث أن وجد نفسه وراء القضبان وتحطم مصير الحياة في حزيران/يونيه عام 1552م.[1]

حياته الغرامية:

لقد اتبع كاموئنس التقاليد السائدة في ذلك الوقت، وسلك طريق الحب والغرام وعانى بسببه من الهموم والآلام، حتى أحرز السبق في هذا المجال في وقت قصير بعد وصوله إلى لشبونة، يقع في حب إمرأة في انتظار للملكة – السيدة كاترينا دي عتايد Dona Caterina de Ataide – ينظر إليها للمرة الأولى في الكنيسة يوم الجمعة العظيمة عام 1544م. إنه عبر عن أحاسيسه ووجدانه عنما وقعت نظرته الأولى على وجهها الجميل واتخذ حبها سبيله إلى قلبه، وهو يشبهها بالصورة الملائيكية، إنه يتحدث عن هذا الواقع في سونتيته ويقول:

O culto divinal se celebrava
No templo donde toda creatura
Louva o Feitor divino, que afeitura
Com seu sagrado Sangue restaurava.

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p18.

"كانت الاحتفالات الدينية تعقد في الكنيسة، وكل نفس كانت تعبد وتمجد خالق القدر الذي أخرج ذلك اليوم مخلوقاته من دمه المقدس."

Amor alli, que o tempo me aguardava,

Onde a vontade tinha mais segura,

Com uma rara e angelica figura,

A vista da razao me salteava.

"والحب الذي كان لي بالمرصاد، عندما حسبت أن رغبتي في أحفظ مكان، هاجم على عقلي وذهني بصورة رائعة ملائكية."

Eu, crendo que o lugar me defendia,

De seu livre costume, nao sabendo,

Que nenhum confiado lhe fugia;

"وكنت أعتقد أن هذا المكان سيحميني عن طريق معتاد، ولكن سرعان ما تيقنت أنه ليس هناك أحد يتمكن من تجنبه، فقدمت له سراحي أسيرا."

Deixei-me captivar; mas hoje vendo,

Senhora, que por vosso me queria,

Do tempo que fui livre arrependo.[1]

"ولكن الآن قد تبين لي أنه أراد ني أن أكون ،أيتها السيدة، أسيرا لكِ، وأنا أتأسف على فترة من الزمن التي مضيتها حرا طلقا."

[1] V. de V. M., Poesias liricas selectadas de luis de Camoens, P13.

هذه هي حقيقة من حياة كامو ئنس لا تجحد بأن معظم حياته المبكرة تتمحور حول الحب في كويمبرا Coimbra أو في البلاط، أو كليهما، لقد ثبت بالوثوق أن العلاقات بين كوامبرا وأعضاءالحكم كانت متوطدة - ولا حاجة للبحث عن اسم حبيبته حيث إنه نادرا مايتحدث عنها في قصائده، غير ذلك نجد إشارات واضحة إلى أنه وصف الشَعر الذهبي لحبيبته الأولى في كويمبرا Coimbra، ويواصل هذا الوصف في شعره خلال قيامه في لشبونة على حد السوءا.[1]

الرواج لعلاقة غرامية في القصر قديم كما سرد كل كاتب لسيرة كاموئنس، ولكنه يبدو أن "جواو بينتو ريبيرو Joa Pinto Ribeiro" هو أول من ذكر اسم السيدة كاترينا دي ألمادا، ابنة عم الشاعر. وقد ادعى حاليا العالم الاشتراكي الدكتور يوسف ماريا رودريغز، و ألح في ادعائه بأن كاموئنس كان في الحب مع "ماريا انفانتا" Infanta Maria، ابنة الملك إيمانويل، الأميرة الموهوبة التي ولدت في عام 1521م، وتوفيت قبل ثلاثة أعوام لوفاة كاموئنس، ودعم يوسف ادعائه بالعديد من الوثائق والبراهين من أعمال كاموئنس، ولكن كوتوCouto يشير إلى أن السونتة " Alma minha gentil que te partiste" ما قيلت لـ"ناترسيا" ولكنها قيلت لـ"بربارا" Barbara،فتاة صينية رقيقة.

وإذا أمعننا النظرفي شعر كاموئنس وجدنا أن عاطفة الحب ترعرعت بالآمال، وزادت ثقته بعودة حبه، وأخذ يظهر علاقة حبيبته علنا وجهارا واكتشتفت الحقيقة عند والديها، وفجأة تشتت آماله في لحظة واحدة. وتعتبر

[1] Theophilo Braga, Camoes e o sentimento nacional, p18.

قطعة عرضية قصيرة من مسرحيته "El Rei Seleuco ال رئي سلوكو"، على العموم، هى السبب المباشر لنفي كاموئنس من لشبونة، ولكن يوجد هناك الخلاف بين المؤرخين في تحديد تاريخ نفيه، يقول الدكتور ستورك: إن المسرحية عرضت في الثلث الأول من عام 1549م، ولكنه يبدو أنها قد عرضت في أواخر الخريف، مهما كان الموقع فإنها عرضت أمام حشد متزاحم.[1]

يرى الدكتور ستورك أن والدى حبيبته كانا يجلسان في الصف الأمامي أمام المسرح وغضبا بإشارات كاموئنس إلى حبه لابنتهما، ويقال، مع استهزاءه لأبويها، إنه وجه السخرية إلى الملكة كاترينا، ملكة إسبانيا، في عبارة واضحة. قد تم عرض المسرحية في منزل مسؤول في الحكومة، ولذلك نجد من الصعب جدا أنه ارتكب أية جريمة في شأن الملك أوالملكة. وكان السبب الحقيقي لعار كاموئنس هو سلوكه الطائش، وثقته الزائدة حيث إنه قدأرغب ناترسيا إلي حبه، على الرغم من أن والديها كانا يعارضان زواجها من فارس مفلس.

في السجن والمنفى:

و يبدو أن كاموئنس قد غادر لشبونة، ولكنه أين ذهب؟ تختلف الإجابة على هذاه الأسئلة كاختلاف الألسن، ويتضح من بيت في الرثاء الجميل Aquella que d'amor الذي يرجع زمنه إلى عام 1547 م، بأنه أُرسل إلى سبتة، هي مدينة في شمال أفريقيا. إنه يصف نفسه بأنه مألوف بالحزن و الكآبة، ولكنه لايزال يحاول كى

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p22

لايصبح بومة بين العصافير، و يعتزم على القيام بأ حسن الأفعال، ويقول بهذا الصدد: "لا حظا سعيدا في هذا العالم إلا لمن يعتبره سعيدا". وسوء الحظ ما زال يراوده حتى شارك معركة مع الأعداء ففقد عينه اليمنى.[1]

بعد خدمة سنتين في أفريقيا، أي في عام 1549م، عاد إلى لشبونة، ومن الممكن أنه عاد في حالة جيدة. وحمومة ابن عمه مع الأميرالأديب جواو زادت آماله لاهتمام خاص، وخدماته في أفريقيا سوف تمطس أخطاء الماضي.

ولكن كاموئنس الذي عاد من "سبتة"Ceuta كان مختلفاً جداً عن كاموئنس الذي وفد إلى لشبونة من مدينة كويمبرا قبل بضع سنوات. الآن إنه كان مصابا من جهات شتى، أخشن وتائها، ومستعدا لأخذ سعادته أينما يجد السبيل إليه. ومن الممكن لديه أصدقاء على مناصب عالية.

نحن نعرف، أيضا، أن إحدى السيدات الشريفات من البلاط، السيدة فرانسيسكا دي أراجاو، أرسلت إليه تسأله بعض الأبيات؛ و أخريات، أقل تهذيبا، استهزئنه بوصفه إبليسا أعور Diabo، لقد دفعه هذا الواقع إلى اتخاذ خطوات غير محمودة، والتحق كاموئنس بجماعة الشبان المفلسين مثله تمردا، ومن الممكن أنه أراد بهذا العمل مجرد التمثيل الفني لكى يحصل بينهم على لقب "المتعنتر" Trincafortes.

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p27.

وتتمثل رسالاته من الهند بوضوح هذا النوع من الحياة الذي عاشه قبل الهجرة، كما يدل الواقع الذي حدث بعد سنة أو سنتين من بعد عودته من أفريقيا.[1]

في 16 حزيران/يونيه،عام 1552م، يوم كوربوس كريستي Corpus Christi، كان يركب مسؤول حكومي غامض، جونسالو بورخيس Goncalo Borges، عن طريق "روسيو" وعند مدخل شارع س. أنتاو Rua S. Antao، قرب دير دومينغوس، بدأ رجلان مقنعان يقاذفان الكلمات معه، فتجاوزوا من الكلمات إلى الشجار، واستل كاموئنس سيفه لمساعدة الرجلين بعدأن عرف أنهما من أصدقائه، وأصيب بورخيس في هذا الشجار بجروح في عنقه. وكانت جرية كاموئنس كبيرة للغاية، وتضاعفت حدتها بوقوعها بيوم من أيام الاحتفال ووجود المحكمة في لشبونة. قد تكون عقوبته الإعدام، لأنه في ذلك العصر المتخلف كان القتل لا يعتبر جريمة طفيفة. ونظرا إلى شدة جريمته قدأعرض عنه معظم أصدقائه، ولم يجد له حاميا ولا ناصرا، إذ رأى أن الأرض تفسح المجال تحت قدميه.

قضى أكثر من ثمانية أشهر في "Tronco" السجن بلشبونة. ولحسن حظه لم تكن جروح بورخيس فادحة، وقبل نهاية شباط/فبراير عام 1553م إنه قد استعاد صحته تماما، و أصبح راضيا بعفو كاموئنس. في هذه الظروف، بعد تدخل بعض الأصدقاء ذوي النفوذ تلقى كاموئنس العفو مع دفع 4,000 ريس إلى السمو العالي الملك المونير Rei Almoner أسقف سان ثوم Sao Thome. "وهو شاب ومفلس

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p29.

وذاهب هذا العام إلى الهند لخدمتنا" يقول مرسوم العفو. وربما قد أدرك كاموئنس بأنه سيتم إطلاق سراحه بأكثر سرعة إن يظهر إرادته للذهاب إلى الهند لخدمة الجيش، ولم يقض إلا خمسة عشر يوما بعد عفوه حتى رحل إلى الهند. ومن الممكن أنه قد رضي ببهجة وسرو حيث قد تمثل فكرة الحرية والرحلة إلى الهند حلما لمن هو محبوس في السجن بلشبونة.[1]

مغامراته في الهند:

عزم كاموئنس على المغادرة إلى أرض ما زال قلبه ملازما بها، وتدفعه إليها عاطفته الوطنية من جانب آخر، فإنه شرع الرحلة إلى الهند في عام 1553، وعمره لم يناهز تسعة وعشرين سنة، ومع انتهاء شهر مارس إنه ركب سفينة ساو بينتو Sao Bento، وغادر وطنه الحبيب الذي لم يبق له القرار فيه الآن، وتركه في حالة انفعالية مزيجة بالحزن والقلق والكراهية تجاه الوطن حيث قال" ,Ingrata patria non possidebis oss mea" "أيها الناكرة للجميل لا يحق لك أن تعثري على جثتي".[2] إنه تحدث في إحدى قصائده عن هذه الرحلة وذكر عاصفة عنيفة قرب رأس الرجاء الصالح، ووصف وصوله إلى غوا في ستمبر عام 1553م، وكانت هذه الرحلة مهمة ومعجبة له حيث قد استغل هذه الفرصة أحسن استغلال لوصف الأحوال بكونه رسام البحر كما وصفه همبولت Humbolt

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p32

[2] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p33.

هذه الفترة من حياة كاموئنس تمثل سلسلة المغامرات والنكبات المتتالية؛ ولكن القدر ما زال يراقبه بعناية خارقة، وأنقذه من كل خطر لكي تصل مسيرته الشعرية إلى المنزل المقصود. الأسطول الذي سافربه إلى الهند كان يتكون من أربعة سفن، فغرقت ثلاثة منها في عاصفة بحرية، ولكن كاموئنس قد وصل على متن الرابعة إلى ميناء غوا. بهذه الظروف يستدل كاموئنس بأن القدر معه وسيبدل حظه سعيدا.

وسرعان ما تبين له أن الحصول على العمل هناك ليس من الممكن، ولم تتبدل أحواله الاقتصادية وأصبحت حالته مماثلة لحالة المهاجر في العصر الحديث، فخاب أمله عند وصوله إلى غوا Goa، إنه عبر عن مشاعره وأحاسيسه في رسالة كتبها من غوا وقال: إنه وجدها "أم خطوة لكل رجل أمين وشريف النفس" A mai dos viloes ruijs, e madrasta de de homees honrados.[1] فانتظم بالسلك العسكري متطوعا عند ما لم يجد منه بدا، وشارك بحملة ألفونسو دي نورانيا Alfonso de Noranha ضد حاكم شامبي Chembe على سواحل ملبار سنة 1553م، إنه وصف هذه الحملة في قصيدته O poeta Semonda falando، لقد شكل الوالى البرتغالي هذه الحملة لمساعدة أمير هندي. ولدى وصول القوات البرتغالية إلى المكان المقصود، تعرضت بنكبات المناخ وذهبت نسبة كبيرة من البرتغالين ضحيتها ولكن كاموئنس عاد إلى "غوا" مع سلامة بعدأن تحققت الغاية من هذه البعثة.

[1] Richard F. Burton, Camoens his life and his Luiads p18

هذا الوضع من حياة كاموئنس مازال يستمر، فلم يجد له بديلا من الاشتراك بحملة جديدة كانت على وشك الخروج إلى البحر الأحمر للهجوم على القراصنة العربية بجزيرة هرمز، فصحب فرديناند مينيسس D. Ferdinand deMeneses في هذه الحملة برأس الفيل في البحر الأحمر والخليج الفارسي، حيث قضى كاموئنس فصل الشتاء، ووجد أوقات الفراغ من جديد، ينغمس في أعمال خياله و تصوره، وأتاح فكره يحلق في سماء الخيال وتلون ملكة خياله كل شيء شاهد أو سمع بلون شعري، وازداد التهاب الحب الوطني فيه اشتعالا بحيث أنه أصبح أكثر وثيقا بالإنجازات البرتغالية في الهند[1].

وفي العام القادم سنة 1554م، أرسل أسطول حربي إلى رأس الفيل Guarda Fui والخليج الفارسي بقيادة فرديناند دي مينيسس D. Ferdinand de Meneses، شارك فيه كاموئنس، وتحدث عنها في إحدى سونتيته ويصف المعركة بقوله: " لقد احمر البحر الأحمر منذ ذلك الوقت بسبب دماء الأتراك". كذلك شارك كاموئنس في كثير من المعارك في الهند وأرجائها، وبعد خدماته لثلاث سنوات في الجيش مضى يقيم في غوا يكتب القصائد في أوقاته الفارغة، كما كتب هناك مرثية عند وفاة د. أنتونيو دي نورانيا D. Antonio de Noranha.

وبعث كاموئنس إلى الصين في مارس عام 1556م، فأقام هناك في منطقة مكاو حيث استعمر البرتغاليون بعدد هائل. وفي نفس العام 1556م، فوض إليه منصب

[1] Frederick Bouterwek, History of Spanish and Portuguese literature,vII, p143.

"الأمين لممتلكات المتوفى والغائب، "Provedor mor de defuntor e Ausentes، في مدينة مكاو Macao. لقد هيأ له هذا المنصب فرصة لتحسين وضعه المالي، ولكن وقع سوء الظن بينه وبين الوالي بريتو Barreto، ولجأ كاموئنس بعض الأحيان إلى الهجاء ووجه السخرية إلى حكومة غوا التي لم تفعل شيئا له حتى الآن. ومع ذلك، أنه لم يحاول تعزيز اهتمامه بالاطراء والتملق.[1]

وفي أثناء اشتغاله بهذا المنصب إنه زار الأراضي الملائية، وبعد رحلة لمدة ثلاثين أو أربعين يوما وصل كاموئنس إلى لمباساو Limpacao، محطة البرتغاليين ذلك الوقت، ثم سافر إلى ملقا Malocca، وقد انتهت مدة وظيفته الرابحة بعد سنتين عام 1558م، فتوجه كاموئنس راجعا إلى غوا على متن سفينة ضلت الطريق في نهر منكا نغ Mekong، ولقيت حادثة التحطم، فقضى بعد هذا الحادث عدة شهور في كومبوديا Cambodia، وعند وصوله لدى غوا ألقي وراء القضبان باتهام الفساد في وظيفته في أواخر عهد الوالي بريتو Barreto. وعند ما جاء الوالي الجديد دوم كونستانتينو دي براغا D. Constantinho de Braga أمر بإطلاق سراحه، فما لبث أن قبض عليه مرة أخرى في حكم الوالي القادم D. Fransisco Coutinho لقضية أداء الدين، فأمر فرانسسكو بالإفراج عنه عند ما خرج إلى كاليكوت لمفاوضات الأمن والسلام مع حاكمه السامري، Zamorin وفي أثناء ذلك احتفل كاموئنس بحفل عشاء مع أصدقاءه حيث إنه دعا الأصدقا النبلاء لمأدبة من الأطبقة الخالية يستضيفهم بنسخ الأبيات.[2]

---

[1] Rechard F. Burton, Camoens his life and Luciad. p21.

[2] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p54.

شارك كاموئنس خلال حكم الوالي فرانسسكو في حملات مختلفة، ويفيدنا جوروميينا بأنه من المحتمل أنه عاش هذه الأيام الأخيرة في غوا، ومن الممكن أنه قام في نفس الفترة برحلته إلى آسيا الأقصى وزار أراضي الملايو العديدة مثل ملقا Malacca، وتيدور Tidore، وتيرنات Ternate، وتيمور Timore، وغير ذلك من المناطق الساحلية.[1]

في عام 1562م، تولى دوم أنتام D. Antam زمام الحكم في غوا، وكان لديه إلمام بكاموئنس حيث إنه شاركه المعرك في سبتة Ceuta، فأنعمه بإعطاء وظيفة مربحة، إذ أصبح كاموئنس مفتشا للأشغال العامة، فأحذت حالته يتبدل من بؤس وشقاء إلى سعادة، ولكن لما أقبل عليه الحظ بالسعادة بدأ يشتاق إلى الوطن ويتوجع في فراقه، وازداد شوقه وحنينه إليه فيلتجأ إلى التعبير عن شعوره ووجدانه ويسجل أحاسيسه في صورة سونتياته، لقد كتب كاموئنس معظم أحلى قصائده خلال قيامه في الهند.[2] وظلت ذكريات الوطن تراوده وجعلت فكرة فناءه في وطن غريب تهاجم على همته وشجاعته، وكان قد اضمحلت طموحه وذهبت قوته ورعبه إزاء المغامرات المستمره لمدة ستة عشر سنة في حالة المنفى والاغتراب، وعندما كان يتصورموته في هذه الحالة من الغربة والنأي لا يكاد يغلب على انفعاله المزيج من الخوف و التوق، وفي هذه الأوضاع قدم له أحد أصدقاءه عرضا لكفالة سفره إلى موزامبيق فقبل هذا العرض، وبعد وصوله إلى موزامبيق عكف على "لوساده" ترتبها وينقحها، ولما أراد مغادرة موزامبيق ألقي القبض عليه في قضية تتعلق بتسوية الدين عليه، فتقدم

[1] Rechard F. Burton, Camoens his life and Luciads, p25.

[2] Rechard F. Burton, Camoens his life and Luciads, p27.

الوالي لمساعدته بإعطاءه مأتين كروسادو Crozado، ولذلك جمع أصدقاءه البقية من المبلغ المطلوب لأداء دينه، فأصبح الجو خاليا لرجوعه إلى الوطن، ركب كاموئنس السفينة المتوجه إلى البرتغال في نوفمبر عام 1569م، وفي أثناء هذه الرحلة ظل مشغولا بكتابة "بارناسو" Parnasso، مؤلفته المهمة التي لم تتزين بزينة الطبع حيث إنها سرقت بعد رجوعه إلى البرتغال ولم نعثر عليها فيما بعد.[1]

رست السفينة بميناء كاسكائس Cascaes قرب مدينة لشبونة في أبريل عام 1570م، وكان رجوع كاموئنس إلى الوطن في وقت غير سعيد؛ وقت المآسي والأزمات، قد توفي صديقه الحميم هيتور دا سلوا Heitor da Silva أثناء مشاهدته صخور سنترا Cintra، وكانت لشبونة تجتاز بحالة طوارئة حيث هاجمها وباء مهلك، وكان يعرف هذا الوباء باسم Peste Grande، وذهب ضحيتها حوالي خمسون ألف نسمة من سكانها بما فيها الشاعر أنتونيو فريئرا Antonio Ferreira، كذلك فقد الأديب ترانكوسو Trancoso زوجته وأولاده في هذه المأساة. وإضافة إلى ذلك قد اختطفت صولة الزمان كثيرا من الشخصيات البارزة قبل هذه الكارثة، توفي سا دي ميراندا Sa de Miranda، وجورج فريئرا Jorge Ferreira، وواسكونسيلوس Vasconcellos، وجورج مونتمور Jorge Montemore، وغيرهم من الأعلام البارزين البرتغاليين قبل بضع سنوات، وكذلك قد توفي الملك جواو الثالث ، فكتب له كاموئنس مدحا رائعا، وفي أحدى سونتياته يقول:

[1] Rechard F. Burton, Camoens his life and Luciads, p29.

"Quem jaz no grao sepulchero, que descreve".

وظل يقيم بـ cascaes لمدة قصيرة حتى أخذت لشبونة تنتعش من أثر الطاعون المهلك، فدخل لشبونة في أواخر شهر أبريل من عام 1570م. ومع ذلك قد انتهى اغترابه وشروده بعد أن قضى سبعة عشر سنة يتيه حول العالم، ويشاهد عادات الأقوام وتقاليدها، ويتعرف بلغاتها وثقافاتها. ويقال عند ما دخل كاموئنس لشبونة كانت أمه على قيد الحياة وظلت تعيش في موراريا Mouraria، وابن عمه سيماو فاز ما زال يعيش في كويمبرا. وبعد رجوعه إلى الوطن فضل الإقامة في لشبونة، ثم يتوجه إلى نشر لوسيادا، فحصل على السماحة لنشرها في 24 من ستمبر عام 1571م، وتمت طباعة لوسيادا لأول مرة في حياته عام 1572م. وإزاء نشره لوسيادا أنعم عليه بمعاش تافه لم يكن كافيا لضرورة الحياة، وظل يعيش الحياة في ضيق وشقاء، واشتدت حدة مزاجه مع مرور الأيام، ومن المحتمل أن المصائب والمعاناة قد أدت إلى الحدة النفسية، كذلك تركت حياة الاغتراب أثرا واضحا على نفسه، إذ وجد كاموئنس نفسه في عزلة تامة عن المجتمع البرتغالي.

ومع انتهاء العام 1579م أعاد الطاعون يهاجم مدينة لشبونة من جديد، وأخذت صحة كاموئنس تتدهور بسرعة، ورافق ذلك انهزام الملك سبستيام Sebestiam في بلاد المغرب، وقع هذا الحادث على كاموئنس كالصاعقة، وتضاعفت آلامه وأوجاعه، وفقد الشاعر رغبته في الحياة، وجعل يتمنى موته لا في حضن وطنه الحبيب بل يتمنى موته مع الوطن نفسه الذي هو أحب شيء عنده، ويظهر أمنيته هذه في إحدى رسالاته ويقول:

"Em fim acabarei a vida e verao todos que foi tao afeicoado a minha patria que nao so me contentei de morrer nella mas com ella."[1]

لقد تنفس كاموئنس أنفاسه الأخيرة في مثل هذا الوضع، ويقال إنه مات في مستشفى وأمه كانت جالسة بجنبه عند ما حانه الموت، ومن الممكن إنه مات في مستشفى أو في بيت صغير في منطقة موراريا Mouraria حيثما كانت أمه تعيش، وظلت أمه تحصل على معاشه بعد وفاته في 10 من يونيو عام 1580م. دفنت جثته في كاتردائيتة سانتا أنا Santa Anna، لقد تعرض مسكنه الأخير لإهمال شعبه، وظل قبره خمول لمدة ستة عشر سنة، فتقدم جونسالو كوتينيو Goncalo Coutinho لخدمته ونصب الرخام عليه ونقش على الرخام هذه الكلمات التالية:

AQUI JAZ LUIS DE CAMOENS

PRINCIPE

DOS POETAS DO SEU TEMPO.

MORREO NO ANNO DE 1579.

يستريح هنا لوئس دي كاموئنس، أمير الشعراء لعصره. توفي في عام 1579م.[2]

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p143.

[2] Rechard F. Burton, Camoens his life and Luciads, p37.

الفصل الثالث

آثاركاموئنس وشعره

يعتبر كاموئنس من أولئك الشعراء المعدودين في العالم كله الذين أثروا عصورهم وبيئاتهم بشعرهم وأعمالهم، لقد ترك كاموئنس على الأدب البرتغالي وشعره أثرا واضحا جليا، إنه كتب أحسن القصائد الملحمية في تاريخ الشعر البرتغالي حتى احتلت قصيدته الملحمية مكانة الملحمة الوطنية في البرتغال، ذاع صيت ملحمته "لوسيادا" في أنحاء العالم كله في وقت قصير. متى أتم كاموئنس كتابة ملحمة "لوسيادا"؟ فاريا سوزا يدعي أن "جواو بينتو ريبيرو" Joa Bento Rebeiro أخبره بأن كاموئنس استيقظ صباح أحد الأيام في سوفالا Safola أو موزامبيق Mozambique مع فكرة الملحمة في ذهنه، ولكن هذا الادعاء يعاكس القصة التي يحكيها كوتو Couto بأنه وجد كاموئنس يقوم بتنقيح لوسيادا في موزامبيق في عام 1569. ويبدو رأي كوتو أقرب إلى السداد بحيث يمكننا أن نستنتج من إحدى فقرات "لوسيادا" بأنها كانت قد تم اكتمالها حتى نهاية عام 1558م.

ويرى الدكتور استورك أن الرغبة لاحتفال بلده في صورة أغنية نشأت في نفسه لأول مرة عند ما كان يرحل من مدينة كويمبرا إلى لشبونة في عام 1542م. ومن الممكن أنه شاهد خلال هذه الرحلة الكوباسا Alcobaca، وبتاليا Batalha، ومآثر البرتغال الشهيرة الأخرى التي تنم عن التاريخ البرتغالي المجيد فدفعته هذه المشاهدة

إلى تسجيلها في صورة شعرية، و من الممكن أن تشمل كتابة لوسيادا مدة عشرين سنة ما بين عام 1550م، وعام 1570م، ولكن العمل الرئيسي قد يتراوح بين عامين 1550-1555م.[1]

وأولئك النقاد الذين لا يرون من المناسب أن يبدأ تحفة أدبية في مكان غير سجن، يعتقدون بأن كتاب "فرست ديكيد" First Decade لباروس Barros نشر بعد اثنى عشر يوما من اعتقال كاموئنس بـ"روسيو" Rocio، قد دفعه هذا الكتاب إلى فكرة نظم ملحمته، ولكن في الحقيقة كان كاموئنس يفكر في بورخيس Borges أكثر من أن يفكر في باروس في ذلك الحين.

الكانتو الثالث والرابع منها يتحدثان عن التاريخ المبكر للبرتغال، قد بدأهما وأكملهما قبل أن يبحر إلى الهند في عام 1553م، ولكن رحلته إلى الهند هيئت له الفرصة لوصف رحلة فاسكو دا جاما الشهيرة في ضوء خبراته الشخصية، فجعل هذه الرحلة محورا للقصيدة الملحمية. إنه يستلهم من ريسيندي Resende، ويستمد من السجلات البرتغالية المبكرة ومن المؤرخين المعاصرين من الهند، ومن المصادر الأخرى. فالمقاطع الشعرية من الأولى إلى الثامنة عشر من الكانتو الأول أضيفت فيما بعد، وربما في لشبونة في عام 1570م، كما أضيفت المقاطع الشعرية الأخيرة من القصيدة التي يتحدث فيها عن بلده. وتبدو هذه المقاطع الشعرية في الكانتو الأول قابلة للمقارنة مع تلك المقاطع التي أهداها إلى الملك سيباستيان Sebastian في نهاية

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p77.

الكانتو العاشر، ويتبين فيها امتداد الفترة لكتابتهما واضحا جليا. يفيدنا إبيفانيو دياس Epiphanio Dias في تعليقه بأن المقارنة بين المقطعين الشعريين الأخيرين من القصيدة والمقطع الشعري الخامس عشر من الكانتو الأول تشير إلى فترة طويلة من الزمن بين بداية ونهاية نظم "لوسيادا".[1]

ويتخذ كاموئنس، على وجه العموم موضوع القصيدة الملحمية كلها الفخر والاعتزاز بالإنجازات التي قام بها البرتغاليون في أنحاء العالم. تعتبر لوسيادا التاريخ المنظموم للمغامرات والإنجازات البرتغالية في الهند، والتي ربما تفسر تاريخها على العموم في صورة منظومة. وقد وعد كاموئنس في إحدى المواقع بالكتابة عن الأعمال البطولية الحقيقية للبرتغاليين.

لقد حاول كثير من الكتاب نظم قصيدة ملحمية وجاهدوا في سبيل هذا الغرض كثيرا ولكن خابت آمالهم، وجاءوا بالنتائج غير المحمودة حيث إنهم لم يملكوا عبقرية كاموئنس وقدرته الرائعة لنسج الموسيقى من الواقع والأحداث. وفي هذه السلسلة نشر جيرونيمو ثلاث قصائد ملحمية طويلة، الثانية منها، تتعلق بفتح "دوم جوان" من "النمسا" على "ليبانتو" Lepanto، هي Fellicima Vitori، عام 1578م، ثم قام بتبديل اسمها بـ Austriada أوستريادا، كذلك جاء جواو روفو بملحمته La Austriadade في عام 1584م. ثم تابعت قصائد ملحمية عديدة أثرت في قليل شهرة

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p78.

لوسيادا لمدة، ولكن لوسيادا برزت على أفق الشعر الملحمي كالشمش وغلبت على هذه الملاحم الشعري.

لقد عانى كاموئنس من المعارضين له كثيرا، وتعرض لانتقادات النقاد كما عانى من المترجمين والرسامين.[1] قد لفتت لوسيادا أنظار الإسبانيين أسرع من البرتغاليين ونالت هذه الملحمة القبول في إسبانيا قبل البرتغال، وكان ذلك لسبب ذوقهم السليم، إنهم كانوا يفضلون الشعر الغنائي على الشعر الملحمي، وعلى الرغم من ذلك أن كاموئنس في نظرة البرتغاليين يحتل مكانة الشاعر الملحمي أولا وسيبقى دائما صاحب لوسياد، ولكن لدى محبي الشعر بغض البصر عن بلدتهم هو، قبل كل شيئ، شاعر غنائي كبير.

التاريخ البرتغالي غني بالحلقات البطولية والرومانسية، وعلى الرغم من ذلك لم تظهر خلال القرون الخمسة الأولى أية قصيد ملحمية كبيرة. وفي القرن السادس عشر، حين كثرت الأعمال البطولية البرتغالية وامتدت مساحة الأراضي للإمبراطورية البرتغالية إلى أنحاء العالم، انتبه الشعراء البرتغاليون لهذا الغرض وتفكروا فيه. كان غارسيا دي ريسيندي Garcia de Resende قد أظهر تأسفه على إهمال البرتغاليين تجاه تسجيل أعمالهم في مجموعته للنظم Cancioneiro Geral عام 1516م، فأول من مهد الطريق إلى هذا الغرض هو "سا دي ميراندا" Sa de Miranda ، فنهض وثار ضد النزعات الشعرية الرائجة في البلاط. وحينما كان شعراء مدرسة "سا دي ميراندا"

[1] Lord Viscount Strangford, Luis de Camoens with remarks on his life and writings, p24.

يناقشون الأسماء من بين الشعراء لتفويض هذه المهمة المباركة؛ تسجيل الوقائع البرتغالية بصورة ملحمية، كان هناك رجل أعظم من سا دي ميراندا يهيأ نفسه للانتاج الشعري الملحمي العظيم، و هو لوئس دي كاموئنس.[1]

يعد كاموئنس من العباقرة العالمية، ولا يقل شهرة من أولئك الشعراء المعدودين الذين بلغوا ذروة المجد والكمال في لغات بلدهم، إنه طبع في كل صنف من أصناف الأدب السائدة ذلك الوقت، ولم يترك أي صنف إلا قرض فيه وبلغ إلى درجة النضج والكمال. وتحتل "لوسيادا" مكانا مرموقا في أعماله.

لقد استلهم كاموئنس الشوق والرغبة لكتابة قصيدته الملحمية من كتاب فيرجيل Virgil آنائيد Aeneid، إنه قسم "لوسياد" إلى عشرة أبواب/كونتوس Contos، ولم يجعل لهذه القصيدة الملحمية بطلا خاصا، ولكنه ركز على دور فاسكو دي جاما عناية خاصة بحيث كونه قائدا عظيما للرحلة البرتغالية التي أدت إلى اكتشاف طريق مائي إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح.[2]

قام كاموئنس بتمجيد الإنجازات البرتغالية، والتفاخر بالرحلات والحملات التي قام بها أبناء لوسوس في أرجاء العالم، يستهل الفصلان الثالث والرابع من هذا الكتاب بمعالجة التاريخ البرتغالي، وتم كتابتهما قبل مغادرته إلى آسيا، ولكن ليتش Lach وبعض المحققين الآخرين ذهبوا إلى أن كاموئنس قرض معظم هذه الأبيات بعد

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p76.

[2] Frederick Bouterwek, History of Spanish and Portuguese literature,vII, p154.

الوصول إلى الهند وآسيا. أما الفصول من السابع إلى العاشر تتعلق بآسيا بدءا من وصول فاسكو دي جاما إلى الهند ورجوعه إلى البرتغال، والفصل العشر يتحدث عن البرازيل وميكسيكو أيضا، ولا تعتبر لوسيادا مدحا لبطولات برتغالية في آسيا فحسب بل يعد من أهم المراجع لمعرفة أحوال آسيا من مجتمعها، وحياتها، وسياستها، وسكانها، والمواقع الجغرافية. ذاع صيت لوسيادا عند نشره في عام 1579م، وتابعت بعد ذلك عدة طبعات في اللغة البرتغالية والإسبانية، إن هذه القصيدة الملحمية لا تتحدث عن الإنجازات البرتغالية فحسب، بل هي تدعو وتحث أوربا النصرانية على إعادة حملة صليبية ضد المسلمين والأتراك، وخلاصة القول إن لوسيادا هي ملحمة وطنية في معناها الحقيقي، وهي مركبة ومكونة من كل العناصر الحقيقية والأسطورية، تتحدث عن توسيعات الإمبراطورية البرتغالية وراء البحار.[1]

يعتبر كاموئنس المتحدث باسم الدولة بمعنى أصله، ولكن بعد دراسة شعره وفحص أعماله، لانجد مثالا واضحا يدل إلى انغماسه في الأمور السياسية، بل إنه قام بتمجيد الانجازات البرتغالية بشعور الوطنية، وفكرته الوطنية أوسع من الإمبراطرية البرتغالية الممتدة إلى أنحاء العالم.

أعمال كاموئنس ما عدا لوسيادا

ماعدا لوسيادا له مجموعة لقصائده الغنائية باسم "Rimas"، لقد نشرت منها ثلاث قصائد فحسب في حياة كاموئنس، الطبعة الأولى لقصائده الغنائية ظهرت

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p90.

عام 1595 م، بعد 15 عاما من وفاته، تشمل هذه الطبعة 58 سونتية، و75 أغنية، و8 أنشاد، و4 مراثي، و5 قصائد غنائية، و10 مدائح، و3 منظومات في Ottava Rima (المثمن).

وتابعت الطبعات مع الإضافات في عام 1598م، وعام 1616م، وأضيفت في هذه الطبعات قصائد مستوردة من الهند لأول مرة، ولكن كثيرة من القصائد التي قد نشرت باسمه في الماضي لم يتم تعيينها بالضبط حتى الآن بأنها تنتمي إليه في الحقيقة، ويرجع الأمر بهذا الصدد إلى كاتبين يختلفان في عصرهما، فاريا اي سوزا Faria e Sousa، ووسكوندي دي جورومينيا Visconde de Jurominha، فإنهما نسبا إلى كاموئنس كل ما وجدا من قصيدة جميلة خلال تلك الفترة، وأدخلا ها في طبعتيهما عام 1685م، وعام 1860م على التوالي. وكذلك فعل كثير من الكتاب، ونسبوا إلى كاموئنس القصائد ما رأوها رائعة وجميلة، حتى يبلغ عدد القصائد المنسوب إليه، 380 سونتية، و21 مدح، و27 مرثية، و11قصيدة في Ottav Rima (المثمن)، و13 قصيدة غنائية، و15 نشيد، و5 مسدسات (Sestinas).[1]

بذل الباحثون والمحققون جهودا مكثفة في القرن العشرين وأخرجوها قريبا إلى نصفها، ولكن هذا العدد لا يقل من العدد المألوف عند الشعراء، على سبيل المثال سا دي ميراندا Sa de Miranda، وتلميذه أنتونيو فيريرا Antonio de Ferreira، وجورج دي مونتيمور Jorge de Montemor، وأندراد دي كامينيا Andrade de Caminha، وفري

[1]Luis de Camoens, Edit:Landeg White, The collected Lyric Poems of Luis de Camoens,p2.

أغستينيو دي كروز Frei Agostinho de Cruz، وإيمانويل دي برتغال Manuel de Portugal، الذي مدحه كاموئنس في أحد مدائحه. وجدير بالذكر هنا أن عملية تحقيق وشطب آثار كاموئنس تمت في فترة غير ملائمة للأبطال البرتغاليين، ولم يتهيأ لهم القبول والشهرة كما كان لهم الحق خلال دكتاتورية سالازار Salazar.

وفضلا عن ذلك ألف كاموئنس ثلاث مسرحيات شهيرة نشرت بعد وفاته لفترات مختلفة، قد عالج في إحداها علاقة أنتونيو شس مع أم خطوة له وزوجة أبيه إستراتونس Stratonice، وتوجد في هذه المؤلفة فقرات رائعة قيمة، ولكنه سلك فيها على وجه العموم نهجا تقليديا، ومضى يعالج القضايا في أسلوب لايمكن فيه تمييز المهزلة عن المزاح. والمسرحية الثانية حول المغامرة الطويلة للمشتري، أما الثالثة فتعتبر أحسنها وأرفعها، وتعالج حكاية الحب والغرام بين ولي العهد الدنماركي وامرأة إسبانية، اجتازت بهما فترات المحنة والبلاء حتى اتضح لهما بأن صلتهما ترجع إلى العم الأول فاجتمعا وتزوجا. وعلى الرغم من الحبكة الغامضة إنه قام بتنفيذها بحسن ومهارة، وتتجلى مؤهلاته ومهارته في هذه المؤلفة بكل وضوح.[1]

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p97.

الباب الثالث

الأوضاع الشعرية في مصر والبرتغال خلال عصر الشاعرين

الفصل الأول: الوضع الشعري لمصر في عصر البارودي ودوره فيه

الفصل الثاني: الوضع الشعري للبرتغال في عصر كاموئنس ودوره فيه

الفصل الأول

الوضع الشعري لمصر في عصر البارودي ودوره فيه

عندما طلع البارودي على أفق الشعر العربي كانت حالة الشعر رديئة، وكان الشعر العربي مكبلا تكبيل المحسنات البديعية والبلاغية من بديع وجنس وطباق، والتمرينات الشكلية من تخميس وتشطير وغيرها من الأعاجيب الشعرية مما جعل الشعر صنعة لا فنا. ويمثل هذا النزع الشعري فترة الانحطاط والتدهور في تاريخ الأدب العربي ذلك العصر، سواء في الأغراض أو المعاني أو الأساليب. أما الأغراض فكانت ضيقة تافهة لاتخرج في جملتها عن المدح أو القول في المناسبات، والمعاني معادة مطروقة أو مبتذلة ساقطة، أما الأساليب فكانت متكلفة مثقلة بأغلال من البديع، فيها جناس وطباق وازدواج، وفيها إشارات ورموز وتورية ومطابقة، وحساب الجمل وما إلى ذلك من محسنات النظم التي كانت أشبه بالزينة الفاضحة، والملابس المزركشة لعروس قل حظها من الجمال.

وتعليقا على حالة الشعر العربي في البلاد العربية كتب علي الحديدي في كتابه محمود سامي البارودي شاعر النهضة، فقال:

"كان الشعر العربي يعاني أزمة للضعف والانحلال منذ احتل العثمانيون البلاد العربية، فقد زحفت مع جيوشهم على البلاد أجناد الجهل وظلمة الفقر

الذهني والمادي، واعتصروا ما تغله من طيبات الرزق، ونزحوا مافيها من تراث وعلماء. وكان العثمانيون قد رأوا قوة المصريين في قدرتهم على التكييف مع الأزمات، وتطلعهم إلى مصادر جديدة للثقافة إذا حرموا من ثقافتهم الأصلية. والثقافة عدو الاستعمار الأول، فأراد الأتراك أن تظل مصر خاضعة راكدة، ومن ثم ضربوا بسور من العزلة على مصر والبلاد العربية، ومنعوا اتصالها بالعالم، وقصروا صلتها على القسطنطنية وحتى هذه لم تكن الصلة بها فكرية بل كانت محدودة في خلع الوالي وجباية الضرائب وإرسال الشكايات.

وكانت تركيا بهذه العزلة الفكرية تريد للشعب العربية الجهالة وعماية الفكر حتى يسلس قياده وتلين عريكته، وتظل بلاده المزرعة التي تنتج المحصول لمالكها كى توفر له العيش المترف والاستمتاع بالحياة. وكان يدفعهم إلى ذلك أيضا "مركب النقص" الذي يحس به الأتراك تجاه العرب ، فعلى الرغم من أنهم كانوا السادة والمتحكمين في مصائر العرب وبلادهم إلا أنهم أحسوا نحوهم وفي قرارة نفوسهم برهبة خفية ونقص في الدرجة الدينية، فالعرب أهل الدين الذي يعتنقه السادة الأتراك، وأهل اللغة التي لابد وأن يتعلمها المستمعرون ليصلوا بها ويقرأوا بها القرآن، والعرب بعد كل ذلك أفضل منهم عندالله، لأنهم "خير أمة أخرجت للناس " ، ويزيد هذا الشعور من حنق التركي وحقده فيزداد في إذلال العرب، وسومهم سوء العذاب ، وسلبهم باسم الدين حقهم في الحرية السياسية والمعرفة والحياة.

والواقع أن الأتراك العثمانيين كانت فيهم لفحة من الهمجية والوحشية ، ولم يكن لهم اتجاه فكري أو ثقافي، فقد بنوا دولتهم على القوة الحربة، وحين استقر بهم المقام في القسطنطنية وجدوا أنفسهم وقد احتلوا عاصمة الثقافة والفكر للعالم الغربي كله، وكان لابد لهم أن يملأوا الفراغ الذي خلفه هرب الغربيين من وجههم بثقافتهم وتراثهم . بحثوا في ماضيهم فلم يجدوا علما ولا أدبا، فأرادوا أن يستبدلوا بثقافتهم البدائية الثقافة الإسلامية والعربية ، لكنهم كانوا غير أصلاء فيها، ومن ثم فقد استوردوا العلماء واستولوا على التراث الإسلامي والعربي ليجعلوا عاصمتهم منارة الثقافة الإسلامية، وأرادوا أن يتبنوا هذه الثقافة ليتحول مركز الإشعاع الفكري والديني للإسلام – بجانب السيطرة السياسية – إلى الآستانة. وتغلبت طبيعتهم الغشوم وغباؤهم العقلي وفقرهم الثقافي فلم يفلح هذا التبنى، ولم تتقدم الحركة الفكرية بل تدهورت إلى الضعف والتخلف ، ومن ثم أصابهم مس من جنون الكراهية والعداء لكل منارة علم في البلاد العربية، فأطفأوا مصابيح الفكر والثقافة فيها ، ولم يبق منها إلا ذبالة ضئيلة ترتعش من الضعف في الأزهر".[1]

إذا نقرأ الكتاب العرب خاصة المصريين يبحثون تخلفهم نجد نزعة عامة بهذا الصدد، هي محاولاتهم لربط كل نكسة وتخلف لهم بحكم العثمانيين والأتراك، لقد تأثر علي الحديدي بهذه النزعة أيضا، وقام بربط صلة كل جمود وخمود في الأدب العربي والمجتمع المصري بالعثمانيين والأتراك، إذا أمعننا النظر في تخلف

[1] علي الحديديد، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص362.

المصريين والأدب العربي المصري لوجدنا جذوره متعمقة في عصور المماليك وقبل ذلك من العصور، وأرى من المناسب أن أبدي معارضتي مع هذه النزعة، وعند ما جاء حكم العثمانيين في البلاد العربية كانت الأوضاع غير ملائمة من كل ناحية، وكانت الفوضى سائدة في أنحاء البلاد العربية كلها، وكانت الأخطار الأجنبية تهدد ها كل حين وآن، وكانت القوات العربية الإسلامية قد فقدت كفاءتها لمواجهة الغزو الاستعماري الغربي، وتقلص نفوذ العرب في عقر دارهم حتى لايملكو الكفاءة للدفاع عن الأماكن المقدسة الإسلامية حيث بلغت جرأة البرتغاليين إلى حد أن اعتزموا على نبش قبر الرسول صلي الله عليه وسلم(نعوذ بالله من ذلك). في مثل هذا الوضع نهض العثمانيون الأتراك الذين قد هزوا أوربا بفتوحاتهم في الماضي القريب وبثوا الذعر والخوف في العالم المسيحي حتى اقشعرت أبدان أعداء الإسلام والمسلمين، فتقدموا وتحملوا مسؤولية الدفاع عن الأقطار العربية والأماكن المقدسة في الإسلام، كذلك اهتموا باستعادة احتكار التجارة المائية والبرية التي فقدها العرب بأيدي القوى الأوربية المسيحية، هكذا قدمت الدولة العثمانية بخدمات جليلة تجاه العالم العربي الإسلامي في أيام الأزمات. ومع ذلك لا أجحد بعض الفساد الذي تسلل في دعائم الحكم العثماني في أواخر عهد الخلافة، وأوهن القوى الحكومية كما اشتدت العصبية العنصرية التي دفعت إلى العنف والاضطهاد على أساس العنصرية والعصبية، ولكنه ليس معنى ذلك أن أرسم الحكم العثماني كله بفرشاة التعصب العنصري.

لقد ساد الجمود والخمود على الأمة العربية منذ قرون قبل مجيء الحكم العثماني، ففقدت الصلة بين الحياة العقلية والقومية وبين الأدب والفن، فمن الطبيعي أن يتأثر الأدب والشعر من هذا الركود والانحطاط. وعلى الرغم من ذلك لم تتوقف مسيرة الشعر العربي، بل مضى الشعراء يقولون الشعر بغزارة، ولكن الشيء الذي فقده الشعر العربي هو الخلق الجديد والابتكار فيه، فأصبحت مواهب الشعراء معتمدة على ترديد بعض القصائد المشهورة والموروثة من العصور السابقة، يستهدفون تقليدها فيقلدونها في الأوزان والكلمات المزركشة فيها فيأتون بقصائد وأبيات لا روح فيها بل هي خالية من العاطفة والجمال الفني، وإضافة إلى ذلك، قد فسد التذوق الشعري، وعكف الشعراء على الأغراض التافهة لكسب عناية الأمراء والسلاطين، واقتدوا لذلك الأساليب التي هي كانت مقبولة عند البلاط وديوان السلاطين، هكذا مرت قرون على الشعر العربي في هذه الحالة، فساد الجمود على الأذهان والعقول وجفت الينابيع التي تتفجر منها المعاني الجديدة وندرة الخيال للشعر العربي.

فأصبحت دواوين المحدثين من الشعراء المتداولة في ذلك الوقت من أمثال إسماعيل خشاب، والشيخ العطار، والشيخ محمد شهاب الدين، والسيد علي الدرويش، يشمل نظما بدون روح شعرية، فكأنها كلها كراسي لممارسة العروض ودراسته، فتكثر هذه الدواوين بمحسنات البديع، وتخلو من العاطفة والشعور، ومن أين لهم بالشعور وقد قتله تعسف الحكام واستبداد الأمراء، وذهب الجهل السائد

بعقولهم، وطارت العواطف في جو من الخوف والخطر فانحدر المجتمع العربي في هوة الجمود حيث لم يتمكن الشعراء من خلق المعاني الجديدة وابتكار الصور، فلجأوا إلى التقليد، واجتروا معاني السابقين بالتشطير والتخميس والتضمين، وهو تقليد يتسم بالعجز والقصور عن استيعاب المحسوسات والمعاني أو قدرة التعبير عنها في قالب جميل.[1]

لقد نهض البارودي بالعبارة الشعرية الحقيقية، وأخرج الشعر العربي من الضعف والركاكة إلى الصحة والمتانة، لذلك هو يعد أول ناهض بالشعر العربي من كبوته في مطلع عصر النهضة. من أهم الدوافع التي ارتفع بها شعر البارودي إلى هذا المستوى هي وجهة نظره تجاه الشعر، إذ يرى أن الشعر "لمعة خيالية يتألق وميضها في سماوة الفكر، فتنبعث أشعتها إلى صفحة القلب فيفيض بلألائها نورا يتصل خيطه بأسلة اللسان فينفث بألوان من الحكمة"،[2] ومعنى ذلك أن البارودي أدخل في تعريفه للشعر أثر الفكر في العملية الابداعية، وهي بدون شك خطوة مهمة في فهم طبيعة الشعر.

يحتذي البارودي في بناء القصيدة خطى الأقدمين، فهو مقلد كامل بهذا الصددحيث يقف كالشعراء الجاهليين على الأطلال مع أنه لا توجد في حياته الأطلال، ثم يتوجه إلى الحديث عن الخمر وما فيه من أثر بأسلوب تقليدي أيضا.

---

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص75

[2] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص34.

ثم ينتقل إلى الغرض الرئيسي من فخر أو وصف أو سياسة. اتخذ البارودي هذا المنهج لشعره، واستطاع بذلك أن يصبح زعيم المدرسة الكلاسيكية في الأدب العربي الحديث.

أما البارودي فقد أعجبه شعر الأقدمين إعجابا حتى اتخذه مثالا وقدوة لشعره، أخذ يحتذي حذو الشعراء الأقدمين، ولم يتوجه خلال نشأته وتكوينه إلى شعر المحدثين، لأنه لم يكن من طراز هؤلاء الشعراء جميعا، بل كان يختلف منهم بنظرته إلى الشعر نفسه، فقال الشعر لأغراض رفيعة، فهو يختلف عنهم بتفكيره وبمثله الأعلى في الشعر وفي الحياة، لم يقله طلبا لعطف حاكم أو عطاء أمير، إنه قاله لأسمى أغراض كما فعل من سبقوه من الشعراء الذين خلد الدهر شعرهم، وسجل التاريخ في صفحاته أسماءهم، وقد كان ابن المعتز، والشريف الرضي، وأبوفراس، وامرؤ القيس من قبله شعراء، فعكف على قراءة شعرهم جميعا، فحاكاهم ثم احتذى حذوهم، ومضى يغني كما غنوا ليخلق من خيال الشعر ميادين المجد، لم يتعلم البارودي العروض والقوافي حسب التقاليد الرائجة في ذلك الوقت، إنه أعرض عن هذا التقليد الزائف، بل سلك طريقا غير الطريق المألوف عند الشعراء في ذلك الوقت، فدرس دواوين الشعراء الأساتذة القدماء وأكثر في دراسته حتى تجلت موهبته الشعرية، وأخذت عواطفه وأحاسيسه تموج في نفسه، وبدأ بالتعبير عنها محاكاة لفحول الشعراء الأقدمين، فما لبث أن برع في القول وجاء

بأنغام في الشعر لم يألفها أهل زمانه، وارتفع إلى مكان مرموق من الشعر العربي الحديث، وأخذ على إعادة الروح المفقودة إلى الشعر العربي من جديد.

بالإضافة إلى دراسة دواوين الأقدمين إنه تسرب ينابيع العروبة إلى خلايا وجدانه، وتعمقت المصرية في حنايا ضلوعه وجنانه، حتى خالطت بلحمه ودمه فلا يجد له بلدا سوى مصر، ولا موطنا له غيرها، وهو يتذكر حين وفدها أجداده مهاجرين، وقبلتهم مصر بحفاوة، ورفعتهم إلى مكان السيادة،فلم يألوا جهدا للدفاع عن مصر عند ما اقتضته الأوضاع، لقد قرأ البارودي حكايات أجداده للدفاع عن مصر والتفاني في سبيلها فتزداد علاقته بمصر حبا، ويختلط حبها بلحمه ودمه، وعواطفه وشعوره، وما زال يتغنى حبه هذا في شعره طول حياته[1] وهو يقول:

سل مصر عني إن جهلت مكانتي تخبرك عن شرف وعز أقدم

بلد نشأت مع النبات بأرضها ولثمت ثغر غديرها المتبسم

فنسيمها روحي ومعدن تربها جسمي، وكوثر نيلها محيا دمي

وأحق دار بالكرامة منزل للقلب فيه علاقة لم تصرم

هي جنة الحسن التي زهراتها حور المها، وهزار أبكتها فمي

لقد ضلت مسيرة الشعر العربي عن دربها كليا، إذ أصبحت مهمة الشاعر في ذلك العصر لا تهتم بتنوير العقول وإذكاء الأذهان، بل أصبحت وظيفة الشاعر مقتصرة عل المحافل والمجالس، يعشرون الناس ويضحكونهم بالملح والأحاديث،

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص76

وكذلك كثرت مساجلات الشعراء ونوادرهم في ذلك العصر يرويها السمار وتسجلها كتب الأدب.[1]

فالشعر عندهم لم يكن أداة لتصوير العاطفة أو التعبير عن الأحاسيس، بل كانوا يستخدموه لإظهار الجدارة وإفحام الخصم أو سوق النادرة. أما طموع الشعراء فكانت محدودة في معارضة القصائد الموروثة المشهورة وتشطيرها أو تقليدها. ولا يوجد عندهم شاعر يؤدي حق الشعر من حيث الفن، وكلهم كانوا يهتمون بحشد ألوان البديع وأغلاله، ويعنون بصنوف المحسنات من جناس وطباق وازدواج وتورية، وينظمون القصيدة من حروف معجمة أو مهملة، ويستخرجون منها تاريخا بحساب الجمل، وكذلك راجت أنواع كثيرة من البديع لا يحصى عددها، فانقلب الشعر في طلاسم من حسابات وأرقام تحول القارئ عن الشعر إلى محاولة حلها والخروج من مآزقها، وتدفع الشاعر عن الانطلاق الطبيعي في التعبير عن العواطف والشعور، فلا يجد القارئ فيه الروح التي أصدر عنها الشاعر، فخلاصة القول أصبح كلامهم كله يجري على مقاييس العروض ومحسنات البديع، لأنهم تعلموا العروض ومحسنات البديع لهذا الغرض، فجاءوا بالقصائد صناعية خالية من الشعور لا روح فيها.[2]

وكذلك لم يكن لديهم معنى مبتكر، أو عبارة جميلة تخفف هذا الضعف أو تستر تلك العيوب، وإضافة إلى ذلك إنهم لم يكلفوا أنفسهم مشاق البحث عنه، ولو

---

[1] علي الحديديد، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص364.

[2] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص366.

استعرضنا أسباب هذا التخلف والتدهور الفكري عند شعراء ذلك العصر لوجدنا أنهم يمثلون عصرهم الذي سادت عليه الجهالة وفساد الذوق، فكانت العقول والأذهان في ذلك العصر لا تعارض مثل هذه الأشعار، وتطمئن بهذا النحو من الأدب، بل تجد الغبطة والسرور فيها، فتطور أدب لفظي، بل ينبغي أن يطلق عليه حشد من الألفاظ والبدائع.

طلع البارودي على أفق الشعر العربي طلوع الفجر الجديد، فإنه وثب بعبارته الشعرية وثبة واحدة من طريق الضعف والركاكة إلى طريق الصحة والمتانة، ولم تكن الدلالات السابقة أو المعاصرة تشير إلى بلوغ الشاعر إلى هذه الذروة والقمة بلا تدرج ولا تمهيد، فإذا ألقينا النظر على تاريخ خمسمائة سنة وراء البارودي لا نجد قمة واحدة تدانيها أو تساميها، ونحسب كأننا وقفنا على الطود المنفرد، أمامه التلال والكثبان إلى أقصى مدى الأفق البعيد.[1]

يمتاز شعر البارودي بميزات قيمة دفعته إلى مكانة الصدارة بين الشعراء، إنه أخرج الشعر العربي من الركاكة والضعف إلى مصادره الأولى من صحة التركيب وجزالة اللفظ ومتانة العبارة، ورجعه إلى أساليبه الرصينة القديمة، وخلصه من كلف البديع وأثقاله ، وأعاد إليه ديباجته القوية، ورده إلى مجده التليد، وخلع عن الشعر كل التعقيدات السائدة، ونفخ فيه روحا جديدة من الأصالة، وبث فيه الحياة.

[1] عباس محمود العقاد، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص122.

لقد حاكى البارودي فحول الشعراءالأقدمين فألح في تقليدهم ومحاكاتهم، فلحق بهم معنى وأسلوبا، وسابقهم في مضمار القصيدة فلم يتخلف عنهم، بل سبق بعضهم، ويقال: لو أن الزمان تقدم به لاعترف بفضله مشاهير الشعراء، ولأقر بنبوغه وعبقريته أمراء الشعر العربي في عصره الذهبي، فإنه لا يبالي بكونه في زمن لايقدر الناس فيه الشعر، بل لايفهمونه، فقد أقر بفضله العالم العربي كله ، وفي ذلك يقول:

ملكت مقاليد الكلام، وحكمة لها كوكب فخم الضياء منير

فلو كنت في عصر الكلام الذي انقضى لباء بفضلي جرول و جرير

ولو كنت أدركت النواسي لم يقل (أجارة بيتينا أبوك غيور)

وما ضرني أني تأخرت عنهم وفضلي بين العالمين شهير

فيا ربما أخلى من السبق أول وبز الجياد للسابقات أخير [1]

يتدفق شعر البارودي من معين عواطفه وانفعالاته، حيث إنه قد أخرج الشعر من حيز المعاني المحفوظة المحدودة إلى فسحة واسعة من التعبير عن العواطف، والتزم بوضع حدود للشعر الجيد كما كان عند الشعراء الأقدمين، فقد جعل "خير الكلام ما ائتلفت ألفاظه، وائتلقت معانيه، وكان قريب المأخذ، بعيد المرمى، سليما من وصمة التكلف، بريئا من عشرة التعسف ، غنيا عن مراجعة الفكرة، فهذه صفة الشعر الجيد، فمن آتاه الله منه حظا، وكان كريم الشمائل،

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص208.

طاهر النفس، فقد ملك أعنة القلوب ونال مودة النفوس ، وصار بين قومه كالغرة في الجواد الأدهم، والبدر في الظلام الأيهم".[1] ويتصف البارودي بهذه الصفات كلها إلى حد كبير، وفي ذلك يقول:

ترنم بأشعاري ، ودع كل منطق فما بعد قولي من بلاغ لمفلق

هو العسل الماذي طورا، وتارة يثور الشجا منه مكان المخنق

يغني به شاد، ويحدو ركابه به كل حاد بين بيداء سملق

فطورا تراه زهرة بين مجلس وطورا تراه لهذما بين فيلق

وما كلفي بالشعر إلا لأنه منار لسار ، أو نكال لأحمق

علقت به طفلا ، وشبت ولم يزل شديدا بأهداب الكلام تعلقى

بلغت بشعري ما أردت ، فلم أدع بدائع في أكمامها لم تفتق

فهذا نمير الشعر ، فاقصد حياضه لتروى ، وهذا مرتقى الفضل فارتق[2]

لقد أوتي البارودي الفطرة السليمة التي اهتدى بها إلى المنهج الطبيعي للشعر الذي سلكه فحول الشعراء من قبله، فكانوا يقرءون و يستظهرون شعر السابقين المعاصرين من الشعراء الكبار حتى تتكون سليقتهم، ثم يحاولون فهم مقاصده لتبين لهم مواقع الجمال فيه، فيرددون في شعرهم هذه الألفاظ والتراكيب، ولذلك عندما يأتيهم الدفق الشعري يسيل على ألسنتهم القول دون ركاكة، لأنه كان في ذاكرتهم

[1] محمود سامي البارودي، مقدمة ديوان البارودي ص-34.

[2] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي ص-382.

رصيد ضخم من الألحان والأنغام والصور والتراكيب. وكان البارودي أكثر استظهارا لشعر الأقدمين، وقرأ المئات من قصائد الجاهلين والمخضرمين، وفحول المحدثين، ولا يوجد أي شاعر من جيل البارودي قرأ أكثر مما قرأه من دواوين العرب، واستفادت صياغته من هذه القراءة أكثر مما استفاده.[1] إنه صوغ نفسه حسب أذواق الشعراء الأقدمين، فتسربت نفسه العروبة بعمق حتى أصبحت جزءا لا يتجزء، وكذلك تصوغت على الخصائص الشعرية القديمة، وجعل لسانه ينطلق بشعر بليغ سلس لا ركاكة فيه ولا غموض[2] كما يقول:

فاسمع، فما كل الكلام بطيب ولكل قول في السماع مذاق

نزل الكلام إلي من شرفاته وتمثلت بحديثي الآفاق[3]

فتنحى البارودي عن التقاليد السائدة لبداية القول في الشعر، فهم كانوا يستهلون بالممارسات العروضية حسب الممارسات الدراسية في المدرسة، ولكن البارودي كان غيرهم بطبيعته وفطرته ونقاء ذهنه، وكان عنده الكفاءة والفكرة بسبب دراسته الغزيرة لدواوين الشعراء النبهين، فاتخذ طريقهم قدوة له لقرض الشعر.

ولم يكن استظهار البارودي شعر الأقدمين وحاكاته بالمعنى السيئ، بل ربما خاض في تجديد المعاني والأغراض لكي يرد إلى الشعر جزالته ونصاعته ورصانته، وعلى كل ذلك كانت طبيعته حرة وتتطلب الإبداع وندرة الخيال وابتكار الفكر مع

---

[1] شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص-126.

[2] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص270.

[3] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص365.

تقليد الأقدمين في الأسلوب، فلم يسلك الطريق الذي كان سائدا بين الشعراء العروضيين في عصره، فإنهم كانوا يعتبرون النظم حقا لكل من تعلم العروض، وقرأ البيان والبديع وغيرهما من أصول الصناعة، وهم كانوا يهتمون بهذه الأصول ويطبقونها فيما نظموه، فتشبه دواديهم بكراسات التطبيق في المعاهد التعليمية، وكانوا يعتبرون الناظم بدون تعلمِ العروض غير مؤهلا لفن الشعر. ولكن الشعر عند البارودي له معنى آخر، هو يعده فيضا تتفجر به مشاعر الإنسان، وله صلة مباشرة لعواطفه، ثم يصل إلى لسانه فيتحول في تراكيب وصور الألفاظ.

لا يصدر شعر البارودي من جهد الصناعة أو من ممارسة البديع وما إليه من أقسامه وألوانه، بل هو يصدر عن طبعه الفني الأصيل. وكان في نفسه شاعر طبيعي كامن، وعندما وجد وضعا مناسبا أخذ يتدفق بشعر جميل تصغي إليه الآذان وتعجب به النفوس. فطبيعة البارودي الشعرية هي التي تدفعه على قول الشعر غير أولئك العروضيين الذين يحرضهم علمهم بالعروض على قول الشعر، فيستمع البارودي إلى قلبه وعواطفه ويحس بما فيه من خفقات وشعور فيرى هذه الخفقات تمتزج بالأفكار والمعاني المبتكرة، ثم تنطلق هذه المعاني والأفكار في جمل نادرة رائعة، وفي ذلك يقول:

أقـول بطبـع لسـت أحتـاج بعـده إلى المنهـل المطـروق والمـنهج الـوعر

إذا جاش طبعي فاض بالدر منطقي ولاعجـب فالـدر ينشـأ في البحــر[1]

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص203.

هكذا يشتغل البارودي بوظيفته بصفته شاعرا، وتتجلى طبيعته الشاعرة في كل حين وآن، وفي كل مجال من مجالات الحياة، إما كان في الحرب أو في السلم، إنه لم يتوقف قول الشعر في أي حال من الأحوال، لذلك يعتبر شعره مرآة لحياته، فهو يمثل حياته وعواطفه على وجه العموم.[1]

ولم يتخذ البارودي شعره وسيلة لكسب عناية الحكام أو لنيل غاية عند الأمراء، فلم يمدح به أحدا ابتغاء لمعروفه، ولم ينضم إلى جماعة الشعراء الذين يبتغون به عطاء عند الحكام، بل كان البارودي أرفع من ذلك كله، وكان في جوفه نفس أبية، وله وراثة المجد والافتخار في التاريخ. وعلى العكس من ذلك كان الشعراء المعاصرون يخففون شعرهم وفنهم بمديح الحكام والأمراء، بل إنهم قد اتخذوه وسيلة للارتزاق، فأذلوا أنفسهم وفنهم، وتحاشدوا على أبواب القصور والبلاط برقعهم وقصائدهم كالفقراء المتسولين، فانحطت مكانة الشاعر في المجتمع، ولكن البارودي لم يسلك هذا المسلك، ولم يقل الشعر طلبا لمعروف وعطاء، إنه مدح الحكام اقتضاء لمشاعره وعواطفه واعترافا لجميل، لا طلبا لعطاء.

لقد ترك البارودي المنهج المطروق للشعر، وأبدع نهجا جديدا لشعره، وأحبط التقاليد الفاسدة في الشعر العربي، وفتح بابا جديدا للمعاني والأغراض. إذا نستخدم مصطلح الجديد في شعر البارودي نعني به أولا نزعه إلى تصوير الواقع الذي يتسم ببساطة، وسلاسة، وقوة، بغير الاتكاء إلى المحسنات البديعية من جنس

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص-373.

وطباق وما إلى ذلك، ومع ذلك لا ينحصر الجديد عند البارودي في جزالة العبارة والديباجة ورصانة التراكيب فحسب، بل إن شعره كله جديد؛ محاكاته وتقليده للأقمدين جديد، ومعارضته إياهم جديد، وكذلك رياضة القول على مثالهم جديد، هكذا بعث البارودي الحياة الجديدة إلى الشعر العربي. يعتمد البارودي على تصوير الواقع فيرسل النفس على سجيتها ولا يتكلف الاستعارة والبدائع، ويعبر عن عواطفه وانفعالاته بأسلوب سلس وعبارة بسيطة.[1]

ويرى البارودي أن جمود الشعر العربي طوال خمسة قرون لم يكن راجعا إلى قصور ذاتي في اللغة، وإنما يرجع إلى الجهل بها وعدم التزود بأساليبها الناصعة الشفافة التي لاتحجب معنى من المعاني، فاللغة العربية ليست لغة عقيمة ولا محصورة في محسنات البديع، بل هي غنية بكل جوهر وموهب، إنها تعرضت للمحن والرزايا لفترة اختفى فيها جوهرها لتنوير العقول والشعور، ولو راجع الشعراء إلى مصادرها الأصلية لوجدوا فيها الحياة والقوة وأحسوا بالجمال الفني والعقلي.

قد تحمل البارودي المسؤولية التي ألقتها ربة الشعر على كواهله، وأداها بكل صدق وأمانة، وقام بإحياء القريض من الجمود الفكري منذ قرون طوال، وبث روحا جديدة في جسم الشعر العربي الواهن، وفي ذلك يقول:

أحييت أنفاس القريض بمنطقي وصرعت فرسان العجاج بلهذمي

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص375.

وفجـرت ينبـوع البيـان بمنطـق عـذب رويـت بـه غليـل الحـوم

نشـأت بطبعـى للقـريض بـدائع ليسـت بنحلـة شـاعر متقـدم

يصبو بها الحكمي صبوة عاشق وتخف من طرب عريكة مسلم

قومتـه بعـد اعوجـاج قناتـه والـرمح لـيس يـروق غيـر مقـوم

فقـر يكاد السحر يبلغ بعض ما فـي طيهـا لـو كـان غيـر محـرم

متشـابه الطـرفين ينـبئ صـدره عمـا تلاحـق ، فهـو بـادي المعلـم

أحكمـت منطقـه بلهجـة مفلـق يقـظ البديهـة في القـريض محكم

يبتـد أهبـة كـل فـارس بهمـة ويـزم شقشـقة الفنيـق المقـرم

ذلـك منـه غواربـا لا تمتطـى وخطمـت منـه موارفـا لـم تخطـم

شـعر جمعت به ضروب محاسن لـم تجتمـع قبلـي لحـي ملهـم

فـاذا نسـبت فتنـت كـل مقنـع وإذا نأمـت ذعـرت كـل ملـثم

كالروض تسـمع منـه نغمـة بلبـل والفيـل تسـمع منـه زأرة ضـيغم[1]

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص585.

الفصل الثاني

الوضع الشعري للبرتغال في عصر كاموئنس ودوره فيه

يعد القرن السادس عشر- عصر كاموئنس - من القرون التي ترعرع فيها الشعر والأغاني، وارتقى الشعر البرتغالي خلال هذه الفترة إلى درجة رفيعة يضرب المثل لها في التاريخ الأدب البرتغالي حيث قد تقدم الشعراء البرتغاليون إلى الأمام، وتخالطوا مع الشعراء والأدباء الأجنبيين من الإيطاليين والأندلسيين وسافروا إلى ما وراء البحور، وتقبلوابانشراح القلب كل ما يوجد في لغات الأمم الأخرى من جود وحسن ونقاء، ومن المحتمل أن هذا النزع قد أدى إلى الأخيلة الجذابة والفكرة النادرة، وكما نعرف بأنه قد صادف هذا العصر تغلغل القوى البرتغالية، وبلغت إمبراطوريتها الملاحية إلى أوجها في الدول الأفريقية والآسيوية، وساهمت الأحداث الكبرى المهمة هناك إلى تنوير العقول.

وبهذا الطريق شاهدت هذه الفترة اختلاط الثقافة البرتغالية مع الثقافات العالمية الكبرى، على سبيل المثال الثقافة العربية والثقافة الهندية والثقافة الصينية وهلم جرّاً، وتبادلت المعلومات بين هذه الثقافات، لكن الثقافة البرتغالية لم تنقطع بأي لحظة من اللحظات عن مناهلها الأصلية التي ترسخت جذورها في العصور الوسطى، بل ظلت تواظب على صلتها بها. وهناك نماذج كلاسيكية في تاريخ النهضة الماضى والمعاصر تدل إلى رفعة الأدب البرتغالي، وكيفما كان الحال، يعتبر هذا العصر

عصرا ذهبيا في تاريخ الأدب البرتغالي كما ظهرت النزعات الأدبيةالمختلفة من الآداب الأجنبية، واتخذها الأدباء والشعراء البرتغاليون وسلكوا المناهج الحديثة مع احتفاظ القيم البرتغالية في شعرهم.

وعند ما فتح كاموئنس عينيه رأى بيئة الشعر البرتغالي تساير مع الدرب الكلاسيكي هو درب Concianero Geral "الأغاني الشعبية البرتغالية" التي بنيت على الأسس والقواعد الإغريقية واللاتينية، وعلى الرغم من تطور فكرة الإنسانية والنهضة الأدبية في إيطاليا لا تظهر ملامح هذه الفكرة الجديدة جليا في الأدب البرتغالي ذلك الوقت، وظلت اتجاهات العهود الوسطى سائدة حتى عودة سا دي مارندا Sa de Marida من إيطاليا عام 1526م، فأخذ الشعر البرتغالي يتأثر من الشعر الإيطالي ويمكننا أن نرى بعض الانعكاسات والانطباعات للشعراء الإيطاليين على الشعر البرتغالي بكل وضوح، وفي مقدمة هؤلاء الشعراء بوسكان Boscan، وجارسيلاسو Garcilaso. واقتدي كاموئنس في البداية المنهج التقليدي من العهود الوسطى وقرض معظم قصائده الغنائية في البحر القديم وفق البحور الرائجة للقصائد البرتغاليه والكشتالية.[1]

ومن جملة الشعراء البرتغاليين يعتبر سادي ميراندا Sa de Miranda رائد النهضة الإيطالية في البرتغال، وكان الشعراء قبل ذلك يكتبون قصائدهم اقتداء المنهج التقليدي، ويتبعون في شعرهم الأرداف والقوافي التي كانت مقبولة ورائجة في

[1] Andre Luis do Amaral Vaghetti, A representacao da mulher na lirica Camoniana, p29.

البرتغال وإسبانيا في ذلك الوقت. وما نصل إلى عام 1516م حتى نرى النهضة الإيطالية تدخل البرتغال في شكل سونتية Soneto لأول مرة، بوساطة سادي مارندا Sa de Marinda. إنه عاش في إيطاليا حوالى عام 1520م، خاصة في روما Rome كسفير برتغالي إلى هذه المدينة المباركة، وكانت المدينة في ذلك الوقت تتمتع بمكان مرموق في الفنون والآداب، فصادف للشاعر الشاب القيام فيها خلال هذ الفترة الذهبية. كانت السونتية صنفا جديدا عند البرتغاليين لم يألفوها من قبل، بل إن البحور التي تعالجها السونتية لم تكن معروفة عند الشعراء البرتغاليين، والمقطع اللفظي المستخدم للسونتات هو إيطالية الأصل.[1]

لقد عاش كاموئنس في فترة انتقالية للأدب البرتغالي حيث أخذت الحركات التجديدية تنشأ وتظهر، وزادت نشاطاتها في الأوساط العلمية والأدبية في أنحاء أوربا، وأخذت تؤثر الأدب من نواحي شتى، كما دخلت الأصناف الجديدة في الأدب والشعر ، على سبيل المثال المسرحية الشعرية، والسونتيات Sonetos المستوردة من الأدب الإيطالي، وكذلك حدث كثير من التغيرات في الآداب واللغات على مستوى أوربا والمستوى الوطني التي أثرت على الأدب البرتغالي أيضا، ولم تكن اللغة البرتغالية تعتبر مساوية لأخواتها من اللغات الأوربية الأخرى، ولا تعد صالحة لأداء الرسالة الشعرية مع المعاني الجديدة والأغراض النبيلة، لذلك يعتمد بعض الشعراء إلى لغات أخرى أوربية للتعبير عن عواطفهم ومشاعرهم، وكذلك كانت هناك طبقات من البرتغاليين

[1] A Companion to Portuguese Literature, S. F. Earte p 88

بين الأوساط العلمية والأدبية لا تهتم باللغة البرتغالية حق الاهتمام، فمنهم من يستخدمون اللغة اللاتينية في الشؤون العلمية والأكاديمية، ويستعملون اللغة الفرنسية أو الإسبانية أو الإيطالية في الشؤون السياسية أو الحكومية، ويستخدمون اللغة البرتغالية أو الإسبانية في حياتهم اليومية، وهذا يشير إلى عدم اهتمام البرتغاليين تجاه لغتهم الأم، ومن الممكن يرجع ذلك إلى الشعور بعجز اللغة البرتغالية عن أداء المعاني والأغراض السامية بنضج وكمال.

ففي مثل هذا الوضع كيف يتصور أحد أن تنتج اللغة البرتغالية أدبا مقبولا يساير مع الآداب الأخرى، فضلا عن انتاج رائع أدبي يتمثل قدوة للآداب الأخرى، لقد حمل كاموئنس راية الشعر البرتغالي في وضع غير ملائم، فرفعها إلى ذروة المجد والكمال، إنه وثب بالشعر البرتغالي من الضعف والضيق إلى السعة والنضج والكمال بوثبة واحدة، ليس هناك تدرج لبلوغ الأدب الشعر البرتغالي إلى هذا النضج والكمال، فارتفع الشعر البرتغالي بـ "لوسيادا" إلى القمة الشاهقة، تمثل "لوسيادا" مثلا فريدا للكمال الفني للقصائد الملحمية، لقد أعرض كاموئنس فيه عن الأصول والقواعد العامة لقرض قصيدة ملحمية، وعلى الرغم من ذلك إنه أحسن في عمله الشعري.

فالبيئة التي اشتغل فيها كاموئنس بموهبته الشعرية كانت تجتاز بمرحلة انتقالية، كانت هناك ثلاثة مذاهب للشعر رائجة على حد السواء،[1] وأتباع كل المذاهب يتأثرون بأخرى أيضا، فالكلاسيكية مع الطابع المحلي البرتغالي هي مذهب

[1] Richard F. Burton, Camoens his life and Lusiads, V 1, p78.

Consioneiro Geral الأغاني الشعبية البرتغالية، ترسخت جذورها إلى الأيام التي لما يتم تأسيس مملكة البرتغال بعد، وكانت اللغة البرتغالية غير منقحة ومصقلة،[1] لقد بدأ كاموئنس بهذا المذهب مع الطابع المحلي الأصيل، ولكنه لم يتقلده تقليدا تاما بحيث إنه قد تعلم الكلاسيكية الأصيلة التي ترجع أصله إلى الأدبين الإغريقي واللاتيني، فانهل من منهاهل الكلاسيكية بعمق ودرس الآداب والثقافات بالاستيعاب، وعلى ذلك أعان طبعه الشعري، فأخذ يقول الشعر حسب المذهب الكلا سيكي. أما الأسس والمبادئ التي يتبنا ها هذا المذهب الكلاسيكي فهي كثيرة، ومن أهمها كما يلي:

أولا: استيحاء الروح الكلاسيكية مع تقليد الأدبين الإغريقي واللاتيني الذين اعتبر هما الكلاسيكيون مثالا للكمال ونموذجا للجمال، فعند الكلاسيكيين بلغ الجمال الذروة في هذين الأدبين من حيث الشكل والمضون، لذلك يلحون على ضرورة اقتداء الأدبين اقتداء تاما، فقاموا بتمجيد آداب اليونان والرومان واعتبروها خالية عن النقص والخطأ، وجعلوا هذه الآداب مقياسا لأدب رائع بليغ، فإذا هي قدوة مثالية للشعر والآداب، ومن الجدير بالذكر أن الدعوة إلى التقليد لم تكن دعوة إلى المحاكاة والتقليد لهذه الآداب بدون شروط وقواعد، بل إنهم اشترطوها بشرائط عديدة بحيث أن تكون الموضوعات مقرونة بالعقل والمنطق والذوق الأدبي.

ثانيا: اللجوء إلى العقل وتفضيله على العاطفة، اعتبر الكلاسيكيون العقل أعظم من العاطفة لذلك عظموا شأنه ووضعوه في أسمى مكانة بين ملكات الإنسان،قد اهتم

[1] Leodegario A. de Avezido Filho, Introducao a lirica do camoes p17

هذا الاتجاه بتصوير قضايا اجتماعية ومعالجة أمور إنسانية عامة توجد في كل زمان ومكان، وتشمل البشرية كافة، وبعبارة أخرى اتجه الكلاسيكيون إلى الموضوعات الإنسانية التي لا تتسم بالطابع المحلي أو الشخصي بل تشمل البشرية كلها في انحاء العالم كله، ولايعني اعتماد الكلاسيكيين على العقل بأنهم يعرضون عن العواطف أو ينكرونها كليا، بل إنهم يقولون إن إرخاء العنان للعواطف يدفع إلى الجموح والتطرف وعدم الانسجام والاتزان، لأن العواطف طابعها شخصي وفردي يختلف مع اختلاف الفرد والأحوال، أما العقل فهو الحقيقة الثابتة التي تشترك فيها البشرية كلها بصرف النظر عن اختلاف البيئات والعصور.

ثالثا: الاهتمام باللغة الجميلة وتحسين الأسلوب، معنى ذلك أن الكلاسيكيون يعتنون بالأسلوب ومحسنات البديع، فيتخذون أسلوبا رفيعا فخمايعتمد على الفصاحة والسمو والجلال، لا تكون فيه الركاكة أو العامية السوقية أو الابتذال، وكانت المدارس والجامعات تهتم بالأدب الكلاسيكي اهتماما بالغا، وتدرس الكلاسيكية فيها لتهذيب النفوس وتنوير العقول.

رابعا: الالزام بالأصول والقواعد؛ يلتزم الأدب الكلاسيكي بالأصول والقواعد التي استنبطت من أعمال الأقدمين من الإغريق واللاتين، واشترطوا بها لأنهم رأوا أن هذه الأصول والقواعد تساعد لتنقيح الأدب من العيوب والنقائص.[1]

[1] فائق مصطفى و عبد الرضا علي، في النقد الأدبي الحديث: منطلقات وتطبيقات، ص57.

وكذلك يوصف عصر كاموئنس بعصر النهضة الأدبية، لقد بدأت النهضة الأدبية في قبل ذلك فترعرعت وآتت أكلها في عهد كاموئنس بشكل ظاهري، ونتجت من هذه النهضة الأدبية الحركة الإنسانية التي أتاحت للشعر الغنائي مجالا جديدا، اقتدي كاموئنس حذو زعماء الحركة الإنسانية وحاكى سونتية بيتراك في معظم سونتياته ثم طور الطابع الشخصي له في السونتيات. يرجع أصل الحركة الإنسانية إلى أواخر القرن الرابع عشر، قد شهدت أوربا تطورا جديدا مهما مع انتشار هذه الحركة في القرن الخامس عشر حيث راجت هناك نزعة عامة إلى دراسة الآداب والثقافات الكلاسيكية، ثم دفعت هذه النزعة إلى الاهتمام بالدراسات الإنسانية والعلوم الإنسانية كلها لأنها قد احتلت مكانة رئيسية لترويج الفكر في عصر النهصة. وكانت تشمل هذه العلوم الأدب والتاريخ وفقه اللغة الكلاسيكية والفلسفة الأخلاقية وما إلى ذلك من العلوم.

لقد نشأت الحركة الإنسانية في إيطاليا فانتشرت إلى أنحاء أوربا، وتعليقا على نشأة وتطور هذه الحركة يقول جيري بورتون في كتابه " عصر النهضة العالمية" "وكانت الكلمة الإيطالية بمعنى "إحياء" تستخدم في القرن السادس عشر للإشارة إلى إحياء الثقافة الكلاسيكية، يشير باكوب بوركهارت إلى أن النهضة هي ظاهرة إيطالية حدثت في القرن الخامس عشر، ويقول في كتابه "حضارة عصر النهضة في إيطاليا". إن الخصائص المميزة للحياة السياسية في نهاية القرن الخامس عشر أدت إلى ظهور نزعة فردية عصرية مميزة، وقد كان إحياء العصور الكلاسيكية القديمة، واكتشاف عالم

أوسع، وعدم الارتياح المتزايد تجاه الدين الذي يتخذ شكلا مؤسسيا، يعني أن الإنسان أصبح فردا له روحانيته". وقارن بوركهارت بين التطور الجديد و غياب الوعي بالذات الذي كان السمة الأساسية للعصور الوسطى من وجهة نظره؛ إذ كان الإنسان مدركا لذاته على أنه فرد من جنس كامل، أومجتمع أو حزب أو عائلة أو مؤسسة بعبارة أخرىٍ فإن الناس قبل ذلك كانوا يفتقرون إلى الإحساس القوي بهويتهم الفردية، فإن إيطاليا في القرن الخامس عشر أنجبت إنسان عصر النهضة، والذي أطلق عليه " المولود الأول بين أبناء أوربا الحديثة" وكانت النتيجة هي ذلك الشكل الذي أصبح مألوفا الآن لعصر النهضة مهد العالم الحديث الذي أنشأ بيترارك وألبيرتي وليوناردو، ولاذي يتسم بإحياء الثقافة الكلاسيكية وانتهى بحلول منتصف القرن السادس عشر".

ويضيف جيري بروتون قائلا: "وفي القرن السادس عشر طور جيل كامل من المثقفين طريقة جديدة للتعليم مأخوذة عن المؤلفين الكلاسيكيين الإغريق والرومان، يطلق عليها الدراسات الإنسانية، وأطلق هؤلاء الباحثون على أنفسهم " الإنسانيون" واشتركوا في مهمة هائلة لفهم وترجمة ونشر وتعليم نصوص الماضي كوسيلة لفهم وتغيير حاضرهم، وبالتدريج حلت الحركة الإنسانية في عصر النهضة مكان التقليد الدراسي في العصور الوسطى الذي انبثق منه، وبطريقة منظمة، عززت دراسة الأعمال الكالسيكية بصفتها مفتاح خلق الفرد الناجح المتهذب المتحضر الذي استخدم هذه المهارات للنجاح في سياق عالم الحياة اليومية في السياسة والتجارة والدين".[1]

[1] جيري بروتون، عصر النهضة العالمية، تعريب إبراهيم البيلي محروس، الطبعة الأولى، ص40

لقد بدأت الحركة الإنسانية خلال عصر النهضة على يد الشاعر الإيطالي بيترارك Petrach في القرن الرابع عشر، وكانت لبيترارك أواصر وثيقة بالمقر البابوي في أفينيون في فرنسا، كان والده موظفا موثوقا بالمقر البابوي آنذاك، ويشتغل بإدارة المجموعات من الوثائق التي صدرت عن الشؤون البابوية. وقد اهتم بيترارك بالتقاليد الدراسية الرائجة ذلك الوقت، وأكثر في اهتمامه بهذه العلوم، وعكف على دراسة الكتب المهملة للكتاب الكلاسيكيين، وفي ضمن هذا درس كتب ششرون وليفي وفيرجيل وغيرهم. ثم بدأ بجمع نصوص مثل ما جمعها ليفي في كتابه "تاريخ روما". ومضى يقوم بمقارنة بين مخطوطات مختلفة، وقام بإصلاح الأخطاء اللغوية، وحاكي أسلوب هؤلاء الكتاب في كتاباته وكذلك قام بتحديد الأصول والقواعد لهذه الحركة الوليدة وحدد أهدافها وهي كما يلي.

توحيد مجهودات الفلاسفة تجاه الحقيقة الفردية والشخصية، وتنمية الكفاءة العلمية للعمل في المجتمع مع استخدام البلاغة وعلوم اللغة، وللقيام بالانسجام والتفاوق فيه، افتقار الفرد المتحضر إلى أن يدرب لعلوم الدراسات الإنسانية، أي التوفير له الفرص لدراسة قواعد اللغة والبلاغة والشعر والفلسفة الأخلاقية، والتاريخ.[1]

لقد تأثر كاموئنس بكل ما كان في بيئته من علم وثقافة وحركة أدبية، يظهر أثره في أعماله كله جليا، كان كاموئنس شاعر ا عالميا ، إنه قام بخدمات جليلة تجاه

[1] جيري بروتون، عصر النهضة العالمية، تعريب إبراهيم البيلي محروس، الطبعة الأولى، ص42

الأدب البرتغالي واللغةالبرتغالية، حيث إنه اختار البرتغالية للتعبير عن خلجات فؤاده وانفعالاته، وقبل ذلك كانت اللغة البرتغالية لا تعتبر مؤهلة لأداء المسؤولية الأدبية البالغة حيث كان الأدباء يصفونها بالنقص والعجز عن تحميل الرسالة السامية من الأدب والشعر.

لما اعتزم كاموئنس على كتابة ملحمته "لوسيادا" في لغته الأم لم يكن أحد يتصور بأنها ستنال شهرة عالمية، لأن معظم الشعراء كانوا يفضلون التعبير عن مشاعرهم وعواطفهم حتى الآن في اللغات الأخرى الأروبية على سبيل المثال الإسبانية والإيطالية.

كمثل البارودي لم يهتم كاموئنس التقاليد السائدة لقول الشعر في عصره اهتماما بالغا، فأعرض بعض الأحيان عن الأصول والقواعد المعينة، إنه شاعر موهوب تنطلق المشاعر في أعماق قلبه. لقد تعلم علوم العروض خلال دراسته في جامعة كويمبرا، واستوعب الأدب الكلاسيكي استيعابا فعرف قوامه وبلغ إلى كنهه، وبدأ قول الشعر محاكاة للكلاسيكيين على النمط الرائج في البرتغال ذلك الوقت، لم يقل شعرا لممارسة علوم العروض بل قاله استجوابا لخلجات فؤاده، فتفيض مشاعره وعواطفه شعرا، إنه اقتدى خطى النابهين المعاصرين مثل سا دي ميراندا Sa de Miranda وجيل فيسينت Gil Vicente وغيرهما في سبيل النهضة الأدبية، ولكن هذا الاقتداء لم يكن اقتداء بحتا، بل عدل عن طريقهم بعض الأحيان، وسلك على اهتداء فطرته السليمه واستعان من خبراته الشخصية في قول الشعر، خاصة في

الأصناف الجديدة في الأدب البرتغالي مع اقتداء النمط البتراركي والإنساني، لقد ترك كاموئنس طبعا خاصا على الشعر البرتغالي وأثر الفكر والعقول بوساطة شعره ولوسياده، وأدخل في اللغة البرتغالية الكلمات والتراكيب الجديدة، ورفع بشعره مكانة الشعر البرتغالي من المحلية إلى العالمية، وبعد نشر لوسيادا اعترف فحول الشعراء الأوروبيون بسيادة الشعر البرتغالي ودخلت اللغة البرتغالية في ضمن اللغات المتطورة العالمية.[1]

يعتبر كاموئنس عند محبي الشعر شاعر غنائي عامة، أما البرتغاليون فيعتبرونه شاعرا ملحميا أولا، ولكن الأجانب يفصلون شعره الغنائي على الشعر الملحمي ويضعونه على ذروة المجد في تاريخ الشعر الغنائي، فإنه لا يصدر من جهد الصناعة أو من معاناة البديع وضروبه وألوانه، بل هويصدر عن معين عواطفه وأعماق قلبه.[2] لقد قاد كاموئنس النهضة في البرتغال اتخذ ها إلى الأمام بأعمال واجازاته في الفن الشعري، وتدرب دربا جديدا في سبيل التعبير عن مشاعره وأحاسيسه، ولم يترك صنفا من أصناف الشعر الرائجة ذلك العصر إلا قرض فيه الشعر وبلغ به إلى حد الكمال وترك عليه طبعا خاصا له، وفضلا عن ذلك إنه أثر الفكر البرتغالي من حيث القوم، وتعتبر لوسيادا عملا مهما بهذا الصدد، إنه حرض الشعب البرتغالي على إتيان الأعمال المعجبة والمسيحيلة كما فعل آباءهم في الماضي

[1] Richard F. Burton, Camoens his life and Lusiads, V 1, p81.

[2] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p79.

القريب وأثر شعره على الشعر البرتغالي القديم وغلب عليه حتي كأنه لم يكن وجودا خلال القرن القرون الثلاث التي تلت عصره.

وعلاوة على تأثيره على الشعر الملحمي إنه أثر مئات من الشعراء الغنائيين، من أبرزهم فيرنام ألوارز Fernam Alvores، وفرانسسكو رودريغز لوبو Fransisco Rodrigues Lobo، وقال مالغالياؤ دي جانساو Magalha de Gansau في كتابه Regas إن كاموئنس من أشهر الشعراء عندنا.[1]

[1] Aubrely F. G. Bell, Luis de Camoens p82.

الباب الرابع

المضامين الشعرية وأساليبها عند الشاعرين

الفصل الأول: البارودي فنه وأسلوبه

الفصل الثاني: كاموئنس فنه وأسلوبه

الفصل الأول

البارودي فنه وأسلوبه

ظهر البارودي على ساحة العالم العربي ظهور المعجزة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إذ نفخ في الشعر العربي روحا جديدة وهيأه لحياة من جديد بعد أن مضت عليه خسمة قرون من الجمود والانحطاط والتدهور الفكري والمعنوي، فقد كانت القرائح والسلائق الشعرية قد أجدبت ونفدت، وكانت الآفاق الشعرية والنثرية قد ضاقت بما رحبت، وكانت موضوعات الشعر قد هوت إلى الدرك الأسفل من التأخر الفني، فلم تكن تتجاوز الأغراض الشخصية التافهة أو المعاني الضئيلة كالتهنئة بمولود ، أو تولي بمنصب، أو قطع سد الخليج، أو رثاء صديق، أو ثناء ملك، أو مديح لأمير، وما إلى ذلك. واعتمد الشعراء على الصناعة اللفظية ومحسنات البديع بعد أن فسدت أذواقهم، وأصبح الشعر نوعا من التسلية الفارغة، وتجرد هؤلاء الشعراء من الثقافات الحية النادرة والآداب العالمية الراقية، وتجاهلوا معاني السابقين واعتدوا عليها بالمسخ والتشويه.

وهذه الأحوال السيئة- التي قد مضت ذكرها- قد سادت على أفق الأدب العربي وهذه الظروف القاسية قد تغلبت على أذهان الشعراء والأدباء فكان شعراء عصر البارودي وشعراء خمسة قرون خلت قبله ينقسمون إلى فئتين كما نقل علي الحديدي عن محمد خلف الله أحمد "فئة كان حظها من التثقيف ما أفادته من

تعليمها التقليدي الشكلي، وما حفظته من الأدب المثقل بالزخرفة والزينة مما ظهر أثره في ضآلة المعاني التي كانوا يستعملونها في نظمهم وفي تكرار بعض الصور المألوفة عند شعراء الصنعة البديعية ، ومن ثم أصبح كثير من النشاط الشعري في تلك المراحل نوعا من التسلية الفارغة والتظرف والتندر الشخصي، وإظهار البراعة في رصف الألفاظ دون كبير طائل، وصرف الجهد وإظهار الحذق في تأليف الأشعار التاريخية التي تخلد حادثة من الحوادث. وكان من أثر ذلك كله أن طبعت الصناعة الشعرية بطابع من التفاهة والسطحية يبدو في تفكك بناء القصيدة، والتجاء الشاعر في تنقله من غرض لآخر في قصيدته إلى أنواع من التخلص عديمة القيمة الفنية، كما يبدو في عدم الإحكام اللغوي وفي عامية الأسلوب في كثير من الأحيان"[1].

أما الفئة الأخرى فقد التفتت إلى القصص والملاحم الشعبية القديمة، وكانوا يحفظونها ويزيدون فيها، ويريدون الابتكار في فن الزجل والموال، ويسعون إبلاغها إلى مسامع الجمهور في القهوات والموالد والاحتفالات الشعبية وفي بيوت العمد وأعيان الريف. وكانت العامة تنصرف إلى فن هذه الفئة لقلة حظها من الثقافة والحضارة والعلم والمعرفة، إعراضا عن معرفة المحسنات البديعية التي أثقل بها الشعر الفصيح.[2]

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص238، نقلا عن معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها ج1 ص89.

[2] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص379.

وفي نفس الوقت نجد شعراء الفئة الأولى منقطعين عن المجتمع المصري وبعيدين عن الحياة العامة السائدة المتواجدة في البيئة المصرية، وعلى العكس نجد الفن الأدبي للفئة الثانية ناتجا عن مشكلات الشعب وآلامه وأحزانه، يعبر في صدق وإحساس عن الحياة المصرية وما فيها من آلام ومصائب، ومن ظلم واضطهاد ومن أمل في التخليص من الاستبداد والاضطهاد، ذلك لأن الأدباء النابغين الذين لم يجدوا التشجيع من الأغنياء وأعجمية الحكام لسبب جهلهم فزحفوا إلى الأحياء الشعبية والقرى واضطروا إلى تسهيل مستواهم اللغوي لكي يفهم كلامهم عامة الشعب والفلاحون والتاجرون، وأصبح لازما وضروريا لهؤلاء الشعراء والأدباء من أن يعبروا عما يحسه جمهورهم ويتكلموا عن المشاعر والأحاسيس التي يجدها ويعاني بها عامة الناس وخاصتهم حتى يجدوا لديهم الكرامة والعزة وحسن الاستماع.

عندما طلع البارودي على الأفق الأدبي لهذا العصر الحديث غيّر اتجاه الشعر العربي والنزعة الشعرية التقليدية بما أنه كان يتمتع بصفاء الفطرة ونقاء الذهن وكمال الاستعداد والثقافة إنه جاء بشعر رقيق شريف الغرض موفق الزوي متلائم النسج حسن العرض مطروح العبارة إلى حيث تشير القلوب، فكان الملهم الذي بعثته ربة الشعر ليخرج الشعر العربي من ظلمات الهاوية، ويبعثه من جديد، جاء البارودي لكي ينفض عن الشعر العربي قيوده وما يحف به من أشواك البديع، ويعود به إلى أجوائه الحرة، ويتغنى به كما يتغنى البلبل بصوته والشاعر بترنمه.

وهكذا أخذ البارودي يرسل أنغامه الملتهبة ويعبر بها خلجات نفسه، تارة يشكو الهوى وتباريح الغرام وتارة يفخر، وقلبه معلق بمجالس الأنس واللهو، كذلك مضى مدة، ثم عكف على وصف الحروب والمعركات، ونراه يقتحم بشعره معركة أمته السياسة، ويسجل أمجادها التاريخية وبسالة أبنائها الشديدة. فقد حدث تحول في أشعاره، إذ أخذ يبث فيها شكوى مريرة من بعض معصريه الذين اختلط بهم. ثم حدثت كارثة المنفى وابتعاده من وطنه العزيز ومن زوجته الشابة الحبيبة وأولاده الصغار، فأعول بالحنين الذي تتحرق به أحشاءه، وأخذ الأنباء تتري بموت أصدقائه وموت زوجته وإحدى بناته، وهو يمر بمعاناة الغربة وغصص الظلم والاستبداد، ولا مؤنس له سوى قيثارته يوقع عليها ألحان آلامه، وذكر ماضيه وحبه القديم، ونفسه القوية لا تنكسر أمام الأحداث مع أن جسمه ذبل وضعف بسبب المناخ غير الملائم، ولا يزال صوته يدوي بأناشيد الفخر والحماسة، ومال أخيرا إلى شعر الزهد.[1]

وكانت موهبة البارودي الشعرية واستعداده لقرض الشعر كالعين الصافية النقية التي تفجرت ثم أخذت تغذيها ينابيع تصب فيها ليظل فيضانها لاينضب، ولتذكي الشاعرية وتثري المملكة وتصقل الاستعداد، وتمده برصيد غني بالعواطف والأحاسيس تارة وبالثروة اللغوية والفكرية تارة أخرى. وكان من أهم هذه الينابيع :

[1] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث ص103.

ثقافته: لقد تثقف البارودي بالثقافة الحربية في المرحلة الابتدائية و المدرسية، وكذلك نعرف رصيده من الثقافة اللغوية والشعرية خلال هذه المدة، إنه كان ولوعا بقراءة أمهات الكتب العربية وشغوفا لمطالعة دواوين فحول الشعراء من السابقين، وحفظه المئات من عيون قصائدهم كما يقول شيخه حسين المرصفي " ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة، واستثبت جميع معانيها"، ولم يكن البارودي يقتصر على قراءة الدواوين وحفظها بل كان يدرسها دراسة أدبية، "ناقدا شريف معانيها من خسيسها، واقفا على صوابها وخطئها، مدركا ما كان ينبغي وفق مقام الكلام وما لا ينبغي". وبلغ في قراءاته للشعراء العرب درجة لم يبلغها أحد من معاصريه أو ممن جاء بعده، و مختاراته التي تقرب من أربعين ألف بيت لثلاثين من خيرة الشعراء العباسيين تدل على أنه قارئ استقصى دواوين شعراء العربية ليختار هؤلاء الشعراء من بينهم، ثم درس دواوينهم وما فيها من أبواب الشعر المشهورة. وقد كان وهو في وزارة الأوقاف – صاحب الدعوة إلى جمع المخطوطات من المساجد والتكايا والزوايا والمدارس، وجمعها في مكان واحد لتضم إلى دار الكتب، وذلك لشدة شغفه بجمع النادر من المخطوطات وقد أتاه له الوزارة أن يختار الكثير منها في فروع المعرفة المختلفة من مصر والآستانة[1].

وكان للتاريخ في نفسه المكانة التالية لدواوين الشعراء، فقد كان يعيش فيه مع قومه وآباءه، ويطير بجناح الخيل ليحي حياتهم، ويصل مجده بمجدهم وقد بلغوا

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص381.

الذروة، ودانت لهم الدنيا، وكان يضرب في بطونه بحثا عن نسبه وتحقيقا لتاريخ آبائه حتى استثبت فقال فخرا:

نمـــاني إلى العيـــاء فـــرع بأثلـــت أرومتـــه في المجـــد وافـــتر ســـعده

وبذلك تغذت قريحته وتهذبت سليقته الشعرية منذ نضارتها بالثقافة العربية القديمة، وبروائع الشعر العربي الكلاسيكي، وعاش في صحبة العلماء والأدباء والشوامخ من الشعراء، وقضت أيام شبابه مع الكتب القيمة ومع العلماء الكبار للأدب والشعر، وغنيت ذخيرة خياله الفني بكل رائق معجب من الصور والأساليب، وأصبح جزءا من ثروته اللغوية والأدبية، وامتزجت به حتى صارت له القدرة على التعبير.

وتكاملت سليقته العربية بنفس الطريقة التي كان يصطنعها الشعراء في العصور القديمة، وتسربت العروبة الأصيلة إلى أعماقه فطغت على جركسيته وغلبت عليها، ولم تذر منها إلا ظلالا باهتة تطفو كلما احتد مزاجه أو راوده هاتف الفخر والإباء.

ولم تكن الثقافة العربية هي كل ثقافته ومعرفته، فقد نهل من مناهل الآداب التركية والفارسية وتضلع فيهما ففتحتا له بعد أن تعلمهما مصاريع أبوابهما الثقافية والأدبية من النثر والشعر، ووجد في معرفة هاتين اللغتين متعة لعقله المدهش وذهنه الثاقب وثروة لفكره الوقاد وخياله الرفيع، واطلع بهما على

عالم أوسع يزيد من خبرات الحياة ومن آفاق المعرفة عنده، ولقحت ثقافته العربية بهاتين الثقافتين فتأثرت وتوهجت شاعريته المستكنة في أعماقه، وغنيت قريحته بأفكار واسعة لهاتين اللغتين ومعانيهما السامية، واحتكت شاعريته من هذا التأثر فظهرت ملامح الثقافتين التركية والفارسية في شعره. وانضم إلى هذه الثقافات والمعارف ثقافة التجربة والممارسة للحياة، في شبابه وحروبه ورحلاته إلى تركيا وأوربا وخارج البلاد ، و في مجال السياسة وفي غمار الثورة، ثم وافته الفرصة ليمضي سبعة عشر عاما في المنفى، قضاها فقرأ كل ما وصلت إليه يده من كتب علمية وأدبية ولغوية ودينية، وتعلم مبادئ اللغة الإنجليزية وترجم بعض موضوعاتها في العربية.

الفتوة: من الينابيع التي أثرت موهبة البارودي الشعرية، ووفرت له المعاني والمفاهيم والموضوعات والأفكار هي الفتوة والشجاعة والبسالة التي ورثها عن أجداده، فآثار البارودي وتاريخ حياته وشبابه وخلقه تشهد بأنه كان من أكابر "الفتيان"، وفتوته فتوة أصيلة تأخذ وقودها من القلب والروح، فهي التي أشقته بالمجد ودفعته إلى الثورة على الظلم والاستبداد بعد أن شاك مسمعه أنين الجور، وحل عرى جفنه رؤية وجه الغدر ، وهي التي أشقته بالناس و بالدنيا.

ففتوة البارودي، كما يصف علي الحديدي، هي "الفتوة المصرية" بكل معناها حيث إنه غنى بالحنين إلى روضة المقياس، وشدا بصبوات القلوب على شواطئ النيل، وصدخ بذلك في عصر كان الغزل فيه فنا لايليق بعظماء الرجال، فكان بذلك

أول شاعر في العصر الحديث يجعل لشطآن النيل عند المحبين مكانا في ضمير الوجود ، وليس هناك أطرب للنفس ولا أشد إسعادا لها من التغني بأوطار الأرواح في مثل معاهد الجيزة والجزيرة والروضة و شبرا وحلوان[1].

وفتوة البارودي وبسالته القوية هي التي جعلته في حبه فتى فاتك الصبوات في قدسية وجلال، عرف في الحب شريعة وجدانية فلم يتردد في اعتناقها ولو كان رئيس الوزراء، و نظر إليه بعقلية "الفتى" فوجده جذوة روحية تصل صاحبها بسرائر الوجود وترفعه إلى أوج الخلود وأرفعه، وليس نزوة شباب يطلب منها المتاب. وهي التي جعلته في مجالس الشراب فارسا يستمتع بالصحاب والساقي والشراب قبل أن يناديه داعي الحرب فيذهب وقد لا يعود.

وحينما نلفت أنظارنا إلى صفحات أخلاق البارودي وخلقه الكريمة والخصائل المحمودة نجدها أنصع صفحات "الفتوة" عنده، صرامة في الإدارة والعزيمة، وحب للوفاء، وبر بالعهد والوعد، وعفة نفس ترتفع عن الريب والشك، وحب للعدل والإخاء، وبغض للنميمة والغدر والمداهنة. وننطر إليه من حيث رجل سياسي وثوري فنراه "فتى" لايقبل أن يتنصل من تبعة الثورة فيعرض عن طريق المداهنة، وتأبى عليه فتوته أن يقف هذا الموقف البغيض الكريه، وشارك إخوان المعركة وزملاء الجهاد سراءهم ضراءهم، واستسلم لحكم القضاء في سبيل الوفاء. وعند حكم عليه بالنفي لم يفتقر إلى طلب العفو والمعذرة، ولم تسمح له نفسه أن يتوب عن

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص383.

العطرسة أو ينزل عن كبريائه وعلو شأنه، فيقول وهو في عذاب النفي وألم الاغتراب بكل شجاعة وحماسة :

عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش بهـا بطـلا يحمى الحقيقـة شـده

وإنـي امـرؤ لا أسـتكين لصولـة وإن شـد سـاقى دون مسـعاي قـده

ولذلك أصبح البارودي بفتوته العربية وشجاعته القوية الأسطورة المصرية في القرن التاسع عشر ، والفارس العربي المثيل في العصر الحديث. ويعرف بالأمير عند صحبه ورفقائه، فقد كانت الأريحية المصرية ملء بريده، وكان بطبيعة نفسه من الأمراء بغض النظر عن مجده الموروث، فكان شجاعا فتاكا قويا شديدا.

العنصر الشركسي: ثالث الينابيع لتكوين شخصية البارودي شاعريته هو ميراثه من "العنصر الشركسي"، فجعله حاد المزاج سريع الثورة والغضب متطرفا في الحب والكره، فتورى موهبته كلما طارت به فورة شركسية، وهي التي مدت له في آفاق الأمل فجعلته يربط مجده بأمجاد السالفين من آبائه فيصوب سهمه إلى الثريا، وهي التي ملأت عطفيه شعورا بذاته حتى لتكاد ترى ضمير "الأنا" في كل قصيدة له وفي كل بيت من شعره. وارتقى في التعبير عن الشخصية حتى أبرز لنا متاهات نفسه وأخرج لنا مكنون القدرات المستورة في أعماقه من حس ولذة، وغضب وبغض، وحب وود، وثورة وشدة، وعذاب وألم. ونجد الفخر والمباهاة عند البارودي على الأقران ومعاصريه ويباهي بالإنجازات التي أحرزتها فروسيته، فيقول:

وإني أمرؤ لو لاالهوى ما وجدتنى أديـن لغيـر الله أو أرهـب العــدوى

إذا مادجى خطب ، وبادرتي تروى إذا مادجى خطب ، وبادرتي تروى

وعندي إذا مالحرب ألقت قناعها عزيمـة ليـث مـا تهـر ومـا تعـــوى

ويدفع عنصر الشركسية في شعر البارودي إلى المجد والفخر والبهاء، حتى "تصبح آماله أوسع من رحاب مصر، وحتى يصبح محمود الجلال كأنه على كل نفس في الزمان أمير، و يمتزج الفخر بروحه أو يصير خلاصة روحه العالية الوثاية. وليس بغريب أن يلازم الفخر شاعرنا البارودي طوال حياته ومدة زمانه، فإن فارقه سيفه في كل حياته وشعره، فقد ظلت قيثارة الشعر تصادقه وتعزف له حتى يتسم الذروة بين الشعراء من لهجة أنيقة وقريض مجيد ما لا يجتمع قبله من الشعراء إلا القليل فيقول :

أحكمــت منطقــة بلهجــة مفلــق يقـظ البديهـة في القـريض محكـم

شـعر جمعـت بـه ضـروب محاسـن لـــم تجتمـــع قبلـــي لحـــي ملهـــم

الحرب: وأما الينبوع الرابع الذي نجد في شعره وقريضه فهو الحرب والمعركة، التي انسابت في موهبته الشعرية. فشوقه الزائد للمعارك دفعه ليخوض المعارك في كريت، أو ليواجه الجيوش في فجاع الأراضي البلغارية والروسية، أو ليلقى العدو منفردا في معركة القصاصين قد أذكى شاعريته فأمدتنا بدرره الخالدة. "وحائية " البارودي "ودالياتاه" في وصف الحرب الروسية، "ودالية" أخرى

"ونونيته" في وصف الحرب بجزيرة كريت مازالت كل قصيدة منها أعجوبة من عجائب الشعر العربي كمايصف علي الحديدي ويقول: "ولو سمعها أبو فراس لسجد لها سجدة الإجلال والإعجاب. وقصائده الأخرى في الحرب تدل على أن روحه وشاعريته كانتا تتجاوبان معه في المعارك فتمنحه الاقباس التي لاتصدر إلا عن الفرسان الصناديد، وتظهر فروسيته حتى في الهزيمة فلا يكون إلا آخر المنسحبين حين يكون الثبات أمام العدو تهورا وجنونا".[1]

الحرب والخوض فيها هي سبيل المعالي وطريق المجد عند البارودي ، ومن ثم هام بها واشتاق إليها، فهو المولع بالمجد والمفتون بالمعالي، واستعذب في سبيلها مذاق الموت وهو كريه، وتلذذ بآلام القتال وهي مهلكة كما يقول مشتاقا للحرب والمعركة وحنينا للموت والشهادة :

وإن الـتي يشـتاقها القلـب غـادة لهـا الـرمح قـد والمهنـد معصـم
إذا راسـلت كانـت رسـالة حبهـا بضرب الظبا توحى وبالطعن تعجم
لها من دماء الصيد في حومة الوغى شراب، ومن هام الفوارس مطعم
علقـت بهـا، وهي المعـالي، وقلمـا يهـيم بهـا إلا الشـجاع المصـمم

مصر: وأما الينبوع الخامس فهو الوطنية أو "مصر" التي أمدت شاعريته بفيض لاينفد من النور، فافتتن بحبها طوال حياته فحبه للوطن وشوقه لبلده مصر

[1] علي الجديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص388.

يتجلى في قصائده وأبياته حتى أصبحت الوطنية "فاتنته الكبرى"، وهو يقول محبا لوطنه ومعجبا بنسيمها:

بلـد نشـأت مـع النبـات بأرضـها ولثمـت ثغـر غـديرها المتبسـم

فنسـيمها روحي ، ومعـدن تربهـا جسـمي، وكـوثر نيلهـا محيـا دمي

هـي جنـة الحسـن التي زهراتهـا حـور المهـا، وهـزار أيكتهـا فـي

وقليلا ما نجد شاعرا عربيا تغنى بوطنه وغنى له كما فعل البارودي. كان يشتاق إلى مصر وهو منها قريب، يستمتع بكل ما فيها ولا يمل المتعة، ويصف جمالها و جناتها الفيحاء ورياضها الزاهرة، ونيلها الخالد فلا يمل الوصف ولا المدح، ويتغنى بمعاهد الهوى والحب والهيام على ضفاف النيل ولايكف عن الغناء والتغني، فيقول في روضة المقياس على النيل واصفا للنيل ورياحها العطرة :

ألا حي بالمقيـاس ريـا المعالـم وقـل لهـا منـا تحـي قـادم

أحاطت بها للنيل من كل جانب بضرب الظبا توحى وبالطعن تعجم

تدور مدار الطوق من حيث تلتقى مسـيرا و تنسـل انسـلال الأراقـم

إذا ضاحكتها الشمس رفت متونها رفيف الثنايا خلف حمر المباسم

وإن سلسلتها الريح أبدت سبائكا مقـدرة كالوشـم فـوق المعاصـم

كانت مصر فاتنة البارودي الكبرى في شبابه حيث عاش بين رحابها أجمل أيام عمره وحياته، وكان فتى فاتك الصبوات وابن كأس ولذة، شغف بها وبأمجادها

القديمة القريبة التي تتصل به بسبب قريب، وقد كان لأهله فيها سهم موفور حين رفعوا رايات النصر المصرية على الشام والأناضول، ويوم صدوا هجمات التتار وألقوا بالصليبيين في البحر المتوسط. وشغف بمجدها الموغل في القدم، فأنشد للفراعين وشاد بمجدهم، وتغنى بآثارهم الخالدة وعلومهم التي بقيت شاهدة على حضارتهم، فكان أول من تصدى لتيار الكراهية التي غرسها فينا الوهم الديني والتفسير الخاطئ لقصص الرسل، حيث أخذ الفراعنة جميعا على مر العصور بجزيرة فرعون واحد لم يؤمن بموسى، كان البارودي أول من حول تيار الكراهية عنهم واتجاه الكره عنهم، واستبدل به تيار التقدير والإجلال لعلومهم و مآثرهم على الإنسانية، ومن قوله في مجد الأهرام والفراعنة:

فانظر إلى الهرمين الماثلين تجد غرائبا لا تراها النفس في الحلم

صرحان ما دارت الأفلاك منذ جرت على نظيرهما في الشكل والعظم

تضمنا حكما بادت مصادرها لكنها بقيت نقشا على وضم

فكم بها صور كادت تخاطبنا جهرا بغير لسان ناطق وفم

الحب: والينبوع السادس لشاعرية البارودي هو الحب وما له من أحاسيس وعواطف. فقد صاغت تجاربه العاطفية صورا يصف فيها الجمال الذي يستمتع به والشعور الذي يخامر قلبه من سعادة وشرف، وعذاب وألم، وهجر ووصال، ويشدو بها قيثارة شعره ويخرجها إلى الحياة فتبقى.

وقد تنقل البارودي في هوى الغيد الحسان وكابد الغرام الحقيقي مع أكثر من حبيبة في سنوات شبابه، فكانت هناك "ظبية المقياس" و "مهاة شبرا" و "غزالة الجزيرة" و"ليلى حلوان"، تصله واحدة فيطرب، وتمطله أخرى فيتعذب، وتمرض ثالثة فيفديها بنفسه، وترحل رابعة فيحيل رحيلها حلاوة الحب ألما والتياعا. وإذا ما نعم بحلاوة الحب سال نغما يتدفق سلاسة وجمالا، وإذا عذبه الصد صاغ الألم في عواطف لاذعة تظهر لوعته وأساه. ونقرأ غزليات البارودي الحقيقية فتنفذ إلى قلوبنا، وتصل إلى أعماقنا، وتتجاوب معها مشاعرنا، وتشركنا في آلام نفسه وملذات قلبه لأنــه يصور واقعا تنبض به أحاسيسه و يذوب لها قلبه[1].

منهج البارودي:

كان الشعر مكبلا بتكبيل المحسنات اللفظية ومقيدا بضآلة المعاني والمفاهيم، فكانت حالة الشعر رديئة والجو السائد غير ملائم للشعر والشعراء، وكان الشعراء يقومون بالتمرينات الشعرية التي جعلت الشعر صنعة بدلا من الفن. رفع البارودي الشعر بمؤهلاته الشعرية إلى أرفع الغايات وإلى أوج الخيال والفكر وقام بتصحيح الشعر من حيث الفكر والفن والموضوع. لقد سلك البارودي في ثقافته الأدبية وشحذ ملكته الشعرية الطريق الطبيعي، وذلك بحفظ الجيد من كلام العرب، واستظهار حكمهم وأمثالهم، ودراسة تاريخهم وعاداتهم، فلا عجب أن جاء مذهبه الشعري متأثرا بمذهبهم فالشعر عنده ليس صنعة، بل إنما هو خطرة ذهنية

[1] علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، ص394.

ينفعل بها الفؤاد، فيتحرك اللسان معبرا عن خلجاته، والخطرة الذهنية تأتي مثلا من نظرة إلى شيء جميل، أو شيء يبعث الرثاء والأسى، وقد تكون خطرة ذهنية مجردة عن الأثر الخارجي، هذا التعريف يتمشى مع مذهب العرب في الشعر، وهو أنه لمعة خيالية تومض لها إيماضا، فتأتي هذه الخطرات الخيالية غير متصلة، وغير مرتبطة بعضها ببعض في حلقة متماسكة، أو قصة محبوكة الأطراف أو خيال ممتد طويل في ملحمة من الملاحم أو مسرحية من المسرحيات تتتابع حوادثها، وإنما هي ومضات تتألق تألقا، فيتضح المعنى الجزئي تمام الوضوح في بيت أو أبيات ضمن قصيدة لا تربطها وحدة فكرية.[1]

وأما الشعر الرائع الجيد في رأي البارودي "ما كان قريب المأخذ، سليما من وصمة التكلف، بريئا من عشوة التعسف، غنيا مراجعة الفكر" هذه صفة الشعر الغنائي، وهي سمة الشعر العربي غالبا، ليس فيه بعقيد الفكر، وحشد القضايا المنطقية، والفكر المجرد عن الشعور والإحساس والمعاني المتوغلة في العمق، والآراء الفلسفية، كما نرى ذلك أحيانا عند أبي تمام والمتنبي، وأبي العلا كثيرا، والشعر في الحق ليس فلسفة ولا منطقا، وحسب الشعر أن ينادي القلوب ويهز العاطفة، وتطرب له النفس، وليس معنى ذلك أن يكون الشعر أجوف خاليا من المعاني، وإلا كان هواء.

فوظيفة الشعر لدى البارودي هي أن ترقق الحس والشعور وتهذب النفس البشرية فيقول" تهذيب النفوس، وتدريب الأفهام، وتنبيه الخواطر إلى مكارم

[1] عمر الدسوقي، محمود سامي البارودي ص35

الأخلاق". وقد ردد هذه المعاني في شعره وقصائده. بيد أن الشعر قد لا يؤدي وظيفة ما إلا التعبير عن شعور الشاعر، ثم إن البارودي لم يفطن إلى كل أغراض الشعر، وما يمكن أن يستخدم فيه، ولكننا لسنا بصدد هذه الأبحاث الآن، وحسبنا أن نقرر هنا أن البارودي في هذا التعريف الوجيز يعبر عن مذهبه الشعري، وقد راعاه إلى حد ما في ديوانه، ولم يخرج عنه إلا قليلا.[1]

وعلى الرغم من أن البارودي كان مطبوعا على قول الشعر، لاينتزعه انتزاعا، ولا يتعسف في نظمه، بل يتدفق على لسانه تدفقا، ويشعر القارئ كأنه يجري في رفق وهوادة ولين، غير قلق، أو مضطرب، أو متكلف، فإن البارودي كان من المؤمنين بأن الفن تهذيب وصقل، وجهد متصل، وتحسين مستمر، وأن الطبع وحده لا يكفي، ولذلك كان يتعهد شعره بالتهذيب والرعاية. وكان يهتف بشعره قبل أن يخرجه للناس، ويصغي إليه ما في عيوب الموسيقى، وانسجام الألفاظ بعضها مع بعض، والخلل المعنوي، والقافية القلقة، والحشو والزائد، وغير ذلك من عيوب الشعر، فيقول:

واهتـف بـه مـن قبـل تسـريحه فالسـهم منسـوب إلـى الرامـي

فجاء شعره شعرا يأخذ بمجامع القلوب من حيث موسيقاه، وتماسك أبياته، وقوافيه، وانسجام ألفاظه، وانتقاؤها انتقاء خبير ملهم. وكان البارودي يتخير الألفاظ المناسبة للمعاني، فيرق ويلطف في مقام الرقة واللطف كأن يتغزل، أو

[1] عمر الدسوقي، محمود سامي البارودي ص36

يعتب، أو يصف منظرا جميلا، أو مجلس أنس وسمر، ويجزل شعره ويجلجل لفظه، ويشتد أسره حين ينشد في الحماسة والفخر والمديح، وحين يصف البحر الهائج، والريح الزفوف، والحرب الضروس.

وعلى الرغم من كل هذه العناية، والتهذيب والصقل، فإن شعر البارودي لم يسلم من هنات، بيد أنها لا تزري به ولا تغص من شأنه، إذا اتبعنا آثارالبارودي وطبقنا عليها مذهبه الشعري بدا لنا في شخصيتين: شخصية الشاعر المقلد وشخصية الشاعر المجدد.[1]

المعاني والأغراض:

سلك البارودي في أول أمره سيرا مقلدا للشعراء القداماء، محاكيا لهم، معارضا أشهر قصائدهم، متشبعا بمعانيهم وأخيلتهم، مترسما أغراضهم من مدح، ووصف، هجاء، ورثاء، وعتاب وفخر. وقد حاكى القدماء في أسلوبهم وبداوتهم وذكر ديارهم، وهو مقلد في المعاني كما هو مقلد في الشكل والقالب، ولانستطيع أن نحصي معانيه القديمة لكثرتها.

الرثاء: لم يكن رثاء البارودي مفتعلا أو من شعر المناسبات، وإنما منبعثا عن عاطفة صادقة، ولم يرث إلا صديقا أو قريبا، وإذا استعرضنا مراثيه وجدناه يرثي أصدقاءه الأدباء الذين كانت بينه وبينهم آصرة محبة ووداد، وتقدير، وتتسم مراثيه بالمحاسن

[1] عمر الدسوقي، محمود سامي البارودي ص38

الجمالية والفنية حيث عالج فيها الفجع، وشكوي من الزمن والحياة والسخط عليهما بكل حسن وأناقة، وتتمثل الحزن الشديد دون مبالغة جارفة.

المدح: لم يمدح البارودي لكسب عناية الأمراء وأخذ العطاء، كما كان سنة الشعراء في ذلك الوقت، ولكنه درج درب الفارس الأبي، وقال الشعر للتعبير عن خلجات فؤاده. وهو إذا مدح الحكماء أو الأمراء لم يقصد بمدحه العطاء، وإنما مدح للتعريف بمنزلته أو الشكر على الخير أو الحث على مكرمة، ومديحه خال من المبالغات المذمومة، والنعوت الموهومة،هذا طبيعي لأنه لم يقصد بمدحه صلة أو عطية، ولهذا السبب نجد مدائحه قليلة جدا.[1]

الفخر: ونجد في الشعر البارودي كثر ة الافتخار، وهو يفتخر بنفسه وحسبه وشجاعته وفروسيته وبسالته، ويعد الدكتور شوقي ضيف الفخر من أهم البواعث الشعرية عند البارودي حيث قال : "هو مادة روحه، أحكمته فيه قراءاته في شعر الحماسة وانتظامه في المدرسة الحربية ثم في صفوف الجيش وكتائبه المدججة بالسلاح وقد انتقل منه إلى صفوف أمته، يحارب أعداءها من حكامها ثائرا في وجوههم، فحياته كلها حرب ونضال وسجال، ولولا وضعت في يده أغلال المنفى لظل يناضل حتى الدماء الأخير."[2]

الزهد: يرجع مضمون الزهد في شعر البارودي إلى تلك الحالات النفسية التي دفعه إلى اليأس والاستسلام أمام القدر، حيث إنه عاش في المنفى وحيدا يعاني بأنواع من

---

[1] عمر الدسوقي، محمود سامي البارودي ص43

[2] شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث ص103

الهموم والغموم، ولعل نفسه الطموحة مالت إلى الزهد مرغمة بتزاحم الكآبة والشدائد، وكل ما قاله في الزهد يتمثل المعاناة التي كان يعاني بها، فيتشاءم من الدنيا، ويتذكر الموت، وينوب إلى الله.

الحكمة: قال البارودي الشعر في الحكمة وأكثر في قوله وبالغ فيها وأجاد، واتبع فيه القدماء والحكماء ولم يأت في المعنى بشيء جديد ومبتكر بل صاغ المعنى القديم صياغة جديدة بأسلوبه الجزل الفخم، وقد ورد له كثير من الأبيات السائرة حتى صارت أمثالا كقوله في باب الحكمة:

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبب

وتتسم حكمته بسهولة الفهم، ليست فيها فلسفة عميقة، ولا تمثل مذهبا خاصا في الحياة أو نظرة عامة شاملة للكون، وإنما هي نظرات عابرة ليس فيها تحليل دقيق.[1]

الوصف: لقد احتذى البارودي في البداية حذو القدماء في شعره، فقلدهم في الأغراض والمعاني والأخيلة، ولكنه جدد في المحاكاة، وله تجديد ملموس في التعبير عن شعوره ووجدانه، فابتكر المعاني الجديدة، واتخذ الأسلوب مع الطابع الشخصي وأفرد له، إنه يصف الأغراض القديمة بأسلوب جديد، ولم يصف لمجرد الوصف، بل إنما وصف لأن حواسه المرهفة وتذوقه للجمال تدفعه إلى قول الشعر، ويدعو طبعه الشعري إلى وصف مشاهداته، فأتى بشعره وأفكاره أمثالا رائعة في وصف المشاهدات.

[1] عمر الدسوقي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص44

يعتبر البارودي من طليعة أولئك الشعراء الذين أحرزوا قصب السبق في وصف مظاهر الطبيعة كلها؛ الليلة العاصفة، والريح الزفوف، والسماء الحالية بالنجوم، والبحر الهائج، والجبل والغابة، والريف الهادئ الوادع، والزرع والحقول، والنيل، والطيور والقطار وهلم جرّا. لقد أتقن البارودي في الوصف، ويبدو للقاريء كأنه يتراءى له المنظر أمام عينيه.[1] نقدم هناك مثالا رائعا لوصفه الملاحم الحربية، وصف فيه حرب القرم وما دار فيها من وقائع بين الترك والروس ومن معهم من أهل البلقان يصف المنظر كما إنه ماثلا أمام عينيه:

أدور بعيـــني لا أرى غـــير أمـــة من الروس بالبلقان يخطئها العد
جـواث على هـام الجبـال لغـارة يطير بها ضوء الصباح إذا يبدو
إذا نحن سرنا سرح الشر باسمه وصاح القنا بالموت واستقتل الجند
فأنـت تـرى بـين الفـريقين كبـة يحـث فيهـا نفسـه البطـل الجعـد
على الأرض منها بالدماء جداول وفوق سراة النجم من نقعها لبد

ونرى أن البارودي يلازم السيف والقلم معا في صورة مواظبة، فكأنه شاعر في حالة الحرب أيضا، ويلجأ إلى التعبير عن خلجات نفسه عندما أتيحت له الفرصة عن أمور القتال، كذلك يتمثل فارسا في سلمه، وتتضح صفته هذه في شعره جليا، ويباهي بهذه ويقول مادحا نفسه وشعره:

[1] عمر الدسوقي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص46

أنـــا مصـــدر الكلـــم النـــوادي بـــين الحواضـــر والبـــوادي

أنـــا فـــارس أنـــا شـــاعر فـــي كـــل ملحمـــة ونـــادي

فـــــإذا ركبـــــت فـــــإنني زيـــد الفـــوارس فـــي الجلاديـــا

وإذا نطقـــــــت فـــــــإنني ي قـــس بـــن ســـاعدة الإيـــادي.[1]

ومن نافلة القول وخلاصة المقال أن البارودي كان شاعر العصر الحديث وفرسانه، له موهبة فياضة جعلته يحمل رأية تجديد الشعر العربي بعد ركود طويل وتدهور كثير، وجمود قرون عديدة، حتى نجح في إنشاء جيل جديد للشعراء الذين بلغوا بالشعر العربي آمادا جديداة وآفاقا حديثة، وأخرجوها من القدامة إلى الحداثة و من الانحطاط إلى الرقي، و من الجمود إلى الحركة.

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص184.

الفصل الثاني

كاموئنس فنه وأسلوبه

تشكل حياة كاموئنس Camoens جزءا أساسيا من تاريخ الشعر البرتغالي، باستثناء دانتي (Dante) ليس هناك شاعر من الدرجة الأولى عبّر عن أحاسيسه ومشاعره تعبيرا كاملا بالإضافة إلى معالجة الأحاث والوقائع التي شاهدها في حياته، لايمكن فهم شعره فهما تاما إلا باستيعاب حياته من كل نواحيها لأن ميزات شعره هي انكاس من شخصيته تماما، ومع ذلك لا ينبغي لنا أن نحكم على شعره بأنه يتمحور حول فكرته الشخصية، هو من أبز شعراء البرتغال وأعظمها عبر العصور، ويحتل مكانا مرموقا في الآداب البرتغالية حتى فوض إليه لقب O Grande "الأعظم"، ربما ينظر إليه القارئ الخارجي بنظرة العجب والحيرة حيث إنه لايعرف عنه في العالم الخارجي إلا اسمه، فمن الانصاف أن يعتبر كاموئنس للبرتغال كما يعتبر هومرس ليونان، فهو أكثر شعرا وأشد وطنية، إنه جمع كل المصالح الوطنية مع الكال الفني والشعري الذي يتجلى في "لوسيادا".

وجدير بالذكر أن كاموئنس قد أحسن في معالجة الأساليب والنزعات الشعرية التي نشأت في إيطاليا ولم تترسخ جذورها في البرتغال بعد، في مثل هذه الأوضاع بدأ تخطيط ملحمته، وفي الحقيقة لايوجد أي عمل شعري أو ملحمة

شعرية تساوي "لوسياد" كاموئنس ما عدا مؤلفتي بوجاردو (Bojardo) و أريوستو (Ariosto). كان كاموئنس أول متجدد برتغالي أكمل قصيدة بطلية جدية بنجاح. مع كل المساعي لنموذج الكمال الكلاسيكي إنه كان برتغاليا يمتلك الحيوية والحماسة الوطنية، إن كتاب "لوسيادا" يعد من أجمل الأعمال الشعرية على الرغم من الانحراف عن القواعد والأساليب الكلاسيكية.1

لقد أتقن كاموئنس في كل الأصناف من الشعر التي طبع فيها من مدح وقصيدة ومرثية وسونتية، ولكنه ارتفعت مكانة "لوسيادا" بالنسبة إلى أعماله الأخرى، هوشعر ملحمي يختلف عن سائر الملحمات في البناء والأسلوب حيث قد اتخذ في كتابة هذه الملحمة منهجا جديدا كليا. فقد اتبع نموذجا قديما في البناء غيرأنه حاكى أسلوب المقاطع الشعرية الأنيقة من الشعر الإيطالي محاكاة جيدة، ولكن الفكرة البطولية نتجت عن ممارسته الفكرية فحسب. هدف كاموئنس من هذه الملحمة هو سرد الإنجازات للأبطال البرتغاليين في شكل شعري، ولم يقصد تقديم تقرير رسمي منظوم كما فعل أروكانا (Araucana) الإسباني.

العنوان الذي اختاره كاموئنس لهذا العمل الشعري البطلي يشير إلى كيفية الموضوع وطبيعته، Os Lusiadas بمعنى أولاد Lusus أو البرتغاليون، في اختيار هذا العنوان إنه اتبع شعراء عصره حيث يبدو لهم الاسم العام لبلادهم غير ملائم للشعر، ويمكن إدراك مضوع هذه الملحمة بفهم عنوانها فحسب، وجدير بالذكر أن

[1] Frederick Bouterwork, History of Spanish and Portuguese Literature v.II p150

لوسيادا ملحمة تختلف من الملحمات الأخرى التي تدور حول بطل واحد تمدحه وتمجده، فاستغى كاموئنس عن اختيار بطل رئيسي يغطي الأبطال الأخرى بإنجازاته الهامة، ربما تعرض جمال الملحمة لنقص بسبب هذه الحبكة، حيث فقد هذا الانتاج حيوية المجموعات من الممثلين حول البطل الرئيسي. لذلك لاتبلغ لوسيادا إلى حد الكمال الفني للقصائد الملحمية كما بلغت Illiad "إليادة". بصفتها قصيدة قصصية تعالج كل الوقائع والأحداث المهمة في البرتغال، فاتخذت الواقع الذي يمثل فترة ذهبية في تاريخ البرتغال كنقطة مشتركة لكل الأجزاء المختلفة. وفي الحقيقة كشف فاسكو دي جاما Vasco de Gama الطريق البحري إلى الهند لا يعتبر إنجاز بطلي بنفسه من هذه الناحية، ولكنه إذا عرض مثل هذا الإنجاز في حين أحيط بالمغامرت والخوارق يصبح أمرا بطوليا قابلا للافتخار، كذلك جعل كاموئنس هذا الواقع قاعدا لوحدة القصيدة، ويتمثل فاسكو دي جاما في هذه الوحدة بوضوح إلى حد ولكنه لايظهردوره ممتازا من أدوار الآخرين.[1]

يمكن اعتبار "لوسيادا" ملحمة وطنية تصور مجد البرتغال وبهائها وراء حدود ها الحقيقية، ومبادئ التشكيل بسيطة جدا، قد استخدم كاموئنس جمال الخوارق للعادة إنه قدم عرضا أسطوريا بعد المقاطع الشعرية الإبتدائية، وفاسكودي جاما كان قد عبر رأس الرجاء الصالح متوجها إلى سواحل أفريقا ويصل إلى البحور الهندية، ويجتمع الآلهة في أوليمبوس Olympus لقضاء مصير الهند،

[1] Frederick Bouterwork, History of Spanish and Portuguese Literature v.II p153

يشكل كوكب الزهرة وباخوس فريقين، أولهما يدعم البر تغاليين وآخرهما يقوم ضدهم، في تطبيق هذه الرمزية يتمتع كاموئنس بافتخاره الوطني بصفة البرتغال أرضا للحب والهيام ونقية من شرب الخمر، كانت هذه الصفة وجه افتخار وطني عنده في ذلك الوقت. وتعالج الزهرة البرتغاليين كالرومان الجدد وتساعدهم كما ساعدت الرومان في العصور القديمة، ولكن باخوس يستعد لحملته ويكون لهم بالمرصاد في كل حين وآن، يبرز دور المريخ، إله الحرب، من أولئك الآلهة الذين هم يساعدون البرتغاليين، عندما يصل أسطول فاسكو دي جاما إلى سواحل إفريقا يبذل دي جاما مساعيه للأواصر الودية مع سلطان ممباسا Mombaza، ولكن باخوس يتحول في صورة الناسك المسلم ويدبر مؤامرة لتخريبهم في ممباسا، فتسرع الزهرة إلى كشف الستار عن هذه المؤامرة وتحميهم عن هذا الخطر في الوقت، إنها ناشدت المشتري في حق البرتغاليين واستجيب دعائها، فينبه عطارد فاسكودي جاما في المنام عن هذا الخطر فابتعد عنه ويبحر نحو مملكة ملندا Melinda في أفريقا، وسلطان "ملندا" هو أيضا مسلم استقبل دي جاما استقبالا حارا، هناك يربط كاموئنس الموضوع بالحكايات التي تعتبر الحبكة لـ"لوسيادا". وبناء على طلب سلطان ميلندا يحكي فاسكودي جاما الوقائع المهمة من تاريخ البرتغال ويختتم بحكايات الافتخار الوطنية بالإضافة إلى وصف رحلته حتى وصوله إلى ميلندا، ويصبح السلطان صديقا حميما لهم، ويستأنف هنا النضف الآخر من القصيدة الملحمية، ويتوجه دي جاما مع رفقائه إلى الهند، وينزل باخوس إلى إعماق البحر

واستنجد الآلهة في مملكة "نبتون" Naptune لتدمير الأسطول البرتغالي قبل وصوله إلى الهند. وفوجئ الأسطول البرتغالي بعاصفة عنيفة وحاصر خطر الموت دي جاما ورفقائه من كل جانب وكاد الأسطول البرتغالي أن يفنى وكاد باخوس أن ينجح في دسائسه، ولكن تظهر الظهرة فجأة في هذه اللحظة الحرجة، وتدافع عن الخطر، ويبلغ البرتغاليون إلى كاليكوت على سواحل ملبار، لقد رحب سامري Zamorim سلطان كاليكوت دي جانا ترحيبا حارا في البداية، هنا ينتهز كاموئنس الفرصة لوصف الأحداث التاريخية البرتغالية في أسلوب شعري جميل ويجعل باولو دي جاما Paulo de Gama أخا أمير البحر يقوم بتفسير المهمات والرغبات لهذه الرحلة البرتغالية أمام حاكم كاليكوت في وضع سلمي، فما لبث "باخوس" أن يلعب دوره ويثير في ذهن سامري Zamorim الشك تجاه فاسكودي جاما، ونتيجة لذلك قد أصبح الأسطول البرتغالي معرضا لخطر التدمير مرة أخرى، ولكن قد تم الإنجاز لغرض هذه الرحلة، فأمر دي جاما برفع المرساة ورجع إلى أوربا.

وأثناء رحلتهم إلى الوطن تعقد لهم الظهرة حفلة مباركة بجزيرة خيالية، وتقع الحوريات في حب البرتغاليين، وتتقدم الحورية "ثيتيس" تعرض نفسها كعروسة لفاسكودي جاما، ويغتنم كاموئنس هذه الفرصة الأخيرة لرسم مشهد الافتخار الوطني للبرتغال حيث تسرد حورية سماوية الانجازات البارزة التي قام بتحقيقها

القادة البرتغاليون في الهند، وترفع ثيتيس مع دي جاما إلى قمة جبل شامخ وتفسرله المواقع الجغرافية للدول المختلفة بوساطة كرة أرضية ساحرة.1

وظهور المعارضات لقصيدة ملحمية مثل لوسيادا طبيعي لأنه لايمكن تعيين مكانتها وشوكتها بدون معرفة عن الحبكة العميقة جذرها في تشكيل كيانها. وينبغي لمؤرخ الشعر البرتغالي أن لا يكتفي بوصف لوسيادا أجمل القصائد عبر العصور، بل عليه أن يقدم للقارئ تحليلا مختلفا من كل ناحية تسطع الضوء على جمالها الفني.

المقاطع الشعرية الاستهلالية تربط الانسجام مع المقاطع الأخيرة بحسن ودقة. "الأبطال الأقوياء الذين تشكلوا قوة بسواحل غربية لوسيتانا Lusitania (اسم قديم للبرتغال)، وتغلغلوا وراء تابروبانا Taprobana عن طريق البحر الذي لايوجد له مثيل في التاريخ، إنهم قاموا بإنجازات مستحيلة للقوى الإنسانية مواجهين الإخطار المفزعة، وأنشأوا مملكة في المناطق النائية، والانجازات التي قامها أولئك الملوك يرهبون أعداءهم ويبسطون نفوذهم في المناطق البعيدة الآسيوية والإفريقية، لقد خلدت هم أعمالهم البطولية إلى الأبد".

As Armas, e os Baroens assinalados,

Que da Occidental praia Lusitana,

Por mares nunca d'antes navegadas,

Passaram ainda alem da Taprobana,

[1] Frederick Bouterwork, History of Spanish and Portuguese Literature V. II p182.

Que em perigos e guerras esforcados,

Mais do que promettia a forca humana.

Entre gente remota edificaram

Novo Reino, que tanto sublimaram

E tanbem as memorias gloriosas.1

لقد تأثر كاموئنس من فكرة "فيرجيل Virgil، ولكنه يمدح في المقاطع الابتدائية أبطال وطنه الأم من حيث الكل ولا يتميز أحدا منهم، هذه هي الميزة لـ "لوسيادا" التي تتميز بها من "إلياذة". كذلك يتواصل تدفق حماسي يغلب عليه الطابع الوطني بدلاعن الطابع الفني أوالشعري، يقوم فيه بمدح الملك "سيبستيان" King Sebastian، الذي يشمل ستة عشر مقطعا، القارئ هناك يدرك بسهولة بأنه لاينبغي له أن يبحث في لوسيادا عن الكلاسيكية الكاملة في أسلوبها ومعناها، إنها تنحرف عن المعيار الفني الكلاسيكي إلى حد، ولكننا نجد هناك شيئا يعبر عن حماسة الشاعر ووطنيته تبعث المشاعر المتعاطفة، و تجذبنا لغتها البليغة الرائعة، عندما تستأنف الحكاية يتشكل التكوين الشعري مع ذلك.

ويترك "لوسيادا" على ذهن القاريء انطباعات دائمة، ويمكن له تحديد المواضيع المهمة التي عالجها كاموئنس فيه بسهولة، والمواضيع هي تمجيد الدولة، ووصف البحر، والحكايات الأسطورية، ودورالانكشافات وروح النهضة والمجهودات العملية في الحياة.

[1] Luis de Camoens, Os Lusiadas, p1

عندما ندرس لوسيادا نجد نزعتين متساويتين يجريان معا، هناك نزعة وطنية ونزعة الحب، وكلا النزعتين تتضحان بمزاياهما، على سبيل المثال تحريض الملك دوم سابستيان Dom Sabestian، وحرب "أوريك"، وحرب "الجبروتا"، وأماني دوم إمانويل Dom Manuel، ورحلة فاسكو دي جاما من باب المندب ومروره برأس الوجاء الصالح، كذلك تتجلى هناك نزعة الحب عنما تظهر الزهرة أمام المشتري في الكانتو الأول، وإجنيز دي كاسترو Ignez de Castro، في الكونتو الثالث، وأدماستر Adamaster في الكونتو الخامس، وتشكيل كيوبد Cupid و جزيرة الحب Isle de Amore.[1]

ميزات الشعر الغنائي:

إنه يقرض شعره الغنائي في ضوء انفعاله وأحاسيسه وخبراته الشخصية، ليس انتاجه إلا طيف ما يجول في خياله فحسب، وهو يحاول تحويل عواطفه في الكلمات والألفاظ، والناس الذين ليس لهم أدنى إلمام بمصادر المعرفة لايجدون منه إلا رمادا من حدة انفعاله ووجدانه. فميزات شعره الغنائي المهم كما يلى:

(ألف) المحاكاة؛ كما هو يحاكي شعراء اليونان والروم كما هو يحاكي بترارك خاصة في الأوزان والبحور والقوافي.

(ب) وصف المرأة؛ المرأة تحتل المكان الرئيسي في شعره الغنائي، إنه يصف المرأة كما يصف بترارك " لورا" مع الميزات والخصائص النادرة بما فيها الجمال والحب

[1] Joaquim Nabado, The place of Camoens in Literature p 8

الأفلاطوني. إنه يستعمل نفس الصفات والاستعارات ويسلك طريق الكلاسيكية بهذا الصدد، على سبيل المثال يصف الشعر الذهبي والعين الزرقاء والوجه المشرق.

(ج) المواضيع: الحب؛ يمثل الحب والغرام تجاه المرأة، فإن هذه المرأة ليست امرأة عامة بل هي امرأة مثالية، يقع في حبها عند نظرتها الأولى ويتخذ الحب طريقه من النظرة إلى القلب ويتمكن فيه ويحدث في حياة المحب قلقا و اضطرابا فيعيش بين الرجاء والخوف الذي يدفعه إلى خيبة العمل.

الحظ والقدر؛ يتصور في أول الوهلة بكونه مضطهدا من قبل القدر، ولكنه يقبل أخطاءه الإنسانية، وينسب كل نائبة إلى القدر ولكنه في نفس الوقت ينسبها إلى ما كسبت أيدي الناس. والمواضيع الأخري التي تحتل مكانا أقل أهمية تتعلق عامة بالموضوعين السابقين.

Redondilhas

تعتبر Redondilhas من إحدى الانتاجات الشعرية من القرن الخامس عشر، وله أثر بالغ في الشعر الغنائي، هذا الصنف من الشعر قد نال القبول بين الأوساط البرتغالية ذلك الوقت وهو يتعلق بالأغاني الشعبية، يستخدم فيه العامية الموضوعية إنما هو أكثر حرا من القيود والأغلال الشعرية.

أما النزعات الشعرية عند كاموئنس فيمكن أن نعكف على اتجاهين في شعر لوئس دي كاموئنس، ولايختلفان هذان الاتجاهان فحسب بل ربما يكون معارضا

لآخرهما، الاتجاه في الأغاني Redondilhas وفي بعض سونتياته Sonnetos هو الاتجاه التقليدي للأغاني العامة الشعبية، والاتجاه الآخر الذي يلتزم به في معظم سونتياته وبعض القصائد التي قرضت حسب مقطع لفظي ديكا decasyllable لقد نقل Andre Luis do Amaral Vaghetti قول A. J. Saraiva بهذا الصدد:

"E facil reconhecementos na obra poetica de Camoens dois estilos, nao so deferenres mas talvez ate opostos: um, o estilo das redondilha e de alguns sonetos, na tradicao do Cancioneiro Geral; o outro, o estilo de inspiracao latina e italiana de muitos dos outros sonetos e das composicoes hendecassilabas maiores".1

ويستمد كاموئنس غذاءه الشعري من المرأة أكثر من الرجل، إنه نشأ وتربى في حضن الحب والهيام وشغله ليلا ونهارا، إنه تغنى في أيامه المبكرة بغبطة، وعند ما بلغ أشده عرض حياته في شعره فأصبح شعره كمرآة تتراءء لنا فيها حياته وما فيها من حوادث ووقائع، ويتجلى انعكاس المرأة في قصائده الغنائية بوضوح بل تحتل المرأة مكانا مرموقا في أعماله كله.

يقال إن هومورس Homer يجيد في الرفعة، ويحسن فيرجيل Virgil في النقاء والرقة، وأرأوستو Ariosto في كثرة التفاخر، وتاسو Tasso في الحماسة، ولكن كاموئنس كان يستوعب هذه الصفات كلها. بما أن عصر النهضة لم يستطع انتاج أية

[1] Andre Luis Amaral Vaghetti, A Representacao da Mulher na Lirica Camoniana, p1

ملحمة في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا، ولكن البرتغال قد تمكنت من ولادة كاموئنس رغم ضيق حدودها ونطاقها، إن لوسياد كاموئنس ليست كاملة فحسب بل لقد قيلت في لغة حديثة العهد، لذلك بلغ إلى درجة الإعجاز.1

ولم يبدع كاموئنس اللغة البرتغالية، ولكنه قد أكمل بناءها حيث إنه قام بشحذ وتنقيح أداة فكرة الإنسان، ويشير الكتاب إلى أن الكلمات التي أبدعها كاموئنس أو استوردها من اللاتينية أصبحت مقبولة ورائجة في البرتغالية وتستعمل حتى الآن. إنه نقح اللغة البرتغالية من التعقيد وصقلها، ورفع مكانتها إلى أنها دخلت ضمن اللغات العالمية الكبرى.

أما أسلوبه الشعري فيتسم بالبساطة والأناقة والروع والوضوح، هذه هي الصفات التي تضمن الجمال الفني في شعره، فيتصف شعره بالحلاوة والانسجام وحسن التعبير والحيوية والبهجة والسرور. وتقدم قوة قلمه نموذجا مثاليا للخيال والفكرة، وهي تمثل ندرة الخيال والفكرة التي تنشأ في ذهنه، وتعد الحيوية والرفعة والعظمة من الميزات الرئيسية لشعره، لقد سمت روعته إلى حد أنه تناول الموضوع غير المألوف عند الشعب وأتقن في معالجته إتقانا تاما، ولون التعابير بلون الكمال الفني، وارتفع بهذه الصفات والميزات إلى مكان مرموق في الشعر البرتغالي حيث إنه غطى شعر الشعراء الذين سبقوا عصره.2

---

[1] Rechard F. Burton, Camoens his life and Lusiads p76.

[2] Rechard F. Burton, Camoens his life and Lusiads p 83

تتجلى شخصية كاموئنس في أعماله بأكثر وضوح، ويمكننا أن نستنتج من كتاباته كثيرا من الحقائق التي تتعلق بحياته الشخصية والاجتماعية، كان من طبيعته أن لا يبالي الإجلال والتكريم في كل المناسبات، إنما اعتاد بالإباءة والجرأة، لذلك قد عانى كثيرا بسبب سلوكه وطبيعته الحادة، فأما الذين يوجهون الانتقادات إلى طبيعته الحادة والعدوانية فلا يعرفون أن إعراب عن الأحاسيس يسبب فرحة وسرورا أكثر من أي شيء آخر، وطبيعته هذه تغنيه عن إحساس الفقر والإفلاس، وبسبب هذه الصفة لايعتبر كل مفلس بائسا.

كانت البطولة دافع رئيسي في تكوين شخصية كاموئنس، كذلك قد لعب الحب والهيام دوره بحسن وكمال، وهو يعتبر المرأة ملكة نزلت من السماء، وهو مدين لها بما وفق له بأنسها والهيام بها في حياته، ويتخذ سحر المرأة الفتان موضوعا محبوبا لشعره، وعندما يصف جماله الجذاب بكل عاطفة وحماسة يبدو كأنه انتقل إلى الجنة ويصور أحوالها وما فيها من حور وغلمان، ورافقته هذه الحماسة والعاطفة طول حياته ولم تفارقه في أي لحظة من لحظات الحياة حتى في كبره، هو يتذكر لذة الشباب و بهجة الحب والهيام ويختزن ذكريات الحب.[1]

[1] Strang Ford, Poems of Luis de Camoens with remarks on his life p21

الباب الخامس

الحنين وشجى الاغتراب في شعر كلا الشاعرين

الفصل الأول: الحنين إلى الماضي وأيام الشباب في شعرهما

الفصل الثاني: الحنين إلى الوطن وأهله في شعرهما

الفصل الثالث: الحنين إلى الحب في شعرهما

الفصل الرابع: شجون الاغتراب في شعرهما

الفصل الأول

الحنين إلى الماضي وأيام الشباب في شعرهما

كل لحظة يعيشها الإنسان تحمل في طياتها ذكريات حلوة أو ذكريات مريرة، وتختزن هذه الذكريات في ذاكرته بغير قصد، ومن الطبيعي أن يحدث التغير والتحول في أحوال الإنسان كما هي طبيعة هذه الدار الفانية، إذ لا تسير مسيرة الحياة أبدا بنمط واحد، بل ربما تتحول الأحوال والأوضاع تحولا تاما، إذا كان هذا التحول من سيئة إلى حسنة يحدث غبطة وسرورا، ولا يستطيع الإنسان التغلب على انفعاله ووجدانه تجاه هذا الواقع إلا يعبر عنه حسب ذوقه وقدرته، كذلك إذا كان هذا التحول من الحسنة إلى السيئة يحدث حزنا وكآبة يدركها الإنسان ويتأثر بها إحساسه وفكره.

ولكن الشاعر، بكونه أرهف الناس حسا، يتناول الأحداث والوقائع التي تحدث في حياته بصورة غير عادية، ويبلغ نظره إلى حد لا يمكن لعامة الناس أن يصل إليه، وهو يدرس الأمر بوجهة نظره، ويأتي بفكرة معجبة وخيال دقيق تقبلها النفوس وتسغي إليه الآذان، كذلك سلك الشاعران البارودي وكاموئنس منهج الشعراء ومضيا يعبران عن أحاسيسهما وانفعالاتهما، لقد عبر كاموئنس عن حزنه وقلقه في سونتيته حيث إنه يتأسف على مضي أيام الطرب والفترة الذهبية من حياته، وينغمس في ذكرى تلك الأيام السعيدة ويحلق شوقه في خيال الماضي ويتراءى

له انعكاس ذلك العصر عندما كان يعيش تحت ظل الحب والغرام، ويستريح بهمومه وغمومه من هذه الذكريات ويخفف وجعه وألمه بهذا الطريق، ولا يستطيع التنازل عن هذه الذكريات لأية لحظة من اللحظات، إنما هي أغلى شيئ عنده، ويستمد منها القوة والجرأة لمواجهة المصائب والرزايا. نذكر هنا سونتيته في البرتغالية ثم نعرض مفهومها في العربية حسب التوالي.

Doces lembrancas da passada gloria
Que me tirou Fortuna Roubadora,
Deixei-me descansar em paz hum' hora,
Pais comigo ganhais pouca vitoria.

ما أحلى الذكريات عن الأيام التي عشتها في مجد و بهاء، ولكن الحظ القاسي حرمني منها وسلبها مني بصورة مستبدة. دعني اتمتع بذكرياتها لساعة، لأنها تملك روحي وجسمي، ولها سلطان كامل على نفسي.

Impressa tenho na alma larga historia,
Deste passado bem, que nunca fora;
Ou fora, e nao passara mas ja agora
Em mi nao pode hver mais que a memoria.

ثمة حكايات طويلة مقبوضة في روحي تتعلق بهذا الماضي الذهبي. فيا لقساوة الزمان بحظي، ليتها لم تأتني تلك اللحظات السعيدة الفتانة! أو لم تفارقني إن قُدّر مجيئها، وصاحبتني إلى الأبد كي لا أرغم على اللجوء إلى ذكرياتها المؤلمة الآن.

Vivo em lembrancas, moro de esquecido

De quem sempe devera ser lembrado,

Se lhe lembrara estado tao contente.

استمد حياتي وقوتي من الذكريات، وأوشك إلى الفناء والإعدام حين أميل إلى نسيان مَن له الحق أن يذكر في كل حين وآن، لأن كل الأنفاس التي اتنفسها الآن هي مدينة لذكراها، وقائمة على اللحظات السعيدة المباركة التي شاركتها معها.

Oh quem tornar podera a ser nascido!

Soubera-me longar do bem passado,

Se conheser soubera omal passado.[1]

قد تحولت الأوضاع، وتغيرت الأمور كليا، ودخلتُ طورا جديدا من حياتي، لو كنت قد علمت الحال السيئ الذي اجتاز به الآن، لفضّلت الماضي السعيد، واستمتعت به طويلا.

يعبر كاموئنس في هذه السونتية عن غمه وحزنه على تقلب الزمان، ويتذكر الأيام التي تتسم بالحيوية والحماسة والحب والهيام، ويتأسف على مضيه تأسفا شديدا، فيهيج انفعاله ووجدانه وتتدفق أحاسيسه في صورة شعرية مؤثرة، لها أثر خلاب على النفوس و تهيج القلوب،وتثير الوجدان ويظهر في أسلوبه الطابع الإنساني جليا، واقتدى النمط البتراركي الإيطالي السائد في ذلك الوقت. هناك نماذج كثيرة في شعر كاموئنس في مثل هذه المعاني التي يتشوق فيها إلى الأيام الماضية حيث أنه عاش

[1] Luis de Camoens, Obras Completas de Luis de Camoens, soneto no XVIII.

غريبا بعيدا عن الوطن وأنفق الشطر الأخير من حياته في الاغتراب، فاشتد وجعه وتضاعف ألمه.

كذلك إذا تصفحنا أوراق ديوان البارودي نجد أمثالا رائعة للحنين إلى الماضي كما توجد عند كاموئنس، إنه يدع طير الشوق يطير إلى الماضي ويجول في الأيام الماضية من حياته، فتتزاحم ذكريات هذه الأيام و تثير عاطفته ووجدانه ولا يستطيع البارودي قمع تيار الأحاسيس والمشاعر التي تنطلق من أعماق قلبه فيلتجأ إلى الكلمات وتتشكل هذه الكلمات في شعر رائع جميل، ويقول:

أين أيام لذتي وشبابي أتراها تعود بعد الذهاب
ذاك عهد مضى وأبعدشيءٍ أن يرد الزمان عهد التصابي
فأديرا علي ذكراه إني منذ فارقته شديد المصاب
كل شيءٍ يسلوه ذواللب إلا ماضي اللهو في زمان الشباب
ياندمي من "سرنديب" كفا عن ملامي وخلياني لما بي
كيف لا أندب الشباب وقد أصـ ـبحت كهلا في محنة واغتراب
أخلق الشيب جدتي وكساني خلعة من رثة الجلباب
لم تدع صولة الحوادث مني غير أشلاء همة في ثياب[1]

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص67.

قرض البارودي هذه الأبيات عندما كان يقضي أيامه في منفاه بسرنديب، لقد طالت الأيام بفراقه من الوطن، وبقي البارودي في "سيلان" يحن إلى أيامه السعيدة في الوطن ويبكي على سوء حظه. وفي الأبيات التالية يحن كائنوس هكذا:

Alegres campos, verdes arvoredos,

Claras e frescas Aguas de crystal,

que em vos os debuxais ao natural,

Discorrendo da altura dos rochedos.

البساتين الجميلة والحقول الخضراء والمياه النقية الصافية كل هذه المظاهر تبرز جمالها وأناقتها كما أودعتها الفطرة، ولكنها في الحقيقة هي انعكاس لجمالك.

Sylvestres montes, asperosos penedos,

Compostos de concerto desigual;

Sabei que sem licenca de meu mal

Ja nao podeis fazer meus olhos legados.

الغابات الكثيفة والصخور القاسية كلها تبدو مجموعة من عبث في عيني الآن، لأنه لم تبق لي الآن النظرة التي كانت مع خلال مصاحبتك.

E pois ja me nao vedes como vistes,

Nao me alegram verduras deleitosa,

Nem aguas que correndo alegres vem.

فإني لا أستطيع أن أشاهد كما كنت تشاهدين ولا تسرني هذه المناظر البهيجة ولا تفرحني المياه الجارية.

Semearei em vos lembrancas trites,

Regar-vos-hei com lagrimas saudosas,

E nascerao saudades de meu bem.[1]

سأغرس شجرة في ذكراك وأسقيها بدموع من الحنين إليك لكي يترعرع الاشتياق إليك ترعرعا.

قد قال كاموئنس هذه السونتية بعد وفاة حبيبته، فلما زار إحدى المواقع البهيجة ذات الصخور والأزهار، إن هذا المنظر لا يسغه كما كان في الماضي، فيعبر عن قلقه وحنينه إلى الأيام الماضية حيث كان يصحب حبيبته في هذه المناظر، ويقول إنما الآن لا يسغينا شيء ولا يقر عنيني منظر، قد فقدت جميع مناظر الدنيا جمالها بعدما هجرتنا، وانتقلت من هذه الدنيا، فالمناظر الجميلة كانت في الحقيقة تعكس جمالك. فافتقد الجمال بعدما ابتعدت عنا، فالآن كل ما كان من المناظر البهيجة والمظاهر الجميلة قد أصبحت عبثا، إن الصخور قد فقدت جمالها، وإن الغابات قد ذبل حسنها، وإن الأشجار والمناظر الأخرى قد تلاشت بهجتها. فلا منظر يسغيني ولا جمال يخلب فؤادي، إنما كل هذه الأشياء عبث الآن في نظري.

وكذلك يتذكر البارودي أيامه التي عاشها في وادي الغضا بنجد، وله ذكريات حلوة تتعلق بهذه الأيام، فيشتاق إلى هذه الأيام بشدة ويلتجأ إلى تصورها وخيالها ويتمنى بخلود تلك اللحظات المباركة التي تفجعه ذكرياتها الآن، وهو يقول:

[1] V. de V. M., Poesias liricas selectadas de luis de Camoens, p11.

أيـــن لياليـنـــا بـــوادي الغضـــا ذاك عهـــد ليتـــه مـــا انقضـــي

كنـــت بـــه مـــن عيشـــي راضـــيا حـــتى إذا ولـــى عـــدمت الرضـــا

أيـــام لهـــو وصـــبا كلمـــا ذكرتهـــا ضـــاق علـــى الفضـــا

عهـــد كطيـــف زار حـــتى إذا أشـــرق صـــبح مـــن مشـــيبي مضـــي

ماكـــان إلا كنســـيم ســـرى وعـــارض غـــام وبـــرق أضـــا[1]

لقد تحدث البارودي في هذه الأبيات عن اشتياقه وحنينه إلى فترة من عندما كان شابا متحمسا ويعيش في أحضان الحب والغرام.

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي ص 300.

الفصل الثاني

الحنين إلى الوطن وأهله في شعرهما

الحب إلى الوطن ظاهرة فطرية، يأنس الإنسان بمكان حيث يعيش حياته وينتسب إليه انتسابا، ولا تتخصص هذه الصفة بالإنسان فقط، بل هي فطرة كل ذي نفس على هذه الكرة الأرضية، كل نفس تأنس وتشتاق إلى المكان الذي ولدت ونشأت فيه، فالإنسان بصفته أشرف المخلوقات أكثر أنسا، لذلك عندما يقضي أيام الطفولة والشباب في مكان يألفه بشعوره وعاطفته، وبما تعتبر هذه الأيام فترة ذهبية من حياة الإنسان تترسخ انطباعاتها في ذهنه وقلبه، وحينما يصادفه النأي والبعد عن هذا المكان المألوف يتذكره ويشتاق إليه، ويعبر عن ولوعه إليه حسب قدراته ومؤهلاته، ولكن الشاعر يمتلك قدرةً وافرةً على التعبير عن الأحاسيس، فكل ما يعبر عنه من عواطفه وأحاسيسه تجاه الوطن يكون له أثر خلاب وبالغ على النفوس والقلوب، لقد صور الشاعران البارودي وكاموئنس ولوعهما إلى وطنيهما في شعرهما على حد سواء، نعرض مثالا من شعر كاموئنس للاشتياق إلى الوطن، عير فيه عن ولوعه إلى وطنه عندما كان يغادره، فمثل حالته النفسية عند الوداع.

Ja a vista pouco e pouco se desterra

Daquelles patrios montes que ficavam

Ficava o carro Tejo e a fresca serra

De cintra, e nella os olhos se alongavam

Ficava-nos tambem no amada terra

O coracao, que as magoas, deixaram

E ja depois que toda se escondeo

nao vimos mais em fin que em fim e o ceo.[1]

"تبتعد الصخور الجبلية عن حد النظر شيئا فشيئا، تلك الصخور التي تقع بين نهر تاجة وصخور سنترا Cintra، تصحب الأنظار معها، ويبقى القلب بروحي في الأرض المحببة، وما بقي فينا إلا الأوجاع، وأخيرا احتجب كل شيء عنا، ولا يتراءى لي إلا السماء الخالية".

هذه الأبيات مأخوذة من ملحمة كاموئنس "لوسيادا"، إنه يصور تصوير الفراق، فراق المرأ عن وطنه الحبيب، كتب كاموئنس هذه الأبيات عنما كان يغارد وطنه للهند، فلما جرت السفينة به أخذت مشاعره تموج في قلبه وعواطفه تتحاشد على نفسه، وجعلت الانفعالات تفيض من أعماق قلبه، لقد صدرت هذه الأحاسيس من وجدانه تلقائيا، ولم يلتجأ كاموئنس إلى جهد الصناعة الشعرية، بل أرسل نفسه على سجيتها في وضع عاطفي، فاتخذت العواطف سبيلها إلى اللسان وانطلقت من اللسان إلى الألفاظ والكلمات فتحولت هذه الكلمات في شعر رائع بديع، إنه عبر عن حزنه وقلقه عند مفارقة الوطن الحبيب، وقال إن القدر قد أبعد جسمي عن الوطن ولكن قلبي موجود في الوطن واحتلت الأوجاع مكان الفؤاد في جوفي، وأصبحت حياتي كأنها ماهي إلا عبارة عن الهموم والغموم لفراق الوطن. وأخيرا صارت نفسه كأنها

[1] Luis de Camoens, Os Lusiadas P 213.

فقدت كل شيء في الحياة، ولم يبق لها إلا السماء الخالية، إضافة إلى تصوير حالته النفسية إنه يصور الواقع الكائن معه في المغامرات البحرية، ومعظم الأحيان إنه يصور أحوال البحر بكل أناقة وكمال، لذلك يطلق عليه اسم "رسام البحر".

وإذا نلتفت إلى شعر البارودي نجد فيه أمثالا كثيرة للاشتياق إلى الوطن، بحيث إنه قضى جزءا مهما من حياته في حالة الاغتراب، لذلك اعتادت نفسه للحنين، لقد نشأت هذه العاطفه حين صادف له النائ عن الوطن والأهل للمعارك الحربية، وظلت هذه العاطفة تتقوى بمرور الزمن حتى حكم بنفيه إلى "سيلان" بعد فشل الثورة العرابية، ففاضت نفسه بمثل هذه العواطف والانفعالات، وظل البارودي معتادا بالحزن والهم طوال حياته الباقية، وجدير بالذكر هناك أن الشاعرين قضيا حياتهما الاغترابية في شبه القارة الهندية وأنحاءها، فمن الممكن أن المناخ قد أثر على طبيعتيهما على حد سواء، ومن المحتمل أن دفع هذا الأثر إلى الأحاسيس والفكرة المماثلة التي عبر الشاعران عنها، وتوجد شدة الألم والوجع في شعرهما بسبب عذاب البعد ولوعة الاغتراب. يعبر البارودي عن الألم والحزن واللوعة في الاغتراب ويظهر اشتياقه الشديد إلى الوطن كما يصور النأي والبعد وما له من أثر على نفسه ويقول:

محا البين ما أبقت عيون المها مني فشبت ولم أقض اللبانة من سني

عنـــاء ويـــأس واشـــتياق وغربـــة ألا شد ما ألقاه في الدهر من غبن

ولمـــا وقفنـــا للـــوداع وأســـبلت مـــدامعنا فـــوق الترائـــب كـــالمزن

أهبـــت بصـــبري أن يعـــود فعزنـــي ونـاديـت حـلمي أن يثـوب فلـم يغـن

فـإن أك فارقـت الـديار فلـي بهـا فـــؤاد أضـــلته عيـــون المهـــا مـــني

فكم مهجة من زفرة الوجد في لظى وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن

ومـــا جربـــت النـــوى قبـــل هـــذه فلما دهتني كدت أن أقضي من الحزن[1]

قال البارودي هذه الأبيات خلال منفاه، عندما طالت الأيام في الغربة واشتد الاشتياق إلى الوطن يلتجأ إلى قيثارته ويتغنى شعره، حيث هذا هو الطريق الوحيد لتقليل همومه في المكان الذي لا مونس له ولا أنيس، فيخفف شدة ألمه بهذا الطريق، فيقول إن ابتلاء الاغتراب قد ذهب بما ترك ابتلاء فتنة الحسن في نفسي من أمل وحياة، وظلت الحياة في محنة وابتلاء ولم يمهله الزمان لقضاء متطلبات الشباب. هناك المشقة والصعوبة واليأس والاشتياق والاغتراب، لقد اجتمعت كل البلايا والمعانات من الزمان، فما أشد البلايا التي ابتلي الشاعر بها في الحياة. إنه فارق الوطن الحبيب استسلاما لصولة الزمان، ولكن قلبه محبوس في الوطن حيث قد اختطفته عيون الحسناء الفتانة منه. ثم ينتقل الشاعر إلى تصوير حالته النفسية عند الوداع من وطنه وأهله، وعندما كان على وشك المغادرة أخذت العيون تمطر كالمطر الغزير، وفاضت الدموع حتى ابتلت الترائب من الدموع، وكم من قلوب تلتهب

[1] ديوان البارودي ص626.

بنار الوجد، وكم من عيون تدمع بغزارة، يشير هذا إلى مفارقة المتحابين فكلهم يلجؤن إلى البكاء بشدة الوجع.

نجد في شعر كاموئنس مشاعر مماثلة، إنه يصور الصباح الذي يطلع بالأمل الجديد كل يوم، ويبث الفرحة والسرور في النفوس ببهجته ونقاءه، وهكذا يفعل كما هو طبيعته، ولكن يختلف ذلك الصباح الذي فارقت فيه الروحان، وهو يقول:

Aquella triste e leda madrugada

Cheia toda de magoa e de peidade

Em quanto houver no mundo saudade

Quero que seja sempre celebrada.

ذاك الصباح المسفر الذي يتسم بالبهجة والجمال بطبيعته طلع علي بالحزن والكآبة، وما هو إلا عبارة عن الهموم والآلام، وأتمنى مواظبة احتفاله ما دامت الذكريات الحلوة باقية في هذا العالم.

Ella, so quando amena e marchetada

Sahia, quando a terra claridade,

Vio apartar-se de uma oura vontade,

Que nunca podera ver-se apartar;

لقد شاهد ذلك الصباح، عند ما سطع نوره على الأرض، المتحابين يفارقان من أحد لآخر مع أنه لا يمكن انفصال روحيهما اللتان جمعهما الحب.

Ella so vio lagrimas em fio,

Que de uns e de ourtos olhos derivadas,

Juntando-se, formaram largo rio;

ذالك الصباح رأى العبرات تتدفق من عيوننا وتنحدر عبر الخدود، وتتشكل في نهر الدموع.

Ella ouvio as plavras magoadas,
Que poderam tornar o fogo frio,
E dar descanso as almas condenadas.[1]

كانت هناك أصوات مفجعة تبدل التهاب القلب ببرد، ولايطاق سماعها لذي نفس، وتؤشك النفس أن تزهق من شدة الألم والوجع.

قد عبر كاموئنس في هذه السونتية عن حزنه وألمه عند مغادرة الوطن والابتعاد عن النفوس المحببة عنده، قد أجبر الدهر على المفارقة بالرغم من رغبته الشديدة للبقاء في الوطن بجنب حبه، فأصبح وحيدا شريدا، قد وصف البارودي هذه الحالة في شعره بحسن ويقول:

وحيـد مـن الخـلان في أرض غربـة ألا كـل مــن يبغـى الوفــاء وحيــد

ويتذكر كاموئنس حالته النفسية وقت الوداع، وتقاس حالته بقوله: وكادت النفس أن تزهق من شدة الألم والوجع.

كذلك يعبر البارودي مثل هذه الأحاسيس في شعره، ويشتاق إلى وطنه العزيز بصورة جزعة، لقد أبعده الدهر عن وطنه الحبيب ولكن قلبه بقي مرتهنا بحب أهله،

[1] V. de V. M., Poesias liricas selectadas de luis de Camoens, p5.

فاصبح كأنه جسم بلا روح، ليس له رغبة في الحياة بعيدا عن الدار، ولا يبالي المصائب والشدائد في المنفى مقابل ألم الاغتراب، يتكأ إلى ذكرياته تجاه الوطن وأهله، وكيف لا يتذكر البدن روحه إذا فصل عنه مرغما، فيعبر عن عواطفه وانفعاله في شعره ويقول:

وا طـول شـوقي إليـك يـا وطـن ... وإن عرتـــني بحبـــك المحـــن
أنت المنى والحديث إن أقبل الصـ ... ـبـح، وهـــي إن رنـــق الوســـن
فكيـــف أنســـاك بالمغيـــب ولـي ... فيـــك فـــؤاد بالحـــب مـــرتهن
لسـت أبـالي وقـد سـلمت على الـ ... ـــدهر إذامـــا أصـــابني الحـــزن
ليـــت بريـــد الحمـــام يخبرنـــي ... عـــن أهـــل ودي فلـي بهـم شـجن
أهـم علـى الـود أم طـاف بهـم ... واشٍ أراهـم خـلاف مـا يقنـوا؟
فـــإن نســـوني فـــذكرتي لهـــم ... وكيـــف ينســـى حياتَـــه البـــدنُ؟
وكيـــف لـــي بالمقـــام فـــي بلـــدٍ ... مـــالي بهـــا صـــاحب ولا ســـكن
كـــل خليـــل لخلـــه وزر ... وكـــل دار لأهلهـــا أمـــن[1]

هذه القصيدة من إحدي قصائده التي قالها وهو في منفاه بسرنديب، حيث قضى سبعة عشر عاما قيما بعيدا عن الدار وأهله، يعكف خلالها على مراجعة حياته وتأمل مصيره والبكاء على الراحلين من أسرته وأحبائه فيشتد اشتياقه إليه والأهل والأحبة. واستخدم في هذه القصيدة لغة شعرية بعيدة عن الصخب والخطابية وجلجلة المفردات والتراكيب، وهي سمات نجدها في شعره، خاصة شعر فترة منفاه، وتميزه هذه السمات عن الآخرين في التكوين.

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص654.

وللبارودي قصيدة دالية قالها يوم عيد الفطر خلال اشتغاله بالحرب، فأغفلت الحرب عن الدنيا وما فيها، إذ أخبره أحد رفقائه بأن اليوم هو يوم عيد الفطر وسأله عن لبس الجديد، فتنبه البارودي عن غفلته، ووجد مشاعره تجيش في اشتياق إلى الوطن، وأخذت عواطفه تتدفق في شكل شعري، وقال داليته الشهيرة أذكر هناك بعض الأبيات.

أراك الحمى شوقي إليك شديد وصبري ونومي في هواك شريد
مضى زمن لم يأتني عنك قادم ببشرى ولم يعطف على بريد
وحيد من الخلان في أرض غربة ألاكل من يبغى الوفاء وحيد
ألا أيها اليوم الذي لم أكن له ذكورا سوى أن قيل له هوعيد
أتسألنا لبس الجديد سفاهة وأثوابنا ما قد علمت حديد[1]

يؤدى البارودي الإجلال والتقدير إلى وطنه من خلال ذكرياته ومشاعره، ويعبر عن اشتياقه إليه الشديد، لقد أظهر البارودي حنينه الشديد إلى الوطن لأول مرة في هذه القصيدة، وقبل ذلك لا نجد مثالا من شعره للحنين إلى الوطن بهذه الشدة، لأنه لم يجرب النوى قبل ذلك.

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص-144.

الفصل الثالث

الحنين إلى الحب في شعرهما

يؤدي الحب والهيام درا مهما في حياة الإنسان، لقد ودعت أحاسيس الحب في الفطرة الإنسانية بقدر وافر، فيحس الإنسان بالولوع إلى أحد لدوافع شتى، ويختلف إحساس حبه باختلاف مكانة المحبوب لديه، فحب المرئ لأمه يختلف عن حبه لعشيقته، لقد كثرت، في دواوين الشعراء، أمثال الحب والغرام للحبيب والعشيق، وبما ينشأ الشعور بهذاالحب والغرام في عهد الصبا وأيام الفتوة فإنه يؤثر على العواطف والوجدان أثرا بالغا، ويسيطر على خفقات القلوب كاملا، فيترك طابعه الخاص على وجود الإنسان كله، فالحب هو قوام الحياة، بل هو الحياة بنفسه، إذا فصل الحب عن الإنسان فإنه يبقى بدون حيوية، ويصبح كالأحجار والأخشاب لاروح فيها ولا عاطفة، وهو إحساس عميق ولع يملك الإنسان تجاه من يحبه، ويعبر عنه عندما اقتضت الأوضاع إليه. فالشاعر يستخدم الجمال الفني الشعري للتعبير عن هذا الإحساس، فيحسن في وصف الأحوال الغرامية ويتقن في التعبير عن المشاعر، وتتضاعف شدة الولوع عندما يتذكر الشاعر حبه وغرامه بعد فوات الأوان فيشتاق إلى حبيبه بكل صفاته وخصائصه، لقد عبر كاموئنس في القصيدة التالية عن عواطفه لبربرا ويقول:

Aquella cativa

Que me tem cativo

Porque nella vivo

Ja nao quer que viva.

"تلك الفتاة الرقيقة التي جعلتني أسيرا لها حيث قد استوطن حبها قلبي، هي أصبحت لاتريد أن أعيش".

Eu nunca vi rosa

Em suave molhos

Que para meus olhos

Fosse mais formosa.

"ولم يصادفني من قبل منظر الورد في باقة متناسقة تعجب الأنظار بجمالها وأناقتها".

Nem no compo flores

Nem no seo estrellas

Me parece bellas

Como os meus amores.

"لاتهنأ لي الأزهار في الحدائق ولا تسرني النجوم في السماء مذ ذقت لذة الحب والهيام".

Rosto singular

Olhos socegados

Pretos e cancados

Mas nao de matar.

"الوجه المشرق الفريد، والعيون الهادئة، الجميلة الفتانة، الساحرة المتعبة قد قدر لها الخلود ولم تخلق للفناء".

Uma graca viva,

para ser senhora

De quem e captiva.[1]

"نفس ذكية تنشأ فيها لكي تمتلك النفس التي هي رقيقة لها".

قد كتب كاموئنس هذه الأغنية في ذكرى فتاة صينية "بربارا Barbara"، هي كانت رقيقة له، ولكنها بحسنها وجمالها قد ملكت على نفسه وتمكن حبها من قرارة قلبه، لذلك عنما توفيت وفارقت هذا الدار الفاني توجع قلبه في فراقها، وظل كاموئنس حزينا لفترة من الزمن على سواحل الهند، وعكف على تعبير مشاعره وعواطفه بحبها ونظم قصيدة طويلة في ذكراها، ويقال إنها أول قصيدة قالها شاعر أوروبي أبيض في زنجية غير أوربية، لقد اتخذ كاموئنس أسلوبا سلسا في هذه القصيدة حيث لا يتأثر تدفق المشاعر والعواطف فيها، ويبدو كأنها الماء الجاري يسيل بدون توقف لا مانع له ولا حاجز.

وللبارودي أمثال رائعة في شعر الحب والهيام، إنه قضى فترة غير قليلة بين الحسناء يلاعبهن ويغازلهن خلال معية الخديو إسماعيل، فنهل من مناهل الحب،

[1] V. de V. M, Poesias Lyricas selectadas de Luis de Camoens, p221.

وكرع كأس الغرام كرعا، لكن تحولت الأحوال بعد ذلك، وأحاطته المصائب والنكسات من كل جانب، فأخذت الأحزان تهاجم عليه، ومن أعظم همومه هو هجره وفراقه من حبيبه، وربما إعراضه عنه. لمثل هذه الابتلاءات والمحن العاطفية قال البارودي قصيدته التالية يحن فيها إلى حبه وما له من محنة وبلاء، ومن علة وشفاء، ويقول:

لـك روحي فصـنع بهـا مـا تشـاء فـــهي مـــني لناظريـــك فـــداء

لا تكلـني إلـى الصـدود فحسـبي لوعـــــة لاتقلهـــا الأحشـــاء

أنـــا والله منـــذ غبـــت عليـــل لـــيس لـــي غيـــر أن أراك دواء

كيـف أروي غليـل قلبي ولـم يبـ ـق لعيـني مـن بعـد هجـرك مـاء

أنـا راض بنظـرة منـك تشـفي بـــرح قلـــب هاجـــت بـــه الأدواء

نظـــرة ربمـــا أماتـــت وأحيـــت ومـــن الخمـــر علـــة وشـــفاء

لا تخـــل نمـــة الوشـــاة صـــلاحا فهـــي داء تـــدوي بـــه الحوبـــاء

واختبرنـي تجـد صـديقا حميمـا لـــم تغيـــر وداده الأهـــواء[1]

يصور البارودي في هذه الأبيات حالته النفسية بسبب الابتعاد عن حبيبته وما تبعه من حزن وكآبة، إنه يتيح لها السلطة الكاملة على نفسه لكي تعامل معها كيفما تشاء، ويقدمها كفداء لناظريها. ويصبح البارودي عليلا بعد احتجاب صورة

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي ص48.

حبيبه ولا يرى دواء لعلته سوى لحظ حبيبته، وهو يتذكر تأثير نظرتها حيث إنها تميت مرة وتحيي مرة أخرى كما يؤثر الخمر على النفس، فمنه علة وشفاء معا. ويمضي البارودي يتذكر حبيبته ويلتهب قلبه بنارالهوى، ويقارن هجره إياها بالموت، ويقول:

صلة الخيال على البعاد لقاء ... لو كان يملك عيني الإغفاء

يا هاجري من غير ذنب في الهوي ... مهلا فهجرك والمنون سواء

أغريت لحظك بالفؤاد فشفه ... ومن العيون على النفوس بلاء

هي نظرة فامنن علي بأختها ... ق لعيني من بعد هجرك ماء

أنا راض بنظرة منك تشفي ... فالخمر من ألم الخمار شفاء

أنا منك مطوي الفؤاد على جوى ... لو لا الدموع ذكت به الحوباء

لا أنت ترحمني ولا نار الهوى ... تخبو ولا للنفس عنك عزاء

فانظر إلي تجد خيالة صورة ... لم يبق فيها للحياة ذماء[1]

لقد عانى البارودي بمعاناة الهوى وتحمل المشاق في سبيل الحب والهيام، ويقول إن القلب قد شن الغارة عليه عن طريق العيون، فإن البلاء يتخذ سبيله إلى القلوب من مثل هذه الثغرة، وإذا نلتفت إلى شعر كاموئنس نجد مثل هذه المضامين

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي ص38

فيه، إنه يسجل في السونتية التالية أول حملة الحب على قلبه ووجدانه، ويتذكراللحظة التي وقع فيها قلبه مسجونا عند الحب، وفي ذلك يقول:

O culto divinal se celebrava

No templo donde toda creatura

Louva o Feitor divino, que afeitura

Com seu sagrado Sangue restaurava.

"كانت الاحتفالات الدينية تعقد في الكنيسة، وكل نفس كانت تعبد وتمجد خالق القدر الذي أخرج ذلك اليوم مخلوقاته من دمه المقدس".

Amor alli, que o tempo me aguardava,

Onde a vontade tinha mais segura,

Com uma rara e angelica figura,

A vista da razao me salteava.

"والحب الذي كان لي بالمرصاد، عندما حسبت أن رغبتي في أحفظ مكان، هاجم على عقلي وذهني بصورة رائعة ملائكية."

Eu, crendo que o lugar me defendia,

De seu livre costume, nao sabendo,

Que nenhum confiado lhe fugia;

"وكنت أعتقد أن هذا المكان سيحميني عن طريق معتاد، ولكن سرعان ما تيقنت أنه ليس هناك أحد يتمكن من تجنبه، فقدمت له سراحي أسيرا."

Deixei-me captivar; mas hoje vendo,

Senhora, que por vosso me queria,

Do tempo que fui livre arrependo.[1]

"ولكن الآن لقد تبين لي أنه أراد ني أن أكون ،أيتها السيدة، أسيرا لكِ، وأنا أتأسف على فترة من الزمن التي مضيتها حرا طلقا."

يتذكر كاموئنس في هذه السونتية خبرته بافتتان العيون وأمور القلوب لأول مرة في حياته ووقعه في شبكة الحب التي نصبته صورة ملكية، وهو يتذكر الآن تلك اللحظة السعيدة التي بدلت حياته كليا حيث إنه أصبح أسيرا لتلك الصورة الفتانة، ويتأسف على حياته قبل هذه اللحظة عندما كان حرا.

[1] V. de V. M., Poesias liricas selectadas de luis de Camoens, P13.

الفصل الرابع

شجون الاغتراب في شعرهما

عندما نتلفظ كلمة الاغتراب فأول ما يتبادر في أذهاننا هو الآلام والأحزان، فالاغتراب عبارة عن المعانات والابتلاءت، بل هو ابتلاء بنفسها، لذلك يعاني الإنسان في الاغتراب مرتين، مرة من مشاق الاغتراب ومصائبه، ومن إحساس الغربة مرة أخرى، إذا نبحث في شعر هما عن آلام النأي وشجون الاغتراب نجد أمثال رائعة تتمثل أحوالهما في المنفى، يقول البارودي:

خليلي هل طال الدجى أم تقيدت كواكبه، أم ضل عن نهجه الغد

أبيت حزينا في سرنديب ساهرا طوال الليالي، والخليون هجد

إذا خطرت من نحو حلوان نسمة نزت بين قلبي شعلة تتوقد

وماكنت أخشى أن أعيش بغربة يعللني فيها خويدم أسود[1]

يعبر البارودي في هذه الأبيات عن حزنه وقلقه لسبب النأي والاغتراب، ويشير إلى سهر الليالى وشدة الألم لكونه في الغربة، ويشتاق إلى الوطن، وعندما تهب الريح من نحو "حلوان" يلتهب قلبه التهابا. كذلك توجد في شعر كاموئنس أمثال كثيرة يعبر فيها عن معاناته وابتلاءاته وهو يقول:

No mundo poucos annos e cansados

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص171.

Vivi, cheios de vil miseria e dura:

Foi-me tao cedo a luz do dia escura,

Que nao vi cinco lustros acabados.

Corri terras e mares apartadas

Buscando a vida algum remedio ou cura:

Mas aquillo que em fim nao da ventura

Nao o dao as trabalhos arriscados.

Crou-me Portugal na verdade e chara

Patria minha Alemquer; mas ar corruto,

Me fez manjar de peixes em ti, bruto

Mar, que bates a Abassia fera e avara,

Tao longe da ditosa patria minha.[1]

ما أقل الأيام قضيت في الحياة، وما أكثر المآسي ابتليت بها، وظلت الشقاوة والبؤس تراودني لمدة طويلة، لقد مرت أيام السعادة بغض البصر و لما أكمل بعد السنة الخامسة من الحياة، فجبت البلاد وأبحرت البحور وبذلت مجهودات جبارة لمعالجة الهموم، ولكن قد ذهبت هذه المجهودات سدى لسوء حظي، وإذا غلب سوء الحظ فلا ترد الجهود البؤس والشقاء..... وأخيرا يقول الشاعر إن جو البرتغال قدتسربت إليه الفساد، فأجبر على الابتعاد عن وطنه الحبيب.

[1]J. J. Aubertin, Seventy sonnets of Camoens, p62.

إنه يتحدث عن ألم الحياة لسوء حظه، ويقول إن سوء الحظ ظل يراوده حيثما ذهب وأقام حتى اضطر إلى النأي، ولكنه لم يتبدل حظه القاسي بل ازداد قساوة بسبب الاغتراب.

كل نائبة في الاغتراب تقع على النفوس وقع الصاعقة فيعاني الإنسان من معاناة متضاعفة، يعبر البارودي عن هجوم الآلام التي تتحاشد عليه إزاء نعي زوجته، ويقول:

أيــد المنــون ! قــدحت أي زنــاد وأطــرت أيــة شــعلة بفــؤادي
أوهنــت عزمي وهــو حملــة فيلــق وحطمــت عمــودي وهــو رمــح طــراد
لــم أدر هــل خطــب ألــم بســاحتي فأنــاخ أم ســهم أصــاب ســوادي
أقــذى العيــون فأســبلت بمــدامع تجــري علــى الخــدين كالفرصــاد[1]

هناك قصيدة رائعة في "ريماس" Rimas، قالها كاموئنس في ذكرى حبيبته بعد وفاتها وقدم لها إجلالا وتقديرا بواسطة هذه السونتية، وسجل انطباعاته وفجعه في شعر بليغ ويقول:

"Alma miha gentil que te partiste
Tao cedo desta vida descontente
Repousa la no ceo eterna mete
E viva eu ca na terra sempre triste.

[1] محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، ص153.

Se la no assento ethereo, onde soubeste

Memoria desta vida se contente

Nao te esquecas de aquelle amore ardente,

Que ja nos olhos meus tao puro viste.

E se vires que pode merecer-te

Alguma cousa a dor, que me ficou

Da magoa sem remedio, de perder-te.

Roga a Deus que teus annos encutou,

Que tao cedo de ca me leve a ver-te,

Quoa cedo de meus olhos te levou".[1]

أيها النفس الذكية التي فارقت، مبكرا، هذه الحياة المليئة بالحزن والكآبة، استريحي أنت في النعيم إلى الأبد، أما أنا فأظل في عالم كئيب حزين. وإذا يمكنك الاحتفاظ على ذكريات حياة الدنيا في جنة السماء التي ارتفعت إليها لا تنسي حبي الصادق التي تتجلى حتى الآن في عيني بوضوح. أعيش هناك بفراقك حزينا كئيبا، إذا أردتِ تَسكِينَ وجعي فعليك أن تمني لي بالدعاء من الله بأن يقبض روحي ويسكنني في مكان تسكنين فيه لكي أصحبك وأبرد غليل نفسي بالنظرة إليك.

قال كاموئنس هذه السونتية عندما وصل إليه نعي حبيبته فيتفجع تفجعا شديدا، وأصبح كأنه فقد أملافي الحياة ويتمنى الموت لكي يصحب حبه في الجنة.

[1] V. de V. M., Poesias liricas selectadas de luis de Camoens, p4.

خاتمة البحث

بعد طيّ هذه الدراسة البحثية التي عنوانها "انعكاسات الحنين و شجى الاغتراب في شعر محمود سامي البارودي ولويس دي كاموئينش: دراسة مقارنة"، والخوض في تفاصيل حياة الشاعرين ودواوينهما الشعرية مع ما تحمل في طياتها من القضايا والمواضيع والمزايا والخصائص أذكر هنا بعض ما جاء فيه لتذكّرنا خاتمة الدراسة البحثية بجميع ما ناقشتُ في مختلف أبواب البحث وفصولها. فقد حاولتُ في هذه الدراسة تغطية جميع ما يتعلق بحياة الشاعرين وبيئتهما وأثرهما على المجتمع والبيئة، ومواضيع شعرهما وأسلوبهما الرائع والرصيين في الشعر وإبراز عناصر الحنين والوجد وشجى الاغتراب في شعر كلا الشاعرين.

هذا وفي البحث خمسة أبواب تختلف في عدد فصولها، وفيه مقدمة وخاتمة. فجاءت المقدمة متضمنةً لجميع ما ناقشت في البحث، وأهمية الموضوع وأسباب اختياره والمنهج المتّبع في البحث والمصادر التي تقوم عليها هذه الدراسة. ثم بدأ الباب الأول بذكر حياة محمود سامي البارودي مفصلا فيه الكلام عن مولده وأسرته ونشأته وأهم مراحل حياته ثم الدراسة في شعره وأعماله. أما الباب الثاني فقد خصصته للتعريف بـ "لوئس دي كاموئنس" وأعماله، ملقياً فيه الضوء على خلفيات عصر كاموئنس أولاً، ثم على

حياته وأهم ما قدّم من خدمات جليلة. كما عقدتُ فيه فصلاً لدراسة آثاركاموئنس وشعره.

ثم يليه الباب الثالث حيث تناولت فيه الأوضاع الشعرية في مصر والبرتغال خلال عصر الشاعرين، وناقشتُ فيه الوضع الشعري لمصر في عصر البارودي ودوره فيه فوجدت حالة الشعر رديئة، وكان الشعر العربي مكبلا تكبيل المحسنات البديعية والبلاغية من بديع وجنس وطباق، والتمرينات الشكلية من تخميس وتشطير وغيرها من الأعاجيب الشعرية مما جعل الشعر صنعة لا فنا، فنهض البارودي في هذا الوضع بالعبارة الشعرية الحقيقية، وأخرج الشعر العربي من الضعف والركاكة إلى الصحة والمتانة، لذلك هو يعد أول ناهض بالشعر العربي من كبوته في مطلع عصر النهضة. ثم التفت إلى الوضع الشعري للبرتغال في عصر كاموئنس ودوره فيه، عاش كاموئنس في فترة انتقالية للأدب البرتغالي حيث أخذت الحركات التجديدية تنشأ وتظهر، وازادت نشاطاتها في الأوساط العلمية والأدبية في أنحاء أوربا، وأخذت تؤثر الأدب من نواحي شتى، كما دخلت الأصناف الجديدة في الأدب والشعر، على سبيل المثال المسرحية الشعرية، والسونتيات Sonetos المستوردة من الأدب الإيطالي، حمل كاموئنس راية الشعر البرتغالي في وضع غير ملائم، ورفعها إلى ذروة المجد والكمال، إنه وثب بالشعر البرتغالي من الضعف والضيق إلى السعة والنضج والكمال بوثبة واحدة، فارتفع الشعر البرتغالي بـ"لوسيادا" إلى القمة الشاهقة. وأعقبتُ ذلك الباب الرابع والذي يتحدّث عن المضامين الشعرية وأساليبها

عند الشاعرين فناقشت فن البارودي الشعري وأسلوبه، ومنهجه والمعاني والأغراض الشعرية له، إنه ظهر على ساحة الشعر العربي ظهور المعجزة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إذ نفخ فيه روحا جديدة وهيأ له حياة من جديد بعد أن مضت عليه خسمة قرون من الجمود والانحطاط، والشعر الجيد في رأيه "ما كان قريب المأخذ، سليما من وصمة التكلف، بريئا من عشوة التعسف، غنيا عن مراجعة الفكر" هذه هي صفة الشعر الغنائي عنده. ثم ركّزت على مناقشة فن كاموئنس وأسلوبه، فإنه قد أحسن في معالجة الأساليب والنزعات الشعرية التي نشأت في إيطاليا ولم تترسخ جذورها في البرتغال بعد، وخلال هذا الأثناء بدأ تخطيط ملحمته، إنه كان أولَ متجدد برتغالي أكمل قصيدة بطلية جدية بنجاح، لقد أتقن كاموئنس في كل الأصناف من الشعر التي طبع فيها من مدح وقصيدة ومرثية وسونتية، ولكن ارتفعت مكانة "لوسيادا" بالنسبة إلى أعماله الأخرى، ومن ميزات شعره أنه يقرض شعره الغنائي في ضوء انفعاله وأحاسيسه وخبراته الشخصية.

وفيما يتعلق بالباب الخامس، فقد جعل الباحث هذا الباب من أهم أبواب البحث وأتعب نفسه شديدا لتغطية شجى الاغتراب في شعرهما، مُبرزاً في دواوينهما عناصر الحنين إلى الماضي وأيام الشباب، سلك الشاعران البارودي وكاموئنس منهج الشعراء ومضيا يعبران عن أحاسيسهما وانفعالاتهما، لقد عبر كاموئنس عن حزنه وقلقه في شعره كما يعبر البارودي، فهما يتأسفان على مضي أيام الطرب والفترة الذهبية من

حياتهما، وينغمسان في ذكرى تلك الأيام السعيدة ويحلق شوقهما في خيال الماضي فيتراءى لهما انعكاس ذلك العصر عندما كان يعيشان تحت ظل الحب والغرام، ويستريحان بهمومهما وغمومهما من هذه الذكريات ويخففان وجعهما وألمهما بهذا الطريق. وبعد ذلك توجه الباحث إلى دراسة عناصر الحنين إلى الوطن في شعرهما فإنهما يصوران تصوير الفراق، فراق المرء عن وطنه الحبيب، ويسجلان انفعالات الحنين إلى الوطن فتأخذ مشاعرهما تموج، وتتحاشد عواطفهما عليهما، وتجعل الانفعالات تفيض من أعماق قلبهما، وتصدر هذه الأحاسيس من وجدانهما تلقائيا، ولا يعتمدان على جهد الصناعة الشعرية، بل يرسلان نفسهما على سجيتها في وضع عاطفي، فيتخذ العواطف سبيلها إلى اللسان وتنطلقت من اللسان إلى الألفاظ والكلمات فتتحول هذه الكلمات في شعر رائع بديع، ثم ناقش الحنين إلى الحب في شعرهما، وانتهى الباب بمناقشة: شجون الاغتراب في شعرهما.

هذا وفي ضوء دراستي لهذا الموضوع قد توصلت إلى نتائج يمكن إجمالها في أن محمود سامي البارودي ولوئس دي كاموئنس من الشعراء المعدودين الذين أثروا الأدب والشعر، إنهما قاما بالإحياء والتجديد في شعر بلدهما وأثرا الفكر من حيث القوم كما قاما بتعزيز الوطنية من خلال شعرهما، واتخذا طريقا مماثلا لترويج النهضة في شعرهما حيث اعتمدا على المصارد القديمة الموثوقة، ومع اختلاف ثقافاتهما وعصورهما إنهما

عبرا عن الابتلاءات الإنسانية العامة بصورة مماثلة خاصة خلال منفاهما حيث أكثرا في شعر الحنين و الاشتساق في هذه الأيام تهدئة لآلام الاغتراب وشجونه.

أما من أهم التوصيات لدراستي فتتمثّل في توسيع نطاق البحث إلى أثر الشعر العربي على الشعر الغنائي البرتغالي، ويبدو أن شعر ترابادور Troubador تأثر من الشعر العربي خلال أيامه الأخير في شبه الجزيرة الإيبيرة.

المراجع والمصادر

المصادر العربية

1. إبراهيم، سمير عمر، الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1992م.
2. أبوعلي، نبيل خالد، الأ دب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني، الجزء الأول، دار المقدار للطباعة، غزة بفلسطين، 2007م.
3. إحسان عباس،اتجاهات الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م.
4. أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، دون السنة.
5. أحمد هيكل، تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، القاهرة، 1994.
6. الأعرجي،محمد حسين ، الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي، عصمي للنشر والتوزيع، القاهرة، دون سنة.
7. أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، ط 2، دار الكتب اللبناني، بيروت، لبنان،1983م.
8. البارودي، محمود سامي، ديوان البارودي، تحقيق: شفيق معروف، على الجارم،ج1-4، دار العودة بيروت، 1998م.
9. البارودي، محمود سامي، ديوان البارودي، تحقيق: شفيق معروف، على الجارم، الجزءالأول، دار المعاررف، القاهرة، 1971م.

10. البارودي، محمود سامي، ديوان البارودي، تحقيق: شفيق معروف، على الجارم، الجزءالثاني، دار المعاررف، القاهرة، 1971م.
11. البارودي، محمود سامي، ديوان البارودي، تحقيق: شفيق معروف، على الجارم، الجزءالثالث، دار المعاررف، القاهرة، 1972م.
12. البارودي، محمود سامي، ديوان البارودي، تحقيق: شفيق معروف، على الجارم، الجزءالرابع، دار المعاررف، القاهرة، 1974م.
13. البارودي، محمود سامي، مختارات البارودي، (هدارة محمد مصطفى)، الهيئة المصرية العامة في الكتاب، مصر، 1994م.
14. التازي، عبد الهادي، ابن ماجد والبرتغال، الطبعة الثالثة، وزارة التراث والثقافة، مسقط، عمان، 2005م.
15. جرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث مع فذلكة في تاريخ المصر القديم ج1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة،2011 م.
16. جرجي زيدان، تراجيم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج1، مؤسسة هنداوي للتعليم والنشر، القاهرة، دون السنة.
17. جرجي زيدان، تراجيم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج2، مؤسسة هنداوي للتعليم والنشر، القاهرة، دون السنة.
18. جيري بروتون، عصر النهضة العالمية، ترجمة محروس، إبراهيم ألبيلي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014م.
19. رضوان،نبيل عبد الحي، جهود العثمانيين في الحد من التهديد البرتغالي للنشاط التجاري في الخليج العربي من خلال الوثائق العثمانية، تم التحميل من www.4shared.com dated 6/8/2015

20. الزيدان، عبد الله بن علي والآخرون، الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، ط 1 ،مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض، 1996م.
21. زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، تعريب: فاروق بيضون و كمال دسوقي، ط2، دار الجيل، بيروت، 1993م.
22. السحرتي، مصطفى عبد اللطيف ، الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، ط2، تهامة للنشر والمكتبات، جدة، 1984م.
23. شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، دار المعارف، القاهرة، 1964م.
24. العقاد، عباس محمود ، شعراء مصر وبيئاتهم في الجييل الماضي، مطبعة حجازي، القاهرة، 1937م.
25. علي الحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، ط 5، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987م.
26. علي الحديدي، محمود سامي البارودي شاعر النهضة، مكتبة أينجلو المصرية، القاهرة، 1969م.
27. عمر الإسكندري و الميجرا. د سقدد، تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، ط4، مطبعة المعارف، مصر، 1920م.
28. عمر الدسوقي ، محمود سامي البارودي، ط3، دار المعارف، مصر، 1970م.
29. العيدروس، محمد حسن، سقوط الحكم البرتغالي في الخليج العربي،ط 1، دار المتنبي للطباعة والنشر، أبو ظبي،1997م.
30. فائق مصطفى وعلي، عبد الرضا، في النقد الأدبي الحديث منطلقات وتطبيقات، ط1، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1989م.
31. لجنة الأساتذة، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، دار المعاف، لبنان، 1962م.

32. محمد الكتاني،الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث، ط1، الجزء الأول، دار الثقافة، القاهرة، 1982م.
33. محمد الكتاني،الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث، ط1، الجزء الثاني، دار الثقافة، القاهرة، 1982م.
34. محمد سوباكر، الشعر في ديوان البارودي (دراسة تحليلية في علمي العروض والقافية)، بحث جامعي لنيل الدكتوراه، قدم إلى كلية الآداب والعلوم الثقافية، جامعة سونان كاليجاكا الإسلامية الحكومية، جوكجاكرتا، 2014م.
35. محمد عويضة، محمود سامي البارودي إمام الشعراء في العصر الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1994م.
36. المسيو تيودور روذستين، تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده، تعريب: علي أحمد شكري، مكتبة الهلال، مصر، 1927م.
37. المليباري، أحمد زين الدين المعبري ، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، ط1، مؤسسة الوفاء، بيروت، 1985م.
38. النخال، منال سليم سالم ، الشعر العربي في القرن التاسع عشر الميلادي/ الثالث عشر هجري أغراضه - ظواهره -اتجاهته - قضاياه، رسالة الماجستير قدمت لكلية الدراسات العليا في الجامعة الإسلامية بغزة، فلسطين، 2013م.
39. النشار،محمد محمود أحمد، تأسيس مملكة البرتغال السياسة الخارجية لألفونسو هنريكز ملك البرتغال، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم،1995م.
40. النشار،محمد محمود أحمد، دراسات في تاريخ إسبانيا والبرتغال في العصور الوسطى، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم،2007م.
41. هيكل، محمد حسين، الشرق الجديد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962م.
42. هيكل، محمد حسين، ثورة الأدب، درا المعارف، القاهرة، 1983م.

Portuguese Sources:

1. ....., Diario de Noticias, *Studo sobre Camões,* Imprensa Nacional, Portugal, 1980.
2. Burton, Richard F, *Camões,* Imprensa Nacional, Portugal, (year not mentioned).
3. Camoens, Luis de, *Obras de Luis de Camoens,* A Custa de P. Gendron, Paris, 1759.
4. Camoens, Luis de, *Obras do Grande Luis de Camoens,*Ocidental, Na oficina de Josiph Lopes Ferreira, Lisbon.
5. Camões, Luis de, *Lirica Completa,* (Edit. Saraiva, Maria de Lurdes), Inprensa Nacional, Portugal, 1981.
6. Camões, Luis de, *Os Lusiadas de Luis de Camões,* Imprensa Nacional de Lisboa, Lisbon, 1971.
7. Camões, Luis de, *Os Lusiadas de Luis de Camões,* Instituto Camões, Ministério da Educação, Lisbon, 1992.
8. Camões, Luis de, *Versos de Camões,* (Edit. Nemésio, Vitorino) Ministério da educaçã Nacional, Portugal, 1974.
9. Faria, Servim de, *Vida de Luis de Camões,* Imprensa Nacional, Portugal, (Year not mentioned)
10. Ferriera, Joao Palma, *Literatura Portuguesa Historia e Crítica,* Imprensa Nacional, Portugal, 1985.
11. Filho, Leodegárico A de Avezendo, *Lirico de Camões,* Imprensa Nacional, Portugal, 1985.
12. Hermâni, Cidade, *Luis de Camões o Lírico,* Editora Presença LDA, Lisbon, 1936.
13. Camões, Luis de, Obras Completas De Luis De Cosmoes Edit: Feito, J.V. Barreto e Monterio, J.G., E book downloaded from www.gutenberg.net Release Date: March 5, 2010.
14. Camões, Luis de, Os Lusiadas, IV edition, Instituto Camoes, Lisboa , 2000.
15. M, V.de V., Poesias Lyricas Selectas de Luiz de Camoes, Coimbra Imprensa da Universidade, 1876.

16. Strock, William, *Vida e Obra de Luis de Camões,* Imprensa Nacional, Portugal, (year not mentioned)
17. Braga, Theophilo, Camoes e o Sentimento Nacional, Livraria Internacional de Ernesto Chardron, Porto, 1891.
18. Braga, Theophilo, Historia da Litteratura Portuguesa, Livraria Chardron, Porto, 1898.
19. Vaghetti, Andre Luis do Amaral, A Representacao da Mulher na Lirica Camoniana, Dissertacao apresentada ao Curso de Pos-Graducao em Letaras, Humans, Setor de Ciencias, Letras e Artes da Universidade Federal do Parana, Curtiba, 2002.

English Sources:

1. Adamson, John F. S. A, *Life and writings of Luis de Camoens,* Newcastle, London.
2. Badawi, M. M., *A Short History of Modern Arabic Literature*, Clarendon Press, Oxford, 1993.
3. Burton, Rechard F., *Camoens: His life and his Luiads,Vol. I,* Bernard Quaritch, London, 1881.
4. Burton, Rechard F., *Camoens: His life and his Luiads,Vol. II,* Bernard Quaritch, London, 1881.
5. Burton, Rechard F., *Camoens' Lyricks,* Wayman and sons printers, London, 1884.
6. Clement, Huart, *A History of Arabic Literature*, Goodword Books, New Delhi, 2002.
7. Haywood, John A, *Modern Arabic Literature,* Lund Humphries, London, 1971.
8. Brugman, J. An Introduction to the History of Modern Arabic Literature in Egypt, Brill Academic Pub, Netherland, 1997.
9. Menocal, Maria Rosa, The Literature of Al Andalus, Cambridge University Press, UK, 2000.
10. Nabuco, Joaquim, The place of Camoens in Literature, Cornell University Press, 1908.
11. Stangford, Lord Viscount, Luis de Camoens: His life and Writings, H. Maxwell, Philadelphia, 1805.
12. Aubertin, J.J., Seventy Sonnets of Camoens, C. Kegan Paul & Co., London, 1881.
13. Adamson, John and others, Lusitania Illustrata, Newcastle upon Tyne, 1846.
14. Camoes, Luis de, The Collected Lyrics Poems of Luis de Camoes, Translation by White, Landeg, Princeton University Press, New Jersy, 2008.
15. Bouterwek, Frederick, History of Spanish and Portuguese Literature, Vol II, Boosy and Sons, Broad Street, 1823.

16. Bell, Aubrey F.G., Luis de Camoes, Oxford University press, London, 1923.
17. Bell, Aubrey F.G., Portuguese Literature, Oxford, London, 1922.
18. Wade, Jonathan William, Early Modern Iberian Landscapes: Language, Literature, and the Politics of Identity, Dissertation Submitted to the Faculty of the Graduate School of Vanderbilt University, for Ph.D. in 2009.
19. Pater,Walter, The Renaissance Studies in Art and Poetry, The Macmillan Company, New York, 1994.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	1
الباب الأول: محمود سامي البارودي حياته وأعماله	8
الفصل الأول: خلفيات عصر البارودي	9
الفصل الثاني: حياة البارودي وشعره	28
الفصل الثالث: آثار البارودي وأعماله	80
الباب الثاني: لوئس دي كاموئنس حياته وأعماله	86
الفصل الأول: خلفيات عصر كاموئنس	87
الفصل الثاني: حياة كاموئنس وخدماته	111
الفصل الثالث: آثار كاموئنس وشعره	135
الباب الثالث: الأوضاع الشعرية في مصر والبرتغال خلال عصر الشاعرين	143
الفصل الأول: الوضع الشعري لمصر في عصر البارودي ودوره فيه	144
الفصل الثاني: الوضع الشعري للبرتغال في عصر كاموئنس ودوره فيه	161
الباب الرابع: المضامين الشعرية وأساليبها عند الشاعرين	173

الفصل الأول: البارودي فنه وأسلوبه	174
الفصل الثاني: كاموئنس فنه وأسلوبه	195
الباب الخامس: الحنين وشجى الاغتراب في شعر كلا الشاعرين	207
الفصل الأول: الحنين إلى الماضي وأيام الشباب في شعرهما	208
الفصل الثاني: الحنين إلى الوطن وأهله في شعرهما	215
الفصل الثالث: الحنين إلى الحب في شعرهما	223
الفصل الرابع: الاغتراب في شعرهما	230
الخاتمة	234
المراجع والمصادر	239
فهرس المحتويات	247

Reflection of Nostalgia and Pangs of Exile in the poetry of Mahmoud Sami al-Baroudi and Luis de Camoens: A Comparative Study

(*Inekasat al-haneenwashaja al-ighterab fi sher-i Mahmoud Sami al-Baroudiwaluis de Camoens: dirasahmuqaranah*)

Thesis submitted to the Jawaharlal Nehru University
in partial fulfillment of the requirements
for the award of the degree of

Doctor of Philosophy

By

AYAZ AHMAD

Under the Supervision of

Prof. FaizanullahFarooqi

&

Dr. Sovon Sanyal

Centre of Arabic and African Studies
School of Languages, Literature & Culture Studies
Jawaharlal Nehru University
New Delhi – 110067, INDIA

2016